منذ أكثر من عامين ، اتفقت رئاسة تحرير « الآداب » مع اتحاد الكتاب الجزائريين على أن يتولى الاتحاد اعداد مادة أدبية من انتاج الكتاب الجزائريين تنشر في عدد خاص من هذه المجلة . اسهاما منا بتعريف أدب ذلك القطر العربي المناضل الى سائر قراء الوطن العربي .

ولكن الاتحاد ، لسبب أو لآخر ، لم يتمكن طوال تلك الفترة من توفير هذه المادة ، فتأجل صدور العدد الخاص عدة مرات ، الى أن زار رئيس التحرير القطر الجزائري منذ ثلاثة أشهر ، والتقى بعض الادباء الشبان الذين تحمسوا للفكرة وأعلنوا استعدادهم للقيام بهذه المهمة . وقد وضعنا خطة ذلك العدد ، وكتبنا الرسائل الى عدد من الكتاب المعروفين ، وتطوع الاخ رزاقي عبد العالي ، مشكورا ، بالاتصال بالادباء وجمع ما يقدمونه لهذا العدد الخاص .

وها هي المادة التي تجمعت لدينا من انتاج الكتاب الجزائريين، ومعظمها بأقلام الشبان . ونحن نأسف لتقاعس معظم الادباء الذين كتبنا لهم ، فلم يجيبوا حتى بالاعتذار ، ونعترف منذ الآن بأن هذا العدد لا يمثل الادب الجزائري تمثيلا كافيا ، وان كان يعطي فكرة وافية عن انتاج الادباء الشبان. وقد آثرنا أن ننشر بعض المادة الضعيفة التي وردتنا ، شعرا وقصة ، على أن نطويها ، تاركين للنقاد والدارسين أن يحكموا فيها . ونأمل أن نتدارك ، في أعداد « الآداب » القادمة ، النقص الذي يتجلى في هذا العدد بنشر انتاج الادباء الذين تخلفوا عن الاسهام هنا ، فتكتمل صورة الادب الجزائري الحديث بمختلف أبعادها وممثليها .



أما القسم الآخر من هذا العدد الممتاز ، فيضم ملفا خاصا عن « مؤتمر تاريخ الامة العربية » الذي انعقد مؤخرا في جامعة قاريونس ببنغازي ، وهو في رأينا وثيقة هامة لا تعني المؤرخين وحدهم ، وانما تعني كل المثقفين العرب الذين يهتمون بتاريخ الامة العربية من حيث تدوينه وكتابته بمنظورات موضوعية ، على ألا تضر هذه المنظورات بخصوصية الامة العربية ذات الحضارة القومية الانسانية التي ليست موضع نقاش أو شك ، حتى لدى أشد المتعصبين من المؤرخين الاجانب أو المستشرقين المغرضين .

« الآداب »

التداعي

محمد بلقاسم خمار

حاولت أن أكتب شعرا
من رؤى حقيقتي
بدونما ايحاء
بدونما حياء
بدونما خوف ولا طمع
حاولت أن أكتب من حريتي
لكنني لم أستطع

* * *

الطائر الذي ليس له وطن
أنسج من ظلاله
للحب رايتي ..
ومن ألوان ريشه
لغربتي السكن

* * *

« لوركا » اختفى
أنكره التراب
صلبه المسيح
وعاد ..
ثم مات ثانيا
بسيف « شاكر السياب »
ومات ..
مات « شاكر السياب »
بدونما أهل ولا أحباب ..

* * *

كم ذا أحببت أن أستلهم القمر
والفجر .. والنجوم ..
لكنني في مدن الاضواء
أعيش داخل الغيوم
في الطابق الارضي
لمارد يعانق السماء ..
ومنذ نصف قرن لم أر « السياب »
ومنذ الف قرن يا رجاء
أعيش للضباب

* * *

يخطىء كل من يقص شعر ذقنه
يخطىء كل من يرسل شعر ذقنه
يخطىء كل من يخاف
ولا يجز بالسكين جذع ذقنه
وانني كأي ضائع ــ هنا ..
أخوف من خوآف ..

* * *

يا لعنة الايام
أحب أن أعيش
أن أنام !..
دجاجة تبيض كل يوم
أعظم عندي من عشرين ديك
توقظني في الصبح ..
تحرمني من لذة الاحلام !..

محمد بلقاسم خمار
الامين العام لاتحاد
الكتاب الجزائريين

أدب البطولة في الجزائر (أثناء فترة الاحتلال الفرنسي)

عبد الحميد بورايو

شغلت الانسان منذ القديم فكرة اعادة النظام للكون ، وايجاد حالة من التوازن بين القوى التي تبدو متعارضة فيه ، والمتمثلة في مختلف الظواهر الكونية التي تحيط به ، وكانت وسيلته في التعبير عن هذا التوازن هي تجسيده للظواهر الكونية من خلال نشاطه الروحي تجسيدا دراميا يعطي تفسيرا لمسألة القوى المتعارضة في الكون ، وهي قوى متكافئة لا تكون نتيجة صراعها حاسمة ، ولكنها تحقق التوازن الذي يسعى اليه الانسان . ولم يقف الانسان موقف المتفرج من هذا الصراع ، انما اتخذ موقفا الى جانب تلك القوى التي تعود عليه بالنفع ، وضد القوى التي تمنع عنه هذا النفع ، وجعلها تتجمع حول قطبين ، الخير من جهة والشر من جهة أخرى ، وجسّدها في تعبيره الفني ، فظهرت الى الوجود فكرة البطولة ، فكانت في البداية البطولة التي يصنعها الاله ، ثم التي يصنعها الانسان نصف الاله ، ثم بعد ذلك البطولة التي يصنعها الانسان ، تبعا للمراحل الحضارية التي مرت بها البشرية ، وكانت البطولة في جميع هذه المراحل رغبة دفينة في أعماق الانسان تشق سبيلها نحو التحقق ، وتنطوي على ادراك لم يفرضه وجوده المتطور من تضحية مستمرة ، وتجسيد لرغبته في خلق عالم آخر الى جانب عالمه الواقعي ، عالم يسوده النظام ، ويتم فيه الغاء الفوضى ، ويحقق نزوعه الى تصعيد الواقع الى عالم المثال . وقد صورت الاساطير الفعل البطولي الذي طمع الانسان من خلاله الى الحصول على خصائص الهية تمكنه من السيطرة على الكون ، مثل خاصية « الخلود » (مثلما فعل جلجامش بطلَ الملحمة البابلية المعروفة بهذا الاسم) .

ويمثل الانسان نصف الاله ، وجميع القوى المتواجدة في الكون ، وعلى رأسها قوى الآلهة ، أطراف الصراع في تحقيق البطولة الاسطورية . والبطل في الاسطورة لا يشعر بالحدود الفاصلة بينه وبين هذه القوى ، ولا بالحدود الزمنية ، ولا يكاد يميز نفسه كنقطة محدودة من الزمان والمكان ، بل يجعلها امتدادا أو صدى لمظاهر الكون .

وعندما بدأ الانسان يشعر بذاته ، ويدرك البعد الذي يفصله عن العالم الآخر ، نقل البطولة من العالم السماوي الى عالم الارض ، وبدأ يفكر في عالمه وفي الوسائل التي يحقق بها وجوده وذاته على وجه الارض ، وفي هذه المرحلة ظهرت البطولة الملحمية ، وهي فعل بطولي يقوم به انسان من لحم ودم ، يتعامل مع قوى من العالم الآخر ، لكن هذا التعامل لا يجعل العالمين يختلطان ، بل يظل الفاصل بينهما قائما . فلا تقوم الآلهة بالدور الرئيسي الذي كانت تقوم به في الاسطورة ، انما تصبح قوى مساعدة ترقب البطل من بعيد ، وتتدخل عند الحاجة ، ومنذ هذه اللحظة ـ كما تقول الدكتورة نبيلة ابراهيم ـ « أصبح الانسان ثملا بوجوده على وجه الارض، وأصبح همه أن يصور النموذج البطولي للانسان الذي يستطيع أن يحقق شيئا رائعا لعالمه الانساني . ولا يعني هذا انه انفصل عن العالم الغيبي ، فالانسان القديم ـ ومثله الانسان الشعبي ـ لا يشعر بوجوده الا في ظل احساسه بوحدة الكون ولكنه في الوقت نفسه لم يعد يقاوم التفكير في ذاتيته بوصفه انسانا مميزا عن سائر الكائنات وقادرا على تحقيق العمل الكبير الذي يغير الحياة وينقلها من طور الى طور ، وكان هذا هو الدافع بعينه وراء نشأة القصص البطولي بكل أشكاله » (١) . على ان الانسان في أثناء عملية وعيه لذاته في هذه المرحلة الحضارية الجديدة لم يدرك ذاته منعزلة عمن حولها بل أدركها في وجودها الاجتماعي ، لذلك جاء أدب البطولة معبرا عن ذات الجماعة أو الشعور الجمعي ، وهو ما دفع الباحث الفرنسي « جان بيار بيار » الى رد تاريخ نشأة قصص البطولة الى فترة ظهور النظام القبلي (٢) . وسميت الفترة التاريخية التي ظهر فيها أدب البطولة بعصر البطولة ، وذلك لكونها تمثل مرحلة متميزة في تاريخ تطور المجتمع البشري . وقد أصبحت هذه البطولة تعبر عن استمرارية التغيير ، وتقوم بدور الوساطة بين الماضي والحاضر ، وبين القديم والجديد ، فهي القدرة الخالقة للحضارة والتاريخ ، وقد يكون هذا التاريخ تاريخ قبيلة في البداية ثم يصبح تاريخ أمة بأكملها تماشيا مع تطور النظام الاجتماعي وتغير الظروف الحضارية ، والتاريخ هنا ليس وقائع حدثت في الماضي،

انما هو ما يجب أن يكون . وبعبـارة أخرى : ان ادب البطولة ليس تسجيلا لما يقع انما هو بناء للنموذج الذي يعتمد على معطيات الواقع المعاش ، لكنه يتجاوز هـذا الواقع . أو هو بقدر ما يبتعد عنه ويقترب من الواقـع النفسي للشعوب . ويعبر عن مثلها ، ومن هنا فهـو لا ينقل التاريخ بحرفيته انما يصنعه ، وما البطل الا صانع للتاريخ .

وقد عرفت مختلف الشعوب على مر العصور أدب البطولة ، فظهرت ملحمتا الالياذة والاوديسة عند اليونان وملحمة رولان عنـد الفرنسيين وملحمة السيد عنـد الاسبان والسير الشعبية عند العرب . وهي جميعـا تشترك في سمات عامة تطبع هذا اللون من الادب ، من أهمها اعتماده على الوقائع والشخوص التاريخية ومحاولة الراوي اضفاء ثوب الحقيقة على ما يرويه ، ووجـود وفاق بين ارادة القوى العلوية (الالهية) وارادة البطل . وتتدخل القوى الخارجية لمساعدة البطل او محاربته أو مناصرة أعدائه . غير ان تدخلها لا يطغى على ما تصنعه القدرات التي يتمتع بها « البطل الانسان » وهي قدرات عقلية وجسمانية وروحية . وأدب البطولة أدب موضوعي ذو طـابع درامي يجنح الى المبـالغة في التصوير . ويستعين بمجموعة من العمليات السردية يسميها «بورا» « آلية السرد » (٣) التي تتكرر في كثير مـن الاحيان بصيغ متشابهة مثـل وصف ساحـة القتال . وعـدة المقاتل . ومقدراته القتالية والمعركة والانتصار الخ ...

وقد عرف الوطن الجزائري شكلا من أشكال أدب البطولة هو « المغازي » ، وهـو شكل قصصي ينشـده الرواة المحترفون في الاسواق والتجمعات العامة بمصاحبة عزف الآلات الموسيقيـة التقليدية ، ويؤدى أداء دراميا يطلق عليه رواته اسم « غزوات » و « غزيّ » ومفردها « غزوة » . وهو يتناول وقائـع الفتوحات الاسلامية . ويتغنى فيه الرواة ببطولات الفاتحين ، ويأتي في طليعة هؤلاء الامام علي بن أبي طالب بالنسبة لفتوحات الشام واليمن . وعبد الله بن جعفر بالنسبة لفتوحات افريقية، ثم المقـداد بن الاسود الكنـدي والزبير بن العـوام وخالد بن الوليد وعقبة بن عامر .. ويعمـم المصطلح فيطلق على قصص لا تتناول موضوع الفتوحات والمعارك التي وقعت بيـن المسلمين وخصومهم ، ولكنها تتنـاول موضوعـات تتعلق بسيرة الرسـول (ص) وحفيـده الحسين بن علي بن أبي طالب ، فتروي قصة الرسـول روفاته وكذلك قصة مقتل الحسين .

أصول المغازي :

انتشر هذا اللـون القصصي انتشارا واسعا في الجزائر أثناء فترة الاحتلال الفرنسي . وقد استلفت نظر الباحثين الفرنسيين فكتبوا عنه أبحاثا مطولة ، وقـد أرجعه المستشرف « ج. دسبرميه » الـى الادب الـذي ظهر في البلاد العربيه منـذ القرن الرابع عشر عندما بدات سيطره المسلمين تنحسر . وحدود بلادهم تتراجع امام المد المسيحي . يقول هدا المستشرق : « منذ القرن الرابع عشر تقريبا . وبالتحديد منذ ان بدأ الفتح العربي ينسحب امام العودة الهجومية للمسيحية ، أنتجت أرض الاسلام ادبا يحمـل اسم « المغازي » من نفس طبيعـة « الفزوات » التي نتحـدث عنها . وهو أدب مجهـول بالنسبه لنا . يحتفي في التاريخ الادبي تحت قناع اسم طموح ومستعار . ويتمثل هدفه الوطني في انقـاذ ماء الوجه . والتذكير بالانتصارات الماضية . لنسيان الذل المعاش في الحاضر . وقد اثبت الغزو الفرنسي (للجزائر) لهذا الجدع القديم لروايـه الفروسية الاسلامية فرعـا جديدا » (٤) . والحقيقه ان جذور هذا اللون من الرواية الشفهية تعود الى تاريخ أبعد من ذلك : انهـا تعـود الى تاريخ ظهور الاسلام الذي يعد « أحد الحوادث العالميـة الكبرى التي فجرت عصر البطولة وأدب البطولة » (٥) . عندما ظهرت روايه السير والمغازي التي عرفت منـذ القرن الاول الهجري . ووجدت طريقها الى التدوين . ويحتوي التراث العربي على قدر وافر مـن مدوناتها . ويعد من رواد هذا اللون من الرواية « ابان بن عثمان » (٦) و « محمـد بن اسحاق » (٧) و « محمد بن عمـر الواقدي » (٨) . والى هـذا الاخير ينسب الـرواة الجزائريون ما ينشدونه من قصص تتعلق بفتح شمـال افريقيه . وقد خضعت الروايات المدونة التـي اغترف منها هؤلاء الهواة الى نوعين من عمليات التشكيل ، تمثلت العملية الاولى في صياغتها شعرا في اللهجة المحلية من قبل الرواة المبدعين ، كما تتمثـل العملية الثانية في التعديل في بنائها من خلال الاحتفاظ ببعض عنـاصرها المكونة . واسقاط بعضهـا ، واعادة ترتيب بعضهـا الآخر ، واضافة أخرى جديدة . وبعض هذه التعديلات ذو طابـع شكلي صرف . مثل التخلص من الاسنـاد والمقاطع الشعرية التي تأتـي في المدونات في معرض الاستشهاد ، وما يتعلق بمتطلبات الشعر والانشاد مـن تكثيف للمعاني ، واكتفـاء بالتلميح والاشارة ، بـدل الاسهاب والتفصيل . وكـذلك ما يمس احكام البناء القصصي مثل اسقاط بعض الفقرات التي تمثل نتـوءا داخل هذا البناء ، كالاستطرادات غير الموظفة في القصة، والتفاصيل ذات الطابع الاخباري . وبناء الاحداث بشكل يسمح بابراز العمل البطـولي ، مما يستدعي اختصـار عدد الشخوص وتسليط الضوء على شخصية البطـل . ودفع بقية الشخوص الى مواقع خلفية .

وهناك مـن التعديلات ما يتعلق بالمحتوى ، مثل اضافة اعتقاد محلي شائع يأتي في معرض تفسير حادثة تاريخية أو ظاهرة ما تعرضت لهـا الغزوة . واختفـاء العصبيات القبلية التي تظهر بارزة في المغازي المدونة ،

وانتقاء الاحداث التي تخدم العمل البطولي في الغزوة . واهمال تلك التي قد لا تتعلق بشخصية البطل أو ببطولته مثل الفتوحات التي تمت صلحا . ووصف الطرق التي سلكها جيش المسلمين في فتحه لشمال افريقية ، والتي تحرص المغازي المدونة على تفصيلها . وكل هذه التعديلات دعت اليها ظروف المجتمع الشعبي الجزائري، الذي اصبحت تروى فيه هذه المغازي حديثا . فمما لا شك فيه ان ظاهرة العصبيات القبليه بالشكل الذي وردت عليه في كتب المغازي اختفت ولم يعد لها وظيفة في المجتمع الجزائري . كما ان الدور الوظيفي الذي أسند لهده المغازي في هذه المرحلة ـ والذي سيأتي تفصيله فيما بعد ـ اصبح يقضي بعدم اثارة أي نوع من هذه العصبيات من أجل تاكيد الشعور الوطني ، وتوحيد صفوف الشعب لمواجهة العدو الاجنبي ، وابراز النموذج البطولي لجميع أفراد الامة . وهو الدور نفسه الذي جعل الرواة الناظمين للمغازي يخلعون عنها الطابع الاخباري الذي عمل المدونون على اضفائه عليها ، ويختارون العناصر التي تعمل على ابراز العمل البطولي، ويحتفون بالوقائع القتالية . ويعطونها طابعا ملحميا لا يمكن ان يخطئه الدارس .

والى جانب هذا التغيير الذي اعترى شكل قصص المغازي القديمة ومضمونها فان هناك تغييرا أساسيا آخر ، تطلبته الرواية الشفاهية عن طريق الانشاء واتباعها بما يسميه الرواة « التفسير » ويقصدون به أداء مضمون القصيد عن طريق ارجاعه للقالب النثري ، وما يستتبع ذلك من تفصيل واضافات يتوخى منها الراوي تلوين المشاهد القصصية التي يرسمها الراوي الناظم ، واعطاءها اطارها النهائي ، وايضاح جزئياتها ، وهو يستعين في سبيل ذلك بمختلف الوسائل ، منها الاداء التمثيلي ، والاستعانة بمحفوظه من التعبير الشعبي ، مثل الامثال ، والكلام المأثور ، والمقاطع الغنائية ، والتمثيل بقصص لا تدخل في نسيج الغزوة . وانما تأتي لتأكيد الموقف ، وكذلك عن طريق التعليق على المواقف ، واستقاء التشبيهات من عناصر الواقع المعاش، لتقريب الصورة لاذهان المستمعين . واذا كان نظم الغزوة شعرا يدخل في مجال ابداع الرواة ، فان عملية تفسيرها تدخل في مجال ابداع الراوي المؤدي . وتمييزنا هنا بين الراوي المبدع والراوي الناقل مجرد تمييز اصطلاحي ، نستعين به في التفريق بين الجيل الاول من الرواة الذين تعاملوا مباشرة مع الروايات المدونة والاجيال التالية لهم والتي قامت بأداء ما نظموه من مغاز .

شكل المغازي :

ويقدم رواة المغازي مادتهم بوصفها « تواريخ » ـ على حد تعبير المجتمع الشعبي ـ وتظهر النزعة التاريخية واضحة في هده المادة . فيحاولون أن يلبسوها ثوب الحقيقة . فنجد فيها اهتماما بتحديد زمن حدوث الوقائع ، فتذكر اذا ما كانت حدثت زمن النبي (ص) أو زمن أحد الخلفاء الراشدين ، الذي تذكر اسمه ، كما تذكر اسماء المواضع . وتحدد المسافات ، وتسمي الصحابة . وافراد عائلة الامام علي . والحكام الذين كانوا يحكمون المدن المفتوحة . وقادة المعارك من الجانبين . وتقدم تعدادا للجيوش من الجانبين ، ولعدد القتلى . واحيانا تشير الى الخلاف في الروايات ، فتذكر عدة روايات لحدث واحد . مثلما نجد في قصة مقتل الحسين . عندما تقدم الرواية تفسيرات مختلفة لحدث اختفاء جثة البطل . غير ان هذه النزعة التاريخية . بالاضافة الى ما ذكرناه . في بداية هذا المقال ، عن المفهوم الشعبي للتاريخ ، ليست سوى قاعدة لبناء خيالي تلعب فيه الخوارق دورا كبيرا ، فنجد الابطال وخصومهم يتمتعون بقوى بدنية جبارة ، فيستطيع الواحد منهم أن يقاتل المئات بمفرده . ويضرب الامام علي بسيفه ضربه واحده فيحصد رؤوس ألفين من الجنود ، وتتدخل القوى الخارقة المتمثلة في الجن والمردة والملائكة لتقلب موازين المعارك ، وقد تكون هي الخصم ، وكذلك في الادوات ذات الخصائص السحرية . مثل القميص الواقي ، والتاج الذي يخفي صاحبه عن الاعين ، والطائرة السحرية ، والحصان والسيف المنزلين من « القدرة الالهية » ، واللذين لهما خواص خارقة للعادة ، فيطوي الاول المسافات البعيدة في لحظات قصيرة ، ويسمع صوت نداء النجدة لصاحبه ، ويقطع الثاني آلاف الرؤوس في ضربة واحدة . وتقوم الكلمة بدورها السحري بين هذه القدرات الخارقة ، فتكون الآيات القرآنية والرقى أداة لشفاء الجروح ، وابطال مفعول القوى السحرية ، ومحاربة الجن . وقطع المسافات الطويلة في وقت قصير . وترسم الاحلام وتنبؤات الرسول (ص) والعرافة صورة مسبقة لما سيحدث ، ويلتقي سكان العالم المجهول من الاموات بالاحياء ، وقد تتم عودة بعضهم الى الحياة الدنيا بعد أن يكونوا قد عاشوا فترة قصيرة في العالم الآخر .

وتمثل الغزوة قصة مكتملة ، لها بداية ووسط ونهاية ، وهي في الوقت نفسه ترتبط بمثيلاتها بوحدة ملحمية ، فالمغازي تسند البطولة لعدد محدود من الشخوص ، وتقدم الامام علي كبطل لفتوحات الشام واليمن ، وعبد الله بن جعفر كبطل لفتوحات افريقية ، والبطلان لا يغيبان في المغازي الاخرى ، التي تسند البطولة لغيرهما ، وبخاصة عبد الله بن جعفر الذي يظهر في كل غزوة منجدا الشخصية التي تقع في الحرج . وكان علي ذلك الفارس الذي يصل عندما يجد البطل نفسه في مأزق . وكثيرا ما يستدعي تصوير الموقف . أو تقديم البطل في غزوة ما ، لان يشير الى حدث أو

موقف في غزوة أخرى . بل ان هنـــاك مغازي تعتمد مقدماتها على نهايات مغاز اخرى . وأحيانا يقدم الراوي لشخصية جديدة فيغزوة ما ، ثم تظهر الشخصية نفسها في غزوة اخرى على أساس ان جمهور المستمعين يعرفها من قبل . فالمغازي ، وان كانت تمثل مجموعة مــــن المواقف البطولية لكل موقف منها استقلاله الموضوعي ، فانها ترتبط فيما بينها ، مكونة وحدة كبيرة من العمـل البطولي . ولو اننا قمنـا بتنسيق جميع المغـازي فـي وحده متسلسلة لحصلنا على عمل أدبي يتوفر على كثير من شروط الملحمة كنوع أدبي ، وسيكــون بطل هـذا العمل الامام علي في نصفه الاول ، وابن أخيه عبد الله ابن جعفر في نصفه الثاني ، ويمثل امتدادا له ، فهـو ابن أخيه . وهو نفسه الذي دفع به الى القتال ، وأرسله مع جيش الفتح الى شمال افريقية ليقوم بما قام به هو في الشام واليمن ـ كما تذكر احدى الغزوات ـ .

ولا تتمثل الوحدة الملحمية في المغازي المروية في وحدة أبطالها فحسب ، بل تتمثل كذلك في وحدتهـا الاسلوبية ، فهناك صيغ تتكرر فيها جميعـا ، مثل تلك التي تتعلق بوصف مواقف المواجهة بين البطل وخصمه . وبين الجيشين المتحاربين ، ومثــل تلك التي تتعلق بوصف الاسلحة والخيل وساحة المعركة ، وكذلك تتمثل في القيم والمثــل التي يجسدها الابطال ، والمعتقدات والاهتمامات الروحية التي تنبع منها هذه القيم والمثل ، فهي تهدف الى اقرار العدل والمساواة والقضاء عـلى الظلم والالتزام بسلوك أخلاقي معين وتغليب الخير على الشر .

ويعتمد تحقيق البطولة في المغازي المروية الـى جانب القوى البدنية للابطال على قواهم المعنوية ، فهي تقوم على شجاعة البطل المستمدة مـن عنصره العربي ، وقوته الروحية المستمدة من كونه يدافـع عن الحق ، ويسعى لاقامة النظام ، يؤدي رسالة سماوية كلفه بهـا الرسول (ص) أو خليفته . ولا بد أن يكون الله فـي عونه . والعون الالهي قد يكون في شكل خفي ذي طبيعة معنوية . خاصة اذا ما كان البطل يحارب قوى بشرية ، ويكون قوة متجسدة في اسم « الله » ، أو في البسملة . او في آية قرآنية معينـــة ، أو في رقية تركها النبي للامام علي . وسلمها هـذا الاخير للزبير بن العوام ، ليسلمها بدوره لعبد الله بن جعفر ، أو في قميص للنبي يرتديه الامام علي وهــو يصارع التنين ، أو في آيـة الكرسي التي يقرأها الامام فتطــوي الارض . ويقطع الصحابة مسافة طويلة في لحظـات قصيرة . وسيف الامام ، وحصانه ، اللذان تسلمهما من القدرة الالهيـة بواسطة الرسول (ص) ، الذي تسلمهما بدوره بواسطة الملك جبريل ، يتمتعـان بخواص خارقة للعادة ، ولا يستطيع أي شخص غير صاحبهما استعمالهما، فالسيف لا يخرج من غمده الا على يد الامام ، كما ان الحصـان قد يؤدي استعماله من طرف غير صاحبه الى الهلاك . مثلما حدث للحسين . عندما ركبه في قتـاله لجيش يزيد بن معاوية ، فرمى به أرضا مما سمح لاعدائه بأن ينالوا منه . ويولع الرواة بترديد الالقاب التي تطلق على الابطال والاشياء المساعدة ، وهي القاب توحي بحجم القوة والقدرة غير العادية لهؤلاء الابطال ، وهذهالاشياء ، وتجعلهم يتميزون عن غيرهم من الناس ، فالامام علـي هو « سبع الله » وهو « حيدرة » وهو « بوسكين » ، وحصانه هو « الميمون » وهو « السرحان » ، وسيفـه « ذو الفقار » الخ ...

وعـلى الرغم مـن ان الخوارق والمقدرات ، التـي تتجاوز حدود طاقة الانسان العادي ، واستخدام المبالغة في تصوير حجم الاعمال البطولية . تلعب دورا مهما في المغازي ، فان هذا لا يلغي العالم الواقعي المستمد مـن الواقع التاريخي . انما تضفي عليه صورة نموذجية ذات طبيعة فنية ، ويظل يخضع للمنطق الانساني وتحكمـه العلاقات التـي تحكم حياتنا العـادية ، وهي الارتباط بالزمان والمكان . واذا ما حدثت واقعة تتجاوز هـذين البعدين فان المغازي تنسبها لقوى غير بشرية . ويسقط الرواة مضامين رواياتهم على الواقع المعاش لجمهورهم . فالمغازي تتحدث عن مواجهة تقع بين مسلمين وكفـار ، ومن المؤكد ان جمهور المستمعين وهو يستمع الى هذه المغازي يحدث عمليـة زحزحة للاحـداث التاريخية ، فتصبح كأنها تصور هي بنفسها أحـداثا واقعة ، وفي هذه الحالة يصبح هو امتدادا لجيش المسلمين الاول ، ويصبح مستعمر بلاده صورة مكـررة لجيش الكفار ، ويعمل الرواة على تأكيد هذا التمـاثل ، فيطلقون على الكفار في المغـازي نفس الاسماء التـي تنتشر بيـن الجزائريين ، والتي يطلقونها عـلى الجالية الاستعمارية في الجـزائر ، وهي « الروامة » و « النصـارى » و « الكفار » ، كما يجعلـون شخوصهم مـن هؤلاء « النصارى » يتحدثون اللغـة الفرنسية ، وهي لغة المستعمر ، فينطقون على لسانهم عبارات مستعملة فـي الحياة اليومية ، وهم في وصفهـم للمظهر الخارجـي لهؤلاء الشخوص يلبسونهم اللباس الـذي يستعملـه المزارعون الاوروبيون المنتشرون فـي الريف الجزائري وقراه ، وهو « البرطلة » و « الفيستـه » و « السروال بو طويل » . ويظل هذا الاسقاط ضمنيا يختفـي وراء العنصر التاريخي في الشكل المنظوم للغزوة ، لكنه كثيرا ما يبين عن نفسه في أثناء أدائه عندما يكشف الراوي عن صلة ما يحكيه بالواقع الذي يعيشه جمهوره . وقد أهل العنصر الواقعي رواية المغـازي للقيام بدورهـا الوظيفي في المجتمع الجزائري ، فقدمت نماذج بطوليـة لعبت دورا بارزا في بث روح المقاومة والتحريض عـلى الثورة . ونستطيع أن تقدر ما مثلته الصورة النموذجية

ـ التتمة على الصفحة ٧٥ ـ

فصل من رواية

المضلع المرصع بالنجوم

كاتب ياسين

.... ليس في الامر أهمية :

انه جزائري

يعمل كثيرا

ولا يأكل شيئا ....

نحن نحمي المدائن والمرافىء ، ونقدم الهداة الى الاجيال الجديدة . لقد حملنا الاخشاب والحجارة والقمح ، وصمدنا في وجه الغزاة . نضل في المهاوي ، تحمينا حكمة بغالنا . ما من عدو تسرب الى هذه الاراضي الا واصطدم بتكتلاتنا ، وانهار أمام تاويلاتنا الجغرافية المكتملة . اننا نسير وفقا للقوانين دون أن نعرفها . ولكن ، من ذا الذي يتسلم غلالنا على أرصفة المرافىء ؟ وحرصا منا على عدم اغاظة أسلافنا ، بلغ الامر بنا أن صفقنا لانتصارات الميكانيكا . فعلا ، أن أهل العلم مدينون بحياتهم لتلك الصفات الرائعة التي تمتاز بها طبقتنا المحتقرة على الرغم من انهم نسونا ، نحن الذين نخشى اذا ما كففنا عن تكريمهم ، أن تسحقهم آلاتهم . أما عن الفنانين ، فنحن لم نشاهد أحدا . اننا نعلم انهم موجودون . فهل يعلمون بأننا أحياء ؟! أيها المسافر المضطهد ، لتكن ما شئت ، فانت رب الفيافي والغابات . كان الملاحظون يأتون كل سنة ليقرعوا بابك مصحوبين بالمتواطنين معهم أو مقتفين بآثارهم . أتراهم كانوا يأتون للحج أو لارتشاف الشاي تحت أشجار البلوط ؟ في كل مرة ، كانت احدى بناتهم تمنح نفسها سرا لكي نصلح بينك وبين ذويها . أما أنت فكنت تبدد زوارك بمشاريعك المهولة . أما كنت تريد خوض الحرب ضد الغزاة وتواجههم بأفكارك المبهمة ؟ « حافظوا على الغلال اذا بقيتم في هذا البلد » . ثم انك أمام فضيحة المفتي دعوت مواكبك الطفولية الى غزوة جنونية لا ترحم : « لننظر اذا ما كانت ضحايانا القادمة تتضرع الينا ، واذا ما كان يتعين علينا أن نعلمها فضائلنا » . المأساة بالنسبة لكل ما هو جامد تكمن في معانقة هذا الظل المتجمع . انه الارق . شفاه ندية تتجاذب فيما بينها تحت تهديد الزمن . القبيلة ، الحاضرة لن تكون لهما الا جهالات مصطنعة ، سوف ينفصل أحدنا عن الآخر بأمر من المؤسس حالما يحمر الحديد . هيكل لفظي يصطخب حين قدوم الدخيلة ، بذوبان مفاجىء ، وفي السماور يرتسم رمز بارز للعدسة المقابلة : ان طريق الدخيلة مغطى بخطوات غير متوقعة ! انها في الحمّام ، ملاك من البشرة التي يمكن ملامستها ، مطر من الدم المستكين . كل رغبة تتبدد في ذلك التخدير الذي تقع مخلوقاتنا المفضلة تحت وطأته ، تلك المخلوقات الكثيرة الحركة . اننا نظل حفاريها الحائرين السريعين . النملتان تتصارعان . انهم يحولون الانسان الى مجرد شيء ، ويرفعونه خارج ذاته ، ينقلونه نحو جنون غريب لا يمكن أن يكون الا حلما. غير أن هذياننا متعدد الادمغة يستولي على كل الاختلافات

لكي يشير الى طريق المقبرة قبل الاوان والى المستشفى أو الى الثكنة . لكأن هذه الطرق لم تكن معروفة من قبل . لكانه لا توجد طرق أخرى نبحث عنها في سرائرنا بعناد هؤلاء الذين يمشون في النوم ولا يريدون الرجوع عن خطواتهم . كانهم يخشون الاصطدام باللغز الذي تخبأ فيه الوهن الاول ، وتبخر كله أمام موكب الوقائع القاسي . لن تكون قفزة عجيبة بل هزة بقة متيقظة دائما وابدا . لكأن خطط تراجعنا تشكك في طبيعة الدب الذي ينطوي على مشاكله . ما أن تهب الريح حتى يعد الدبة العدة لشتائهم المرير . انهم ينسون فيه الاغنية الهائلة التي تنشدها أسراب النحل ، ويصيرون جنونيين بعد هذيانهم المتطرف .

انها بداية الشتاء أو أواسطه . لعله وداع الربيع . ها هو العتب الرديء يبدو في آخر المطاف . لنذهب الى الاصطبل . سوف نحرق صخورك الصغيرة المعطرة . ثم سافارقك هذا المساء وسوف أذهب لاحدث البؤساء عن جمالك بكلمات مبهمة : « ان أنا أردت تسديد الطعنة اليها عند خروجها من الحمام ، فالافضل لي أن أقبّل الافعى من لسانها » .

يبدو لي انني عثرت عليك بأعجوبة وأنت لم تتماثلي بعد الشفاء من شكوكك ، وكانك خائفة من الذي يؤجل دوما بحكم الغرور . وهل في الامر من حيلة ؟ لنغرق في الحب عن طريق الحيلة . لنهرب حتى نستعيد الامل . هوذا الشباب يفرر بنا ثانية . انني أنسى تمجيد العاشقة حتى انها لتبكي . انها تصرّ على أن تكره الثورة . آخذ رأسها المشرق : أحترق بزيتك الثقيل أبدا ، لا تنسي انني أحمل فانوسا هشا . لا تكوني معبودة بدون ايمان !

انها لعزلة مستكينة ، تلك الوحدة التي تجمع اللحظات كلها وحيث تخلي النفوس بينها وبين أمورها . هوذا صداها يتردد : « اخلع من قلبك هذه الجمرة المنقدة بفضل النسيان الذي ينزلق من صلب الليالي » .

كنت في الحلم مليئة بالرحمة ، وكان دماغي مخلوعا ، وكنت تنفخين حميتك في عروقي ، وتئنين باوجاعك ، وكنت قد وجدتك وأنت مسافرة . غير انني كنت ذاهبا في رحلة . ونصيحتي بألا اذهل عن نفسي . لقد اعددت لي الزاد ، ولم تكوني تريدين لي أن أحيا بالحب .

كانت السفينة توشك أن ترفع المرساة . وكنا دافئين وخائفين بكل تأكيد . ووعدت بأن أجيئك بشيء رمزي . كنا واقفين . وكانت عيناك تطرفان . لعلك ظننت نفسك بطلة . والواقع اننا كنا كذلك . وبعد الحلم تغنيت بأصولك المشرقية . ولعل المصرية التي ضبطت رقعاتك كانت امرأة معصومة ومقتدرة على فن تحريك العيون الكبيرة .

انت في حاجة الى ذلك السكون الذي يبكي الضفادع . والى ضوء القمر المنداح حتى تستطيعي السير دون أن تسحقي أي مخلوق فضولي . آه لهذه الرغبة الجارفة التي تدفعك على بلبلة حياتك بكلمات أنقد أسرارها على التوالي . ذلك لان جمالك الذي تجمد في عالم الاسرار ان هو الا التهديد نفسه !

لقد لجأت الى أكثر من أسطورة حتى لا نضيع شيئا من الملحمة التي كنا سنعيشها . في البداية كان التفكيك ، واتضح لي ان رأسك صغير ، وقسماتك ذات دقة غير محتملة . وجعلت من رأسك شيئا ثمينا . وهكذا تركت أنظارك تهشمني خوفا من أن يغير الموكب التافه ألوانها وبهرجتها . واصبت بجروح بعيدة الغور في شتى الاتجاهات . وكنت تبتعدين دائما وابدا في البحر العكر وسط أرضية عنيفة . لم يكن الامر الا حلما في حلم . المرأة التي كانت تنأى عنا لم تكن تشبهك كثيرا . « هاك جسدي في شكل نجمة بحرية ، وهاك عينيّ المعتمتين ، والملح المترسب في لساني » .

وسرعان ما اخطرتني بأنها مريضة . سألتها : من أين جاءك هذا المرض ؟

ـ من ساحر أكرهه . انني متمسكة بك .

وانطلقت في الانين .

ولم يتوقف الامر عند هذا الحد . واحسست بعد طويل وقت أن ما يعترض طريقي انما هو الجزء الاكبر منها ، وانه لن يكون في وسعي أبدا أن احمله معي . وحتى وهي بالقرب مني كانت تصر على أن تقتات من دمي وتضع يدها في دماغي بطريقة مخادعة ، وتظن انها تداعبني .

احيانا ، ألتفت الى الوراء على طريقة الحيوانات الشاردة لكي أبث الرعب فيها . واحدق حينذاك في راسها البث وهو يخرج من عيني ، الا ان مثل هذه المشاهد تدفعني على الاغراق في العبادة . وعلى عتبة الدهاليز التي تبهر العينين ، أسير مع هذه التي تعقد الخطوات والروائح ، الا انني أشعر بمرارة التيه مع الاسف . أحرقي الجبل ان شئت وتأمليه ! يا لها من حمية مسمومة القفزات ! انها تخرج من الحمّام حيث يتبخر عطر القبرص ويذوب على الحجر المبلط ، وترتعش يداي حين أريد فتح الصندوق للساحرة . ان لها كرات العدو ، تضحك لي ، ثم تعاود الهدم ، وهي ان لم تفعل ذلك . فانها تختلط بصديقاتها رغبة منها في اضاعة كل شيء حتى انني أغيب عنها .

حين كنت أغادر غرفتها ، وضعت يدي على سور البحر . فيدفعني المرفأ والسفن على الضحك . وجاءت راكضة فاستقبلتها بقبضتي . لست أدري أين أهرب هذه المرة ، أين أنهي هذا الفراغ الدنيوي . الساعة

الخامسة صباحا . ليلة حزينة . ساعة جدارية كاملة أفرغت نفسها في المدينة الصماء . أواه . لاهرب في نهاية الامر . لأضطجع ! عربات تطلق علينا ملأى بالخمر والتبغ . يبدو اننا سنغرق بنحيبنا هذا كل صبرنا . انها تشرب قليلا ولا تحسن الشرب . لست آسف لشيء الا لهدوئها . والهواء أقتل من البحر . ليمونة تستقر على أطراف أسنانها ، انها تهرب في قارب نحاسي ، شعرها بين أسنانها . يا لهـا من أنثى ذات شعـر ساحق ! ضحكاتها تسقط في الماء بشكل مفضوح . وأرى سمهـا خلال السقطة وهو يسيل فوق الاعشاب البحرية حتى أعماق الوادي . ألا انها تلحق بي بالسرعة نفسها . بهذه الظاهرة الرائعة نفسها. السماء السريعة تحرق السطوح. واتقهقر مرتاعا . وأصير مجنونا لانني شربت مثل هـذه الكمية الضئيلة من الكحول الممزوج بالليمون .

.... امراة واحدة تشغل بالنا
غيابها يجمعنا
وحضورها يفرقنا ...

.... انني لا أكفّ عن هدم مقبرتي
حتى لا أنتقم لجرحي الوحيد
وحتى اغيب دون أن يتيه معي أي انسان
في كل يوم أشعر باقتراب النهاية
عندما يخفق قلبي تلك الخفقة .
انني أخفي خسائرنا
أمام وجه العدو
مع انني لست ميتا ولا مقتولا
لقد أطلقت على جرائمنا
افاعي نبيلة
ولست ادري اية حمية
تبددنا .
المهم في الامر كله
هو اننا تخلصنا
من وطأة أن نكون ....

.... الدم يستعد جذوره
أجل . لقد نسينا ذلك
غير ان أرضنا عادت الى طفولتها
هي ذي حميتها تتقد من جديد
ـ أتريد أن أعلمك النحو أم الشعر ؟
ـ الشعر ..
ـ أم انك تريد الاثنين معا ؟
« السبع يبقى سبعا
وان فقد أنيابه
والكلب يبقى كلبا
وان تربى بين الآساد » .
ـ كل الذين يحفظون هذا المقطع الشعري سباع .
ـ فأنا سبع اذن !

عندما سكر والدي واستزاده صديقه القاضي . أجابه شعرا ؛ وأورد له الكنوز المجهولة والمقدمات الكامنة وراء الركام . وما أسرع ما رجع القاضي الى الحانة لكي يتدارك نقصه . قال والدي :

ـ السبع الحقيقي لا يمكن أن يكون الا سكران . انه سكران بطبيعته ...

ترجمة : مرزاق بقطاش



هذه أمتي

يا أخي أيّ أمة وحدتها نغمة الله تحت هذا الفضاء ؟
فانبرت تزرع السلام وتروي كيف تبقى وفية للسماء
لم يخفها الصراع في وثبة الرفض ولم تخش زاحفات الفناء
لم تزل تعشق الشهادة في ساحة المجد ، وازدحام البلاء
هتف الحق من رباها فراحت تتباهى بكثرة الشهداء
وتحدت في لحظة الغزو قوما يملكون الدمار من كل داء
نفحة النصر والفدا علمتها كيف تحمي وجودها بالدماء
أترى لم تعد تحرق شوقا وحنينا لوقفة الكبرياء
انها امة الرسالات كانت وستبقى حرية بالوفاء

* * * *

يا أخي نحن ها هنا نتغنى بنضال الشعوب رغم التنائي
ندعم الثائرين في كل أرض ونعادي شراذم الاوصياء
كل شبر من الجزائر يشدو للبطولات تحت أي سماء
أرض نوفمبر العظيم ستبقى قلعة المعجزات والعظماء
سجلت أروع المواقف يوما بحروف من الردى والضياء
ومضت تبدع الخلود وتبني أسس المجد في روابي الفداء
هكذا تزرع الحياة وتسقي بزكي الدماء روح البقاء

* * * *

يا أخي نحن لم نزل نتناجى من بعيد ونكتفي بالغناء
وصلات الشعوب في كل يوم تتناءى بحكم هذا الجفاء
وكلانا يزداد شوقا ونأيا وكلانا يهفو ليوم اللقاء
وكلانا لا يلعن المقادير لكن يلعن القاطعين حبل الاخاء
جبهة الرفض حطمي كل من طعنوا حلم أمتي في الخفاء
واستخفوا بشعبها الوحدوي وبأرض النبوغ والكبرياء

* * * *

كنت يا قدس يا رحاب الهدى ذات يوم وديعة الانبياء
ووصايا تناقلتها الليالي فتناهت بذمة الفصحاء
أترى لم تزل هناك عيون تعشق النور تحت ذاك الشقاء ؟
أترى يعذب السلام ويحلو ويلذ السكوت للجبناء ؟
وأخي في ذرى الكنانة يأسى للقاء السادات والدخلاء
قادة الرفض والصمود رفضتم ردة الخائنين والعملاء
فاسمعوا لحن أمتي في شفاهي يتعالى مرددا في الفضاء
نحن شعب على الوفاء مقيم وسيبقى على عهود الوفاء

محمد بن رقطان

قالمة (الجزائر)

معزوفة الصنوبر

محمد الاخضر عبد القادر السائحي

ـ ١ ـ

في ظل شامخة الصنوبر
أرسل (الناي) الحزين دموعه المتوله
يوم احتلال جزائر الاحرار :
لم يبق للاطفال في بلد العروبة من خميله
لم يعد في وسعهم أن يلعبوا ،
أن يقطفوا مرح الطفوله
أن يعزفوا لعرائس الاحلام أغنية المنى المعسوله ،
في موطن داس العدا أيامه وفحوله .

* * *

كان الصنوبر شامخ القامات
يحتضن العواصف في اباء
تتعانق الاغصان في فرح
تناجي الشمس والامطار صيفا أو شتاء
صار الصنوبر مقصدا للزاحفين
من الغزاة ذوي القلوب القاسيه
صار الصنوبر كرمة ،
صار الصنوبر ضيعة
تنمو حواليها معاصر للنبيذ الاشقر
اين السنابل في الحقول الزاهيه ؟
اين « المطامير » المعدة لليالي القاسيه ؟
حتى الزياتين التي شهدت مسيرة (آدم)
صارت كروما تعصر
صارت دنانا عتقت بلظى دموع الكادحين
ذوي البطون الخاويه
علبا واقواتا تصدّر
وانا وانت بضاعة مشحونة ،
أبد تهجّر ...

ـ ٢ ـ

فتح الصنوبر للجراح كتابه
ليسطر الآلام ، آلام الجموع
فهناك في جرد السفوح تجمعت اكواخهم
تقتات من لفح الصقيع
هلْ تنبت الاشواك والاحجار ـ يا وطني ـ سوى
البؤس المريع

وهناك في دمن القذارة .
في جيوب مدائن المترفهين من الخنازير التي تقتات
من لحم البشر .
نبتت قرى « القزدير » تلعن آكلي لحم البشر
وتنام ـ ان نامت ـ على الويل الفظيع
يا ويله (استعمار)
تمشي المجاعة في جيوبه . تأكل الاحرار
يمشي مع الطاعون . ينشر أينما حل الوباء
كـل الوبـاء
كـل الوبـاء

* * *

آه عليك مزارعي
أصبحت فيك أجير لقمة ذلة ملعونة
آه عليك ثقافتي
لم يبق من حرفي ومن كتبي سوى ظل تظل هياكل
الاموات في كهف الاسى
آه عليك ملامحي ، أكلتك هاتيك المساحيق الغريبة عن
عيون العاشقين
آه عليك مساجدي، حتى صلاتي لم تعد تجدي لديك،
لان قلبي زائغ يخشى الامام فقد يكون بلا ختان
آه عليك عروبتي، وعروبتي ليست تحد (بمكة) الحجاج
أو (بالرباط) الصائم ،
ان العروبة في (ظفار) و (اسمره) .

* * *

ومضت صنوبرة الحكاية تدمع
حتى النخيل هوت عراجين الشقاوة فوفه
فبكى مع الناي الحزين بأدمع لا تذرف
وبكت عيون الارز في القمم الرفيعة مثله
لتظل قافلة الجياع الى الصنوبر تزحف
وضريبة الشهداء تدفع تدفع
اما خبا قبس لقافلة
تسلم راية التحرير جيل ثائر لا يركع
حتى المـمـات
حتى المـمـات
حتى المـمـات

- ٣ -

دكت جيوش الحقد غابات الصنوبر باللهيب القاتل
بالطائرات ، وبالقنابل في الثرى المتفجر
فاضاءت الآلام في ليل السجون
وتراءت الآمال في عمق العيون
وعلى الطريق من السفرج الى الصنوبر يسمع السارون
عزفا للجماهير الجياع
عزفا من الدم لحنه
ومن الحنين تساوق الايقاع
لحن يشدهم الى الشهداء في كل البقاع
قدر أطل فلا مفر ولا امتناع :
الثورة الكبرى تخوض لهيبها
كل الجماهير المعذبة القلوب
من أجل أطفال الصنوبر تزحف
من أجل أن تعلو الكرامة رغم آلام البطون اللاهفه
من أجل ايمان العرائس بالحياد
من أجل أحلام الحقول الوارفه
غنت صنوبرة الجموع الزاحفه :
.. يا فرحتي
أنشودة الثوار
ترسل من جديد لحنها الجبار
فلقد غدا (أوراس) بالبارود يزأر يزأر
و (الونشريس) يعانق (الصحراء) في حفل الدماء
ويخوض (جرجرة) الاشم مسيرة الشهداء
ليشع في الاعماق لحنك يا (نفمبر)
وتصير قافلة الصنوبر
(جبهة التحرير)
يا جبهة التحرير
شعب الجزائر ثار ثار
وبنى الحياة بكل ما ملكت يداه
بجماجم الشهداء
بالايمان يبرق في أوان الهاويه
بأرامل الابطال في بؤر السجون القاضيه
بالرعب ينشره التحدي في القلوب القاسيه
بالنصر يزرعه النضال على الجروح الداميه

* * *

يا لوحة الثورات
ما رسمت عليك جماجم الشهداء ؟
رسمت دماء النصر أم رسمت دموع الخيبة ؟
رسمت جراح الفوز أم رسمت مرار النكبة ؟
رسمت جفون القهر أم رسمت عيون الوثبة ؟
رسمت حديث الغدر أم رسمت كلام « الشعبة » ؟

هات الحديث ، تكلمي ،
يا لوحة رسمت بريشة أمة الشهداء ؟!
رقص الصنوبر
والنخيل تمايلت أغصانه في نغمة سحرية
لتغازل الشمس الحبيبة في المروج الخضر فوق منابت الحرية
والارز في هام الجبال سقى الاحبة في كؤوس النصر من راح القمر
والتين والزيتون والحقل المنمق بالسنابل
بالكروم ، بكل أزهار الحدائق في الربيع المعشب
ضحكت لنصرك يا وليد نفمبر
ضحك الفؤاد لدى جموعك
أشرق الانسان من اشعاعك الحر العظيم الطيب
حتى التراب تحركت ذراته وغدت تغني الجداول
والطيور تردد الالحان

* * *

عاد (الاجير) الى المزارع عودة الماء الزلال الى الظماء التائهين
عاد الاجير الى الحقول بطينة الانسان يزرعها
وفي اليد أمنيات من يقين
عاد الاصيل الى منابته
الى كل المدائن والقرى
والفرحة الكبرى شعاع ساحر قاد القلوب الى الضياء
فرأت طريقا مشرقا في قمة المستقبل المرسوم بالعمل المكين

* * *

عادت حروف (الضاد)
عادت حرة تعلو بها أنشودة الاطفال في قبل اللقاء
و (الله أكبر) في المآذن والمساجد
بشرت روح الشهيد الخالد
فالله أكبر في الحياة
وفي الممات شعار كل مجاهد
و (الراية الخضراء) رمز شامخ
يحكي الى التاريخ معجزة الجزائر من كتاب نفمبر
ورسالة الآباء والشهداء
ترويها الى الاجيال أعمال الوطن
في ظلها نبتت أخوتنا
وزهرة مجدنا طول الزمن
فلها الفداء
ولها الوفاء
وأنا وانت : جميعنا : في عزها مهما يكن .

هوامش لأيام الاسبوع

عبد العالي رزاقي

حافل وجهك بالحزن . وعيناك بعمق البحر والليل ،
ولون اللوز والقسطل . في فصل خريفي .
تمردت على كل قوانين عصور الانحطاط .
وأتيت الآن صدفة .
صدفة كان لقائي بك ،
فلتحتفلي – يا امراة مرفوضة من لغة العصر –
بمبلادك في قلبي قصيدة .
خبأت أحزاني
بعمق قصائدي
وخلعت عن جسدي .
بقايا
الكيف
والافيون .
– من قال انك تصبحين جميلة
وأصير عاشقك المتيم .
والطريق اليك
متسع
لغير العاشقين ؟
– من قال انك تصبحين حبيبتي وتصير لي في مقلتيك قصائد ؟
اتيتك ، يا امراة تتناسخ . في دمها الموت أزمنة للتمرد ، متحدا جسدي بالشوارع : ذاكرتي تتوغل في صدر طفل من (الوطن العربي) يفتش عن طفلة صارت امرأة
تتوسد أحزانها :
– احترقي !
فهو لم يتوسد البحر يوما .
ولا صدر عاشقة
تتفاخر بالماس
يعلو أصابعها
وثياب مذهبة
يقتنيها الملوك
من الهند
والصين
والجزر القمرية .
اتيتك طفلا .
يمارس ضدك كل اعتداء ..
ويعلن انك ما زلت أمتعة لنظام العشائر ، خمرا معتقة – في البيوت – معرضة للضياع .
مهربة عن عيون المساكين
والفقراء .

ان كان هذا الحب . يا امراة أسميها انتمائي للجنوب قصائد المنفى الجديد .
فانني
لم ابدأ المشوار
– بعد –
من الجنوب .

* * *

أزعم الآن بأني وطني
وبأني من بلاد تقبل الرشوة فيها .
أحفظ العهد . وأتلو آية الكرسي في أزمنة الخوف
ولا أعرف غير الصلوات الخمس والحج – وأحيانا زكاة الفطر أسميها (هدية) .
انما لا أنتمي للوطن الحامل اسماء ملوك الفرس والروم
وتجار
البلاد
العربية .

* * *

صور تنهمر الآن على ذاكرتي :
واحدة لامرأة نامت على صدري ، وكانت ترتدي أحزانها ،
في زمن آخر ، منسوب الى أول من يخطب في المؤتمر الدولي ، باسم الارض والوحدة والشعب .
وأخرى
لم أعد أعرف عنها غير عنوان قديم بقبت آثاره
في الصفحة الاولى
من الابحار
مرسوما
بخط عربي .

* * *

خبئي وجهك عني
انني أقسم
ــ دوما ــ
بغيابك .
كلما جئت
ابتعدنا عنك .
لا تبتعدي
وارتقبي يوما حضوري .
هذه الارض ومن فيها
ــ أطال الله أعمارهم ــ
تحمل في أعماقها أكبر همّ عربي .
وجهي القدس .
وهذا زمن الجرح الفلسطيني مرهونا لدى
(أنظمة الردة)
والقال وأشباه الرجال .
فلماذا نكتب الشعر
ولبنان على القلب نزيف ؟
ولماذا نهجر الاكواخ
والخيمة منفانا الجديد ؟

* * *

يكفر الواحد
بالآخر
حتى
يصبح الواحد
للآخر
منفى .
وجهك البحر .
ووجهي القدس .
وعيناك .
بعمق الغضب المدفون
في صدر الجنوب .
وانا البحر في كل اتجاه ثوروي .
أستعيد الآن ماضيك
فلا ابصر في عينيك
غير الصمت
والرفض .
وهذا قدر الجرح الفلسطيني
لا يطلب غير
الانتماء العربي .
سادة اليوم :
انا أعرفهم .
أوراقهم مكشوفة .

مذ دخلوا أيامنا واغتصبوا
أحلامنا ، وانتحلوا قمصان
(عثمان) ،
تخلى الله عنهم .
سادة اليوم :
أنا أعرفهم
فلتسمحوا بالوصف :
(هذا سيد في دولة الجهل ، يسوس الشعب
(باسم ...)
بينما الآخر
ما زال يعبّ الخمر
في أحذية الغلمان
لا يسجد ...
في غير المجلات وأوراق الصحف .
انما الثالث
ــ عفوا ــ
أسود الطلعة
مرسوم على
خارطة عذراء
بالمازوت والفحم ،
ومن أصل يقال عنه :
ــ ...)
خشب
ونتلو ما تيسر من حكايات البطولة ، نستعيد
الجاهلية في قصائدنا .
ونفخر (بابن شداد)
وتعتز القبيلة
باغتصاب بناتها .

* * *

لبنان
ان كانت ضمائرهم
من الورق المقوى
فالجنوب ضميرنا .
لبنان
أبديك اعترافي
باحتمالات التحول
انما أعطيك عهدا :
ــ ثورة الجرح الفلسطيني
في صدر الجنوب
ــ وصرخة الاطفال
في صدر الجنوب
ــ وغضبة الاحرار في صدر الجنوب .

فاتحة الآتي

أحمد حمدي

حالة الذهول
بين ان يرعد البحر
والمتحدث
تأتي الفصول
حالة ..
حالة ..
حالة ..
ويقول .
سيد من غصون العصور
ان خارطة الورد مأهولة
برصاص السكون
شجر النخل يركع
لا بد (...)
ها زمن للعجول
أجثم الجبل الصلد :
والبحر كأس ولؤلؤة
والطفولة صنبور
والخسر رمل ،
ورائحة من بقايا الدهور
توسدي حالة الحفل !
ينتفخ البطن
يتجشى النفط
ينطرح الوطن
يأتي زمان
ومسلخة
وحلول
ان ذاكرة الماء
والبحر
مفتوحة
والطريق الطويل
أيسجل ايقاع تلك الطبول ؟!
زمن ..
زمن ..
زمن .
وتعود الطيور
انما الافق أوسع من لوثة
قالت الريح ،
وهي تدك المزاليج
واحدة ..
واحدة .

المرأة في الادب الجزائري المعاصر

احلام مستغانمي

حتى سنوات قريبة ، كان الرجل الجزائري لا يجرؤ على مناداة زوجته باسمها . واذا توجه اليها بالحديث فهو لا يناديهـــا بغير (يا امرأة) . أما اذا اضطر الى ذكرها أمام رجل كافر فهو لا ينسى أن يضيف الى كلمة «المرأة» التعبير الشعبي (حاشاك) أي « أجلك الله » . ان المعاملة السيئة التي عانت وتعاني منها المرأة الجزائرية تصل قسوتها في بعض المناطق الجزائرية ، بمـا فيهـا العاصمة ، الى حد ان الاطفـال لا يجرؤون عـلى لفظ كلمة (أمي) خـارج البيت ويكتفون بتعويضها بكلمـة (الدار) عند الحاجة .

فـي روايـــة (قريــة الاسفـوديل) « La village des asphodèles » لعلي بومهدي يصف لنـا الكاتب الوضع السيىء للمرأة داخل العائلة عندما يطلب الكاتب من أبيه يوم رحيله الى أوروبا أن يسمـح لأمه بتناول الغداء معهم ، فيجيبه الاب : « ان أمك هي التي لا تريد أن تأكل معي ! » .

وهكذا بينما يجلس الاب ومعه أولاده الذكور حول الطاولة ، فان مكان المرأة هو في المطبخ لتأكل وحدهـا بقايا الصحون . ستقـول الأم لابنها بعد ذلك : « لقد تعودت منذ زمن بعيـد أن آكل وحدي لدرجـة انني لم أعد قادرة اليوم على ابتلاع اللقمة في حضور والدك » .

هذا المشهـد سنجده في روايـة (التطليق) « La Repudiation » لرشيد بوجدرة و (النفقـة) « La chrysalide » لعائشة لمسين و (القبرات الساذجة) « Les allouettes naives » لآسيا جبار .

وهذه الوضعية لا تزال قائمة في واقع كثير مـن العائلات الجزائرية حتى اليوم ، حيث تعيش المرأة خارج عالم الرجال الذي تقرر فيه كل التفاصيل التي لا يـؤخذ برأيها فيها .

ان هذا الاحتقار الـذي تتعرض له المرأة داخل العائلة نفسها يفسر لنا وضعها السيىء داخل المجتمع ، وكذلك تلك الصورة المحطمة التي يقـدمها لنا الاديب الجزائري عند حديثه عن المرأة الجزائرية .

وهذا المشكل الـذي يعتقد البعض انه لا يخص الا « نصف المجتمع الآخر » هو أبعد من أن يكون كذلك ، ما دام خلف هذا المشكل تتمثل أزمة « المجتمع الرجالي » وذلك البؤس الذي يجره الرجل معه مـن الطفولة الـى الفتوة حتى الرجولة ، دون أن يعـرف كيف يجب أن تكون علاقته مع هذا الكائن الغريب الذي هو « المرأة » .

عندما كتب محمد ديب في قصة (رقصة الملك) « La danse du roi » : « لم يكن الاب عنـدنا غير ذلك الرجل الذي حبلت منه أمتنا عرضا » ، كانت هذه الجملة تأكيدا لكلام قاله رضا حوحو لحماره منذ ثلاثين سنة ، عندما سأله هذا الحمار عن المرأة ، فأجاب حوحو : « كن مرتاحا من هذه الناحية ، فلا وجود للمرأة في بلادنا » . وعندما تساءل الحمار متعجبا : « عجبا ! تعيشون بدون نساء ؟ وكيف تتناسلون ؟ » .. طمأنه حوحو قائـلا : « قلت لدينا آلات للنسل نحتفظ بها في بيوتنا .. » .

ولكن هذه الجملة التي جاءت في كتـاب محمد ديب لا تحمل هذا المعنى وحده ، فهي تحمل ايضا تعبيرا عن طفولة دمرتها مآسي الام ، وجعلت الطفل فيها يتساءل عن نوع العلاقة التي يمكن أن تربط أمه بأبيه .

وهـذا الموضوع كثيرا ما توقف عنـده الكتاب الجزائريون . وهو الذي يشكل المحور الرئيسي لكـل كتابات رشيد بوجدرة ومحمد ديب . والكتاب الاخيـر لمحمد العالي عرعار « الطموح » وكـذلك رواية اللازا للطاهر وطار .

في كتابات بوجدرة مثلا نجد صورة طفولة محطمة ، مدمرة .. ومدنسة أيضا . ذلك ان كـل أوضـاع الأم تنعكس على هذا الطفل الذي يتحمل وحده في الظل كل المآسي التي تمر بها أمه .. وهكذا فان زواج أبيه مـن امرأة ثانية بموافقة مرغمة مـن أمه جعلت هذا الطفل يتحمل وحده كل المأساة ويثور ضد أمه .. كمـا يثور ضد أبيه . ويضع كل هواجسه في هدف واحد : كيف يمكنه أن يصبح عشيق زوجة أبيه ؟ وبعدما نجح في ذلك أصبح يريد اغتصاب كل بنات عمه وكل القريبات اللواتي يأتين لزيارتهم بما فيهن أخته من أبيه .. وخالته أيضا !

وبعدما حقق ذلك الطفل معظم هواجسه أصبح أخيرا رجلا . ولكن لينتهي في مصح عقلي . بعد أن دفن أخاه الاكبر الذي مات سكيرا لينسى هو ايضا مأساة أمه .

ان هؤلاء الاطفال الذين يكبرون فجأة دون حب ودون حنان ، داخل عائلة غالبا ما تكون مشتتة ، سيجرون خلفهم الى الابد صورة تلك الأم المهزومة والتي تتعلق بهم كآخر أمل لها في الحياة .. وهؤلاء الاطفال سيجدون أنفسهم ذات يوم كبطل « الطموح » او أبطال محمد ديب أمام استحالة بناء علاقة زوجية طبيعية ما دامت تلك الأم تشدهم اليها بمأساتها ، وما داموا عاجزين عن قطع حبل السرة الذي يربطهم بالأم ويجعلهم غير قادرين على اكتشاف المراة ـ الزوجة .

ولكن كيف يمكن لرجل أن يفارق أما لا يعرفها جيدا ليعيش مع امراة لا يعرفها أبدا ؟

ان هذا الوضع يشرح لنا الغموض القائم في علاقات الامومة والعلاقات الزوجية داخل الادب الجزائري . فاذا كانت صورة الزوجة غالبا ما تكون باهتة لاسباب اجتماعية نفسية وادبية معقدة ، فان صورة الام التي من المفروض أن تكون أوضح هي ايضا غارقة في الغموض والتناقضات .

ان أم عمر في « البيت الكبير » لمحمد ديب هي امرأة قاسية قوية الشخصية ، عصبية وذات سلطة . وهي لا تشبه في شيء الأم الخاضعة والمطيعة التي يقدمها لنا رشيد بو جدرة في كتاباته . وهذان النوعان من الامهات لا يشبهون نوع الأم عند مولود فرعون أو مولود معمري . ويصبح الشبه أبعد عندما يتعلق الامر بالأم عند جان عمروش الذي تظل عنده كائنا مقدسا ، بينما تصبح عند كاتب ياسين جزءا من الوطن وتاريخه ، لذلك فصورتها قابلة لكل التناقضات والاحتمالات .

وان شرح هذه الظاهرة يتعدى الانتاج الادبي للكتاب ليدخل في حياتهم الشخصية ونوع العلاقة التي كانت تربطهم بأمهم ، فلقد كان لكل هذا دور في تحديد نوعية الأم التي سيقدمها لنا الكاتب فيما بعد .

ويمكننا ان نقول اجمالا ان صورة الأم في الادب الجزائري ، تتراوح بين التقديس والتدنيس . واذا كنا هنا لن نتوقف عند تقديس الأم لانه أمر يكاد يكون طبيعيا ومنطقيا عند البعض ، فان صورة هذه الأم المدنسة لا بد أن تسترعي اهتمامنا . ولضيق المجال سنكتفي بتقديم نموذج صغير عن هذه الصورة في كتاب « التطليق » لرشيد بوجدرة ، أولا لخصوصية صورة الأم في هذا الكتاب ، وثانيا لان مؤرخي الادب في أوروبا يعتبرون هذا الكتاب الذي صدر سنة ١٩٦٩ أهم حدث ادبي عرفته الجزائر منذ ظهور « نجمة » لكاتب ياسين سنة ١٩٥٦ .

ان أول شيء يلفت النظر في هذا الكتاب هو الجو الجنسي الذي يغرقك فيه الكاتب منذ أول صفحة ، فارضا عليك صورا ومفردات جنسية ، ان كانت في نظر الكاتب جزءا من الواقع ، فهي في نظر أي قارىء عادي بذاءة لا يمكن أن ينحدر اليها كاتب طبيعي . يكفي أن نقول في هذا المجال ان القصة تحمل ست حالات شذوذ جنسي ، وخمس حالات اغتصاب ، وثلاث حالات عهر .. أما عدد المرات التي ذكر فيها الكاتب جسد المراة بصراحة ووقاحة لا توصف فلا يمكن أن تعد . ونحن هنا لا نناقش الكاتب الا على مستوى اللغة . وفي هذا المجال يمكن أن نقول ان الروائية آسيا جبار استطاعت في روايتها الرائعة « القبّرات الساذجة » أن تنقل لنا عدة مرات تفاصيل العلاقة الجنسية بين نفيسة ورشيد وبين غيرهما من الابطال دون اباحية ، وكذلك دون حياء مزيف . ولقد منع أسلوبها الانثوي الانيق القارىء من الاصطدام بالصور التي كانت تنقلها اليه ، بينما يبدو وكأن بوجدرة كان يبحث عن هذا الاصطدام بل ويتعمده أساسا في كل كتاباته .. بما اننا نجد أنفسنا في كتابه الثاني « ضربة الشمس » مباشرة ومنذ الصفحة الاولى في مرحاض أمام وضع جنسي غريب يغتصب فيه بطل القصة (وهو في مصح عقلي) احدى الممرضات بطلب منها !..

واذا عدنا الى كتابه الاول « التطليق » فأكثر ما يصدمنا فيه هو هذه « الشجاعة » التي تمتع بها الكاتب ليستبيح عدة مرات جسد أمه ، ناقلا لنا تارة تفاصيل علاقتها الجنسية مع والده ... وتارة أخرى تفاصيل هذا الجسد نفسه ... وأكثر من هذا ، فانه في فصل آخر يتحدث عن أمه بهذه الطريقة : « انها امراة مطلقة ، لا تصل الى النشوة الا بواسطة يدها ... أو بمساعدة نانا قطتها !! » .

ان مثل هذا الكلام وحده كاف ليجعل من الكتاب حدثا أدبيا ، خاصة اذا عرفنا ان الكاتب لا يكتب الا عن سيرة ذاتية . والحقيقة انه كان يمكن أن نعتبر هذه الجملة دفاعا عن وضع المراة المطلقة وشرحا لأزمتها الجنسية ضمن بقية الازمات التي يجرها عليها الطلاق ، وحينذاك سنعجب بهذه الالتفاتة الانسانية لامراة قلّما حكم عليها من وجهة انسانية ، ولكن جو الكتاب العام ، كما سبق أن قلنا ، يجعل مثل هذا الاحتمال بعيدا .

اذا كانت أزمة البطل في هذه الرواية هي المعاملة السيئة التي تتعرض لها أمه من طرف أبيه ، فان عيب هذه القصة ، كما هو عيب معظم القصص التي عالجت هذا الموضوع ، الهروب أمام الواقع وعدم مساعدة الأم على تكوين شخصية جديدة أو على مواجهة الاب مواجهة صريحة . وربما كان محمد العالي عرعار هو القاص الوحيد الذي وقف بطله في « الطموح » منذ الطفولة

وحتى النهاية الى جانب أمه وحاول معها أن يبحث كل الحلول التي يمكن أن تحررها من سلطة الاب . ولقد كان في التحاقهما معا بصفوف جيش التحرير حرية كافحا من أجلها معا كل بطريقته واستحقاها معا أيضا .

ان هذا الموقف يكاد يكون نادرا في روايات المغرب العربي بصورة عامة . ونحن نكاد لا نجده الا في رواية القاص المغربي ادريس شرايبي (أمي الحضارة) « La civilisation ma mère » عندما يساعد الابن امه على اكتشاف الحضارة والتخلص من حياتها القديمة . وينتج عن ذلك انقلاب كامل في حياة الاثنين ، وهكذا ... بينما تنتهي قصص مولود معمري ورشيد بوجدرة بالهروب الى أوروبا أو بالانتحار ، كما في « ضربة شمس » لبوجدرة .. أو بالجنون كما في « التطليق » للكاتب نفسه ، فان بطل شرايبي سيظل مدهوشا أمام التغيرات التي طرات على حياته منذ أن أصبح بينه وبين أمه تلك العلاقة الجديدة .

ان الموقف نفسه يتكرر في رواية عائشة لمسين « النفقة » . ولكن الكاتبة أرادت أن تكون (فائزة) هي التى تساعد زوجة أبيها على التطور بدل أن يكون ذلك الدور موكولا لابنها مولود .

واذا كان الرجل في الادب الجزائري يظل عاجزا عن اتخاذ موقف واضح من الأم ، فان ضياعه يكون أكبر عندما يتعلق الامر ببقية النساء . فهو لا يرى أبدا كيف يجب أن يتعامل مع زوجته أو عشيقته أو زميلته في العمل أو رفيقته في النضال ...

ولهذا نجد الادب الجزائري محشوا بالتصرفات الخاطئة تجاه المرأة . فكثيرا ما يتعامل الرجل مع زوجته وكأنها أخته كما في (التلميذ والدرس) « L'élève et la leçon » لمالك حداد ، أو في « La collire oubliée » لمولود معمري . ثم يعود فيخلط بينها وبين أمه كما في « الطموح » للعالي . أو تصبح عنده مجاهدة قبل أن تكون زوجة كما في (رصيف الازهار لا يجيب) « Le quai aux fleurs ne répond plus » لمالك حداد. أو في (الطلاسم) « Tal'sman » لمحمد ديب . أو تصبح عنده مجرد خادمة كما في معظم الروايات .

أما اذا كانت هذه المرأة رفيقة في النضال ، فهو يحدث أن يعتبرها ملكا خاصا به وليس للثورة ، فيحرسها ويغار عليها كما في مسرحية (التراب) للدكتور أبو العيد دودو ، أو يسمح لنفسه باختلاس لحظات جنسية على حساب المعركة كما في (الطموح) لعرعار ، ويكاد يمنعها حتى من معالجة المرضى ... وفي « سماء سماقية » « Ciel de porphyre » لعائشة لمسين تتطوع حورية « لخدمة » المجاهدين مجانا وتضع جسدها تحت تصرف الثورة حتى يوم الاستقلال !..

أما اذا كانت تلك المرأة زميلة في العمل ... أو تحت مسؤولية أحد كبار الموظفين ، فالرجل يعتبرها هنا تحت تصرفه الشخصي ، وهو لا يتورع عن اغتصاب عشرات الفتيات كما جاء على لسان كمال في (الشمس تشرق على الجميع) عندما أخبر صديقه ان أحد مديري المعامل قد اغتصب عشر فتيات يشتغلن عنده في المصنع ... وفي القصة نفسها يغتصب ناظر الثانوية عددا لا يقل عن ذلك من فتيات الثانوية ..

وهذا الاستغلال نفسه تتعرض له المرأة من طرف الرجل المسؤول عنها ... كلما سمحت الفرصة بذلك ، مثلما نجد في كثير من قصص الطاهر وطار « كالطاحونة » و « رقصات الاسى » و « الضابط والزنجية » .

وهكذا فان ضعف الرجل أمام المرأة ، وشعوره بالحاجة اليها ، دون ادراك الطريق الذي يجب أن يسلكه للوصول الى حاجته ، يدفعه الى أن يكون عنيفا معها حتى لا يبدو مرتبكا أمامها . ولقد شرح محمد ديب هذه الظاهرة عندما صرح في احدى مقابلاته :

« ان المأساة هي تحول الرجل أمام المرأة الى صنم أبكم معطوب من الناحية العاطفية . انه ينظر اليها ككائن يهدده ويسحره أيضا ، وكتعويض عن شعوره هذا فهو ينقلب الى مظاهر الرجولة العدائية .. والواقع ان هذا الرجل « مريض » ، والا فكيف يمكن لهذا الرجل أن يتصرف مع كائن غريب لم يحدث في يوم أن تعرف عليه عن قرب ؟ » .

ان مشكل انقطاع الحوار بين الجنسين بل وانقطاع التعارف بينهما يشكل أهم مشكل اجتماعي تقف خلفه كل همومنا النفسية والاجتماعية والادبية .

ويمكن لهذا الموضوع وحده أن يملأ أكثر من كتاب. ذلك انه لم يوجد كاتب جزائري واحد لم يتوقف عند هذا الموضوع أو يلمح اليه .

في أول كتاب لمولود معمري (الهضبة المنسية) الذي صدر سنة ١٩٥٢ وردت هذه الجملة :

« ان عالم الرجال وعالم النساء في تقاليدنا هما كالشمس والقمر ، قد يريان بعضهما كل يوم ولكنهما لا يلتقيان » .

وفي كتاب (عيد الميلاد) « Lanniver saire » لمولود فرعون نجد ضمن مذكرات شخصية كتبها سنة ١٩٤٤ (ونشرت سنة ١٩٧٢) هذه الحقيقة نفسها عندما يقول :

« من الخامسة عشرة الى سن العشرين يمثل الاولاد والبنات نوعين من البشر يعيشان جنبا الى جنب ولكنهما مرغمان على التجاهل المتبادل . ليس بينهما أية علاقة ، فهما ينظران الى بعضهما دون أن يتحدث أحدهما للآخر ، ويشتهيان بعضهما دون أن يلمس أحدهما الآخر » .

ان هذا الموضوع توقف عنده كتاب العربية .. قبل كتاب الفرنسية منذ الربع الاول لهذا القرن ، كما هو الامر عند الشاعر محمد صالح حشاش سنة ١٩٢٥ ، وكذلك رمضان حمود في الفترة نفسها في كتابه (بذور الحياة) . ثم جاء محمود العابد الجيلالي في سنة ١٩٣٥ ليضع في مجموعته القصصية التي نشرت في تلك السنة بمجلة « الشهاب » عدة مقاطع تلمح علنا الى ضرورة خلق لقاء بين جنسين يعيشان في غربة تامة وعدم انتظار فرصة الزواج لوضع غريبين وجها لوجه دون مراعاة لاختلاف مزاجهما وطباعهما .

اربعون سنة بعد هذا الكلام لا زال هذا المشكل نفسه قائما ، ان هو لم يتأزم اكثر مع اندلاع الحرب التحريرية التي جعلت علاقة الرجل بالمرأة تتعقد أكثر بعد أن وضعت الثورة أمامه تلك المرأة التي حجبت عنه قرونا ، فارضة عليه هذه المرة مواصلة كبته الجنسي .

واذا كان بعض الرجال قد تغلبت عليهم مسؤولياتهم ولم ينقادوا الى شهواتهم : فان كثيرا من الذين وجدوا انفسهم لاول مرة أمام امرأة من لحم ودم لم يستطيعوا مقاومة غرائزهم واغتصبوا تلك المرأة .. والادب الجزائري لا يخلو من هذه الحالات (التي ذكرنا بعضها سابقا) .

ان أحداث الثورة آنذاك شغلت الناس عن الاهتمام بتلك اللحظة الحاسمة التي تم فيها اول لقاء حر بين جنسين باعدت بينهما قرون من التقاليد .

ولكننا اليوم وبعد مرور ست عشرة سنة على تاريخ استقلالنا يمكننا ان نرى نتائج تلك التجربة من خلال الادب الجزائري الذي لم يتغير فيه شيء بالنسبة لهذا الموضوع . لا بل تعقدت فيه المأساة اكثر بعدما أصبح الرجل اليوم يملك الوقت الكافي لادراك مأزقه النفسي والتاريخي .. وان ادق تعبير في هذا المجال هو ما كتبه الشعراء الشباب باللغة الفرنسية والذين يشكلون تيارا خاصا داخل الادب الجزائري ، تيارا تتجسد فيه معاناة الشباب الجزائري ، امام ارث اجتماعي ثقيل تسد أمام جيلنا كل جسور الفرح .. والتوازن .

في قصيدة لبشير الحاج علي (أحلام في الفوضى) جاءت في ديوانه (لتبق الفرحة) ، الذي ظهر سنة ١٩٦٥ ، يمكننا أن نقرأ هذا المقطع :

أحلم بخطيبين متحررين من الافكار السرية
أحلم بزوجين منسجمين بتفاهم
أحلم برجال متزنين في حضور المرأة
أحلم بامرأة منشرحة في حضور الرجل .

وتعود هذه الفكرة نفسها عند يوسف سبتي في ديوانه (الامل اليائس) :

أتمنى أن أنام الى جانبك بلا قلق
أعانق جسدك بلا ذل قديم
(........)
أتمنى أن تنزع يداك المسامير التي غرست في" .

ان هذه الغربة التي يعاني منها شبابنا تجاه المرأة .. وكل العقد والافكار المسبقة التي امتلأت بها رؤوس الرجال .. هي التي جعلت المعلم الشاب في (ريح الجنوب) لبن هدوقة يقع في غرام نفيسة وهو لم يرها ولم يعرفها بل عشقها من خلال أخيها الصغير الذي يدرس عنده في الصف . وفي القصة نفسها نرى الراعي يفسر طلب نفيسة له بارسال خطاب الى العاصمة على انه دعوة علنية للجنس ، فلا يتورع في الليلة نفسها من التسلل حتى غرفتها وهو يعتقد ان كل شيء قد أصبح ممكنا . وهكذا يتساوى المثقف بالجاهل عندما يتعلق الامر بالمرأة ...

والمهم في هذا الموضوع ليس ما كتب في الادب الجزائري عن ظاهرة « انقطاع الحوار بين الجنسين » انما الاهم هو تأثير هذه الظاهرة على الادب الجزائري نفسه ، وخاصة على الرواية المكتوبة باللغة العربية ، والتي كان غياب المرأة احد أسباب تخلفها الزمني والنوعي .

ان جهل الرجل الجزائري لعالم المرأة وارتباط هذه المرأة في ذهن بعض الكتاب المعربين بثالوث مقدس هو (الدين ، اللغة والمرأة) جعل هذه المرأة كثيرا ما تبدو في خيالهم كما في كتاباتهم شيئا خرافيا أسطوريا .. مما جعلهم يعجزون عن تقديم صورة واقعية لهذه المرأة . وهم أكثر من ذلك عاجزون حتى في القصة على اقامة علاقة طبيعية معها ، حيث نجد حوار الرجل مع المرأة مثلا حوارا مصطنعا ومبالغا فيه ، وحيث يتطرف الرجل في أحكامه وأوصافه تجاه المرأة بطريقة تفضح ارتباكه أمامها . فهو اما مادح لها حتى التقديس ، أو شاتم لها حتى التدنيس . وأصدق نموذج على ذلك رواية الدكتور عبد المالك مرتاض (نار ونور) التي ضخم فيها الكاتب الاحداث والاشخاص بطريقة جعلت تسمية هذا الانتاج رواية تجاوزا .

والا كيف يمكن تصور بطلة تتحدث لابن عمها بهذه الطريقة :

« أريد أن أكون جزائرية ، تبعث الامل في نفوس الشباب ، وتنشر الحب في قلوب المواطنين والناس جميعا . أريد أن أكون جزائرية تغني للحياة أفراحها ، وتستقبل الصباح باسمة (....) .

اني أنا الجزائرية التي اذا اشتهيت عففت ، واذا أهنت استأسدت ، واذا أكرمت ودعت ، واذا غضبت كظمت غيظي ، واذا ثرت ملكت نفسي ، واذا جعت لم آكل بثديي ، واذا امتحنت صنت عرضي ..

أي فتاة في الدنيا لها سمعتي : دفاع عن وطن ، وصون لشرف ، ورعاية لزوج ، وبرّ بوالد ، وحنو على ولد » .

ان الدكتور مرتاض الذي اعتقد عن حسن نية ، انه يخدم المرأة الجزائرية بحشده كل هذه الصور والتعبيرات النادرة ، نسي في غمرة حماسه ان معظم الصفات التي خص بها المرأة الجزائرية ـ دون غيرها من نساء العالم ، هي عيوب لن تقبل بها أية امرأة عاقلة في العالم ...

والا ما معنى مثلا « اذا غضبت كظمت غيظي ، واذا ثرت ملكت نفسي .. » ؟ الا ان الدكتور مرتاض ، يمجد خضوع المرأة وذلها .. ويمجد فيها هذا الصبر الذي يجعلها امرأة من ثلج .. لا تثور ، ولا تغضب ، ولا تشتهي ؟!

وفي الطرف الآخر نجد مثلا في اول مجموعة قصصية للطاهر وطار (دخان من قلبي) نماذج من البطلات المتحررات تطرف الكاتب في وصفهن أيضا ، خاصة انه حاول أن ينقل لنا جوا متحررا ، ربما كان جديدا عليه ، مما جعل كثيرا من تصرفات بطلاته غير طبيعي ، ومبالغا فيه ، بينما نجده في قصة (نوّة) مثلا ، والصادرة في الكتاب نفسه ، اكثر ادراكا وتحسسا للمرأة ، لانه كان يكتب عن عالم يعرفه جيدا وعن امرأة ريفية احتك بها .

ونستطيع هنا أن نصل الى ملاحظة هامة وهي ان الكتاب الجزائريين عاجزون في رواياتهم عن اقامة علاقة مع امرأة مثقفة أو متحررة . فكثيرا ما يعجز الكاتب عن السيطرة على بطلته فيستنجد بخياله ، وهنا تحصل المبالغات والمواقف المزيفة .

في رواية « الطموح » مثلا نجد النقاش الذي ورط فيه محمد العالي عرعار زوجة الاستاذ التي أراد أن تكون مثقفة ومطلعة حوارا مصطنعا لم ينقل لنا غير سطحية هذه المرأة وفضولها أمام ما يقوله هذا التلميذ (النابغة) . وعندما ينتقل القاص الى زميلة في الجامعة (طيبة) ويصف علاقته بها فهو يفاجئنا بمواقف وتصرفات لم نعهدها من فتاة جامعية مهما كان مستوى تحررها . فالبطلة هنا مثلا تمسك « خليفة من يده وتقوده خارج الجامعة ولا تتورع عن استضافته في بيتها ليتناول الغداء مع اهلها . وعندما يسألها الاستاذ في احدى المرات عن أوراقها فهي تجيبه بوقاحة انها تتقاسم مع خليفة كل شيء :

« ان لدينا المحفظة نفسها . أوراقي هي أوراقه . وأوراقه هي أوراقي » .

وعندما ينبهها الاستاذ لمساوىء هذه الطريقة : وقد يمكن الا يجلس أحدهما مع الآخر او يتأخر عن اندرس مثلا ، فماذا يفعل الثاني آنذاك ؟.. تجيبه طيبة باللهجة نفسها :

« فليكن الاستاذ المعيد مطمئنا . سيبحث كل واحد منا عن الاخر ، الى ان يجده ... ولن يفعل شيئا قبل هذا » ..

ان هذه اللهجة وهذه التصرفات لم أعهدها لدى فتياتنا الجامعيات ... الا اذا تغيرت الجامعة منذ سنتين ...

وهذه الصورة المهتزة والمضطربة نفسها نجدها في قصة (الشمس تشرق على الجميع) لاسماعيل غموقات ، حيث يعيش البطل بين زميلتين في الثانوية ، احداهما عشيقة للناظر ، والثانية يحبها ويشكّ في علاقتها بالناظر نفسه . وهنا يرتبك الكاتب وهو ينقل لنا صوره هاتين الفتاتين ويجهد نفسه ليجد حوارا طبيعيا يمكن ان يدور بين البطل وبينهما ، بينما يأخذ نبرة ثابتة عندما يحول حديثه الى أخته وأمه اللتين تشتغلان ليتمكن من مواصلة دراسته . ولا نعجب أن تكون هذه المقاطع بالذات هي أجمل فقرات الكتاب وأكثرها تأثيرا لاننا نعرف انها جزءا من واقع تعيشه كثير من زوجات الشهداء وبناتهن .

ان هذه الامثلة الكثيرة تعطي من ناحية ثانية قيمة اخرى لرواية (ريح الجنوب) لابن هدوقة التي تعتبر اول رواية جزائرية (باللغة العربية) عالجت مشكلة الفتاة الجزائرية المثقفة بواقعية نادرة ، وأوضحت الاصطدام الفكري بين هذه الفتاة وجذورها الريفية . ان ابن هدوقة في هذه الرواية وضع المرأة في اطار جديد لم تعرفه الرواية المكتوبة باللغة العربية قبله عندما طرح مشكلة (نفيسة) على المستوى نفسه الذي طرحت به الثورة الزراعية . وليس صدفه أن يكون سادة الارض هم أيضا سادة المرأة . ويوضح لنا الكاتب ان الرجل أمام الملكيتين يختار الارض ولا يتردد في التضحية بالمرأة من أجل الحفاظ على أرضه . وليس صدفة أيضا أن تعي نفيسة وضعها كفتاة ضعيفة ومستغلة في الوقت الذي يكتشف فيه راعي أبيها الاستغلال والاهانة التي تتعرض لها . وتلتقي ثورة البطلين عندما يصادف هروب نفيسة من بيت أهلها مع تخلي الراعي عن وظيفته .

ان هذا المحور الثلاثي الذي بنيت عليه القصة جعل العلاقة بين الرجل والمرأة والارض علاقة عضوية لا يمكن فيها لاي طرف أن يحل مشكلته بمعزل عن الطرفين الآخرين .

وهكذا مرة أخرى تتدخل الصدفة أو منطقية الاشياء لتجعل الراعي هو المنقذ لنفيسة عندما لدغتها الافعى وهي تحاول الهروب ، وهو أيضا الذي سيحميها ويخفيها في بيته موحدا بذلك نضال المرأة والفلاح المحتكر ضد سلطة الوالد واقطاع المالك .

واذا فشلت نفيسة في محاولة هروبها في المرتين فذلك لانها لم تع ـ رغم ثقافتها ـ جدلية هذه العلاقة . وهي لم تحاول مرة واحدة ادراك السبب الذي جعل أباها يضحي باختها منذ سنوات وبها اليوم . ان نفيسة لا علاقة لها بالارض اطلاقا . وهي لا تتحدث عن قريتها الا لتذكر عيوبها . وهي بالتالي لا يهمها أن يكون أبوها مالكا ... أو الراعي محتكرا ، أو تكون الارض في يد أبيها أو في يد غيره . كل ما تريده نفيسة هو حل مشكلتها الشخصية . أما (صالح) فهو في نظرها (راع قذر ...) .

ان غياب الوعي الطبقي لدى نفيسة وعدم ادراكها لمعطيات الثورة التي تستطيع وحدها حل مشاكل الجميع جعل نفيسة في نظر الكاتب لا تستحق حتى ان تنجح في محاولة هروبها .

« لان هروب نفيسة ليس هو الحل » كما صرح بذلك ابن هدوقه في احدى المقابلات .

الى جانب هذه الوظيفة الجديدة التي منحها ابن هدوقة للمرأة . نجد ان أهم حدث آخر في هذا الكتاب هو دخول جسد المرأة لاول مرة الادب الجزائري المعرب . فنفيسة هي أول فتاة جزائرية يعترف لها كاتب (معرب) بحق امتلاك جسد دون أن يحاول تدنيس هذا الجسد أو استغلاله لاثارة شهوات قارىء يعوض عن جوعه الجنسي بمثل هذه المطالعات . ان جسد المرأة الجزائرية قبل نفيسة لم يكن جسدا انسانيا يحمل الشهوة والرغبة والثورة ، بل كان دائما عالما يحرم الدخول اليه والتعرض لمشاكله . بينما يجوز ويحبذ التغزل فيه . ولهذا يحدث أن نجده حاضرا في الشعر . ولكنه غائب وخيالي في القصة .

واذا كان الفضل للقاص الكبير الطاهر وطار في ادخال جسد المرأة الى القصة الجزائرية ، فان هذا الدخول كان دائما على أطراف الاصابع ، بل كثيرا ما أساء وطار الى هذا الجسد بطريقة ربما لم يقصد اليها ، ولكنها رسخت في ذهن القارىء فكرة (المرأة السلعة) . فالطاهر وطار منذ كتابه الاول (دخان من قلبي) الذي نجد فيه عدة نماذج لنساء بعضهن عاهرات وبعضهن « متحررات » ؛ وحتى كتاباته الاخيرة ، قلما نجد فيها التفاتة شجاعة وايجابية كتلك التي تعود أن يقفها في مجالات أخرى .. لم يجرؤ على دخولها غيره ...

واذا كان محتوى بعض القصص ايجابيا كما في « رقصات الاسى » حيث ترفض راقصة أن تحصل على جائزة للرقص بخيانة زوجها مع منظم المسابقة ، فان وطار في القصة نفسها يسرد لنا حكاية أربع نساء عشقهن (الكامل) « القصاب » ومزقن ثيابهن أمامه شهوة واعجابا ، مما جعل الاعراس تتحول الى مآتم بتدخل أخ لفتاة أو زوجها . وفي « رمانة » يروي لنا وطار قصة فتاة دفعها فقرها الى العهر . وتطول القصة وتتشعب . وتلتقي هذه الفتاة مع أحد « الثوار » اثناء حرب التحرير فيعطف عليها ويعلمها القراءة والكتابة ، وبعض المهن البسيطة . لينقذها من مأساتها ، وتتحمس رمانة وتعمل مع الفدائي لمساعدة الثورة ، وعندما يستشهد ذلك المجاهد نفاجأ برمانة « جالسة على كرسي وثير ، عارية الصدر ، لا يغطي باقي جسمها سوى قميص نوم حريري أملس شفاف » وهي تتمتم : « هذا التاجر اتناه اشتراني . وضعني هنا في منزله كما يضع اية تحفة ! » .

هكذا تنتهي قصة رمانة بعد ما يقارب المائة صفحة من المآسي والعذاب المتتالي . فكان وطار يحاول اقناعنا ان المرأة خلقت عاهرة ، فلا الثورة ولا التعليم ينفعان في تغييرها . وتتأكد هذه الصورة في قصته (الشاعرة الصغيرة والرسام الكبير) عندما يصف لنا فتاة «مثقفة» تقضي وقتها متنقلة بين المراقص والحانات محرضة الرجال على تناول الخمر صباحا « حتى يظلوا جامدي العواطف مع المرأة ويقدروا على مغازلتها ومعاشرتها » . وهي لا تنتظر أن يغازلها الرجال . فهي تأخذ دائما المبادرة في عرض جسدها وكذلك شعرها لمن شاء ..

وفي هذه القصة يبدو العهر الجنسي لدى المرأة مرتبطا بالعهر الادبي عندما تكون هذه المرأة شاعرة . وهكذا فان المثقفة عند وطار تصبح أقل شأنا حتى من الجارية . فحتى الثقافة التي هي سلاح المرأة الاول ... تتحول في يد بطلات وطار الى سلعة تماما كأجسادهن . ونجد الصورة المسطحة والمبالغ فيها أيضا في قصة « زوجة الشاعر » .

عندما يحاول وطار بعد ذلك في قصته الشهيرة « الزنجية والضابط » أن يحرر المرأة من سيطرة الضابط ليجعلها عبدة في يدي الصحفي الذي تصر هي هذه المرة على معاشرته ، لا تتورع الزنجية « المثقفة » و « الشاعرة » عن تقبيل الصحفي واحتضانه في السيارة أمام الراكبين . وتنتهي القصة والزنجية « فوق أريكة على السرير ، في ثياب نوم بيضاء ، ترتل مغمضة العينين والصحفي عند قدميها يتربع على سجادة فوق الارض وينهمك في الكتابة » ..

رغم الرمز الذي حاول وطار التلميح اليه فانه سيصعب عليه اقناع أي قارىء ان حل هذا اللغز كان يتطلب وجود الزنجية في منتصف الليل ... في غرفة الصحفي في أحد الفنادق ... وجلوسها بثياب النوم على السرير ... لتقرأ له شعرا !

● * *

واذا أردنا أن نلخص اهتمامات الادب الجزائري المكتوب باللغة العربية بالمرأة فاننا يمكن أن نقول

ـ بدهشة ـ ان أهم فترة طرحت فيهـا مشاكل المرأة بجدية وبجرأة هي الفترة ما بين ١٩٢٥ الى ١٩٥٥ .

فلقد كان رمضان حمود ومحمد صالح خيشاش ومحمد السنوسي في بداية هذا القرن أجرا من شعراء العربية المعاصرين عندما طالبوا بنزع الحجاب عن المرأة ومنحها حق متابعة التعليم ... وتحريرها من عبودية الرجل لها باسم الدين بينما نجد مكان المرأة في القصيدة الجزائرية بعدهم فارغا لا يحمل أية قضية ولا حتى صورة ايجابية أو واقعية للمرأة . ذلك ان الشاعر لا يزيد على اعادة كليشيهات قديمة تشكل رصيد المرأة في الشعر العربي . وعندما يحاول ربط المرأة بالثورة فان القصيدة كثيرا ما تأتي ساذجة وسطحية لا تحرك في القارىء أية عاطفة الا في حالات نادرة .. مثل بعض القصائد للدكتور أبو القاسم سعد الله ، أو قصيدة « نداء الضمير » للدكتور صالح خرفي . واذا عرفنا ازدواجية بعض شعرائنا الذين يعيشون بين هواجسهم الجنسية ومظاهرهم التقدمية ، فاننا ندرك السبب الذي جعل الشعر الجزائري المكتوب بالعربية هو أضعف نوع أدبي اهتم بالمرأة (وهو أيضا آخر نوع أدبي يأتي من حيث النوعية بالقياس لباقي الانواع الادبية) . وقد تكون نجاة هذا الشعر ، على يد بعض الاصوات الشابة ، التي تجرأت على ادخال مضامين جديدة الى القصيده الجزائرية .. ولكن حتى هذه الاصوات القليلة تبقى متاخرة وتبدو غير واقعية اذا قيست بما يكتبه الشباب باللغة الفرنسية .. وربما يعود العيب الاول للغموض الذي يتصور بعض الشباب انه أهم ميزة يمكن ان تتمتع بها قصائدهم ، مما يجعلهم يبتعدون عن طرح المواضيع ومواجهتها بصراحة .. بينما يذهب شعراء الفرنسية الى أهدافهم دون لف ولا دوران .. وبمفردات كثيرا ما تكون مأخوذة من شوارع القصبة ومن أحيائنا الشعبية ، فتأتي قصائدهم أقرب الى القارىء ، وأصدق تجاه القضايا التي تعالجها ، ما عدا المأخذ اللغوي عليها بالطبع !

واذا توقفنا قليلا عند النثر فاننا نجد قضية المرأة قد خمدت وانتهت مع انتهاء (البصائر) واستشهاد رضا حوحو سنة ١٩٥٥ ، بعد أن عرفت أوجها على أيام الامام ابن باديس والكتاب الذين عاصروه .

وهكذا فان ظهور (ريح الجنوب) سنة ١٩٧٢ يشكل أول دخول جدي للمرأة في الادب الجزائري المعرب . وأثناء فترة الصمت هذه بين الخمسينات والسبعينات . كان الادب المغربي الذي صادف ظهوره مع انتهاء المرحلة الاولى من الادب الجزائري هو وحده سيد الموقف . والحقيقة ان هذا الادب الذي يحاول البعض ـ عن جهل ـ الحط من قيمته والتشكيك في نواياه . قد قدم للادب الجزائري خدمة لا تقدر بنقله للعالم هموم الانسان الجزائري ـ ثورته وأحلامه ـ وفتح أبواب العالمية امام أدبنا الذي كان يمكن بدونه أن يبقى مغلقا لزمن طويل .

وهكذا فان الادب المفرنس هو الذي قدم لنا أصدق صورة عن المرأة الجزائرية وهو الذي تابع جميع تطوراتها عبر المراحل التاريخية الحديثة . واذا كان الكاتب المفرنس قد عانى مثل اخيه المعرب من كل الضغوط والرواسب النفسية والاجتماعية ، فلقد عرف كيف يجند حساسيته وموهبته في شرح أبعاد مأساة المرأة والرجل في المجتمع الجزائري . ولقد ساعده على ذلك تحرره من القيد اللغوي ، ودخوله لغة مباحة . ويطول الحديث لو أردنا ان نقيم الخدمات التي قدمتها كل رواية . للقاصة الكبيرة آسيا جبار مثلا .. أو ما قدمه مالك حداد في كل كتاباته ـ دون استثناء ـ للمرأة الجزائرية ، وهو الذي حمل دائما المرأة الجزائرية في قلبه واعماله ، والذي ترك لها دستورا يحميها من السقوط .. في الحياة التقليدية أو الهروب الى الحياة الغربية في قصته الرائعة (التلميذ والدرس) .

ولا ننسى مولود فرعون ، ذلك العبقري الذي لف نحت برنسه كل معاناة الانسان الجزائري ، وظل لآخر لحظات حياته يكتب من أجل المرأة .. والرجل الجديد .

أو كاتب ياسين الذي كان أول كاتب ربط المرأة بالتاريخ في (الاجداد يزدادون ضراوة) وقام بأجرا محاوله لينتزعها من مخالب الاجداد وليجعلها ترمي حليتها (وليس فقط حجابها) وتتبع الثوار .

أن الادب الجزائري لا يخلو من المواقف المشرفة والشجاعة التي لا بد أن تكون مفخرتنا جميعا . واذا كان الادب الجزائري المكتوب بالفرنسية سباقا حتى الآن في طرح موضوع المرأة طرحا موضوعيا وصريحا ، فاننا لا نشك لحظة واحدة بأن مستقبل الادب في الجزائر مرتبط أشد الارتباط بالقدرة على خلق وتطوير ادب عربي حديث تقدمي يكون منفتحا على كل قضايا المجتمع والانسان الجزائري وعلى رأسها قضية المرأة ، وبذلك يتخلص هذا الادب من عقده ونواقصه السابقة (*) .

باريس

(*) ألقيت هذه الدراسة مؤخرا في الندوة الاسبوعية التي يعقدها البروفيسور جاك بيرك في « الكوليج دو فرانس » ، وهي تشكل فصلا من أطروحة الدكتوراه التي تعدها الكاتبة في جامعة السوربون تحت اشراف الاستاذ نفسه . وستصدر هذه الدراسة في وقت لاحق باللغتين العربية والفرنسية .

انهيار مملكة الحوت

محمد زتيلي

- ١ -

تملكني الرعب حين أذيع البيان الاخير
ولكنني سلفا قد تعودت أن أتطاول على ما تجيء به النشرات البليغة
أصغيت الموج ماذا يوضح . لكنه داعب القلب
وارتد يحمل خيبته . قلت : خفت من الريح .
قلت له : لا تخف . قال : خفت من الصخر .
قلت له : لا تخف .
قال : دعني أواصل لعبتي المستحبة . لا تتعجل
نهايتنا ، فالبحار مدججة بالمرايا ، وبالشمس ، والسفن الطالعه ...
صرخت ...
بأن الجماهير هذي
هي الشمس والسفن الطالعه ...

- ٢ -

تباغتني ظلمة وثلوج
أحاول أن ارتقي شجرا وجبالا فأهوي
أحاول أن أصحب الغيم : تسقطني الريح ، عاتية
هي نحوي تجيء
أحاول أخرى
فأصحب نجما من الشرق جاء ينير لنا ظلمة
غير اني في البحر أسقط : أخرج
أصعد هذي الجبال
وتدفعني نحوها كل هذي السواعد ، أبلغ آخرها
وأغني
تباغتني الريح ثانية غير اني في حاجة
متواصلة للسواعد كيلا يزحزحني
الليل في آخر الحلم المتجدد في الذاكرة ...

- ٣ -

تجيء المرافيء
تسأل عنه
وتسأل عن قارب مهمل
تتعانق في السر ثم تخطط رحلتها . يركب
الفارس البحر مستصغرا خطر الموج ، ها هو
يبتعد الآن ، يترك بسمته والصقيع
وقائمة المستفيدين من جزر متوازية في القلوب
هو الآن يركب أحلامه ويغادر شاطئنا ، أي شيء يجيء ؟! شواطئنا تدرك الامر ثم يعم القبيلة
حزن جريء ...

- ٤ -

لقد حدثني القبيلة عن قادم حل بالليل ممطيا
فرسا . شاهرا سيفه الورقي
يكرر قولته العربية عن وطن مستباح
وعن أمة أنهكتها خسارة كل الحروب الكبيرة ، يصرخ
أن قاتلوا . ثم يصمت ، يذهل حين يرى طفلة
تستحم بخيمة شيخ القبيلة ، يسأل : هل جاء
عنتر قبلي ؟
يفاجأ أن مات عنتر ، لكن عبلة يسكنها الم مزمن
فيغير مجرى الحديث ويسأل عن طفلة تستحم بخيمة
شيخ القبيلة ، ثم يشير باصبعه نحوها . فتفاجئه
صرخة الطفل أن تلك عبلة لم تستحم طويلا
وان قدومك قد سرها ، فيفاجأ ثانية ثم يهوي
من الحزن والفرح الانتقالي نحو الذهول ...

- ٥ -

تململه جيدا حين شاهدت أوراس في مقلتيه يشع الدروب لأوراس آخر مقبلة كل أحجاره نحونا ، تتكاثف أشجاره ثم تنمو بأعماقنا هجرة السنوات العجاف ، نبارك مقدمه ونغني له ، ثم نرقص مبتهجين بفصل تجيء الطيور البعيدة فيه ، فنحمل هم العشيقة ، نعشق آهاتها ثم نأتي لآخر أغنية في الشريط الذي سجلته ملامح أوراس في مقلتيه ، نعانق في قوة جزرا متوازية في القلوب ، وهذي المساحات تنتشر الآن خضراء في قلب كل وليد جديد يجيء ببحر به وطن قادم ، نحن لا نرتضي أن نسافر في أفق لم يعانقه أوراس يوما ، ولا نرتضي ان نصافح من جاء يبغي لنا هجرة لا تشع ملامح أوراس في نبضها ، نحن قافلة نبذت شيخها حين انبأنا فارس انه قد رآه يعانق جارية لامير غريب تآمر في السر

ثم انتوى هجرة ضدنا ، نحن قافلة ليس فيها أمير ، ولكننا الامراء . وأوراس سوف يظل بأعماقنا شامخا، باطل كل ما تدعيه المراثي، وما يكتب الامراء ، ونعشق أن يكتب البحر عنا صحيحا . ولكن اوراس ما صمته ما يزال يشكل أغنية . نحن لا ندعي في الجبال اطلاعا كبيرا ، ولكن أوراس ملحمة في القلوب يظل .

— ٦ —

يجيئكم من منافذ مغلقــــة . يدخل البيت ، يمشي الهوينا . يلاحظ جدرانا منهــارة . يتأسف ، يمشي قليلا الى الخلف تفجعه صور ومناظر كانت معلقـــة باعتناء بديع . فيجلس من قــوة الصدمة ثم يقرر البيتهدما وتشييده من جديد . ولكنه أخطا الرسم، واللون لم يتناسب مــع الشكل ، والسقف ترهبـه الريح حين تجيء . هو الآن يبحث عن مخرج متعب . عن نوافذ مغلقة . يتحسس دربا جديدا به مخرج من ظلام كثيف ، على البيت حط .
ولما تزل بعد أرجاء قلبي مظلمة ...

— ٧ —

لكي أتواجد في القلب آتيك محتفلا بالبذور ،
أساند من مد أذرعه في الخليـــج يوزع سر احتضار
الطحالب ثم يمجد قافلة قادمه
لكي أتواجد في القلب وزعت أغنية القلب ثم اندفعت
مع الصاعدين المسافات ، والراجلين الى الشجر
الحي كي أهجر الآن مرفأ ذاكرة متعبه
أجيئك منتشيا بالغيوم
وأعلن حبي على الواقفين صمودا بوجه الاعاصير
أقرأ أنباء من رحلوا نحو ذاكرة البحر يرتجلون
النشيد ..
ويستطلعون خفايا المحيطات ، تسكنهم قصة الحـوت
والالتهام البطيء لمن يدخل البحر ، يدخل المملكه
هو ذا جاء من يدخل المملكه ...

— ٨ —

من ذاك يركب قاربه مبحرا نحوها
يتوسل للشمس الا تغيب
يعانق أحلامه ويغيب
هو يعرف كل الشواطيء
كل المحيطات ، والجزر المستطيلة في البحر
يعرف كل المرافيء ، لكنه مبحر ، مبحر نحو قلبي
صامتا كان يبحر نحوي
من ذاك يركب قاربه ثم يرحل
ثم الى أين يمضي
وأية أرض تناديه ، أية خارطة اعجبته
وأية زاوية يقصد الآن
من منكم حدثته الوكالات عنه
ومن منكم حدثته الجرائد عن رحلته ...

— ٩ —

تأمل مساحات قلبك . تدرك لها وترا صدئا
في انسحاب أليم ،
يجيء له اللعن من كل صوب حزينا ومنغمسا
في الشرود
أجيئك مستبصرا علني اقرأ النبأ المستحيل ببحرك
ابصر خاتمتي في انسحاق بطيء
يعاودني الشوق للموج ، والصوت ، والبحر ، ها
وطني يطلع الآن أغنية وبكائية ونشيدا

— ١٠ —

أحبك في القرب والبعد
اسمع صوتك ثم أخبئه وطنا ينعاون
ضد اعوجاج الاشعة ماذا
أوضح ، هذي الجموع تناشدني الصمت
فليرحل الفرح الموسمي ...

— ١١ —

تساءلت في السر والجهر ، هل يقبل البحر
دعوتنا التفاوض ، انبأنـي قادم مـن
مسافـات عينيك ان النخيـل يخطط
هجرته الشمال
تساءلت هل تقبل الريح دعوتنا للتصالح
ولوات الريح وانتفضت
ترى أي شيء يخطط هــــذا الغريب له ؟ ثم مــاذا
يريد ؟ وهل ينتوي هجرة نحـونا ... ليست
الغربة الآن ما يختفي في الصدور
ولكنها وطن قائم في القلوب

— ١٢ —

أجيئك محتفلا بالبذور
لكي أتواجد في مقلتيك وحيدا ...

قسنطينة

بان الصبح ...

عبد الحميد بن هدوقه

أتمت دليلة (*) الحركات الرياضية التي تقوم بها كل صباح . وتقدمت من مرآة الخزانة ، وقالت وهي تنظر الى وجهها وجسمها فيها :

« أنا جميلة ، أليس كذلك ؟ اياك أن تعكسي أمامي صورة زائفة لحقيقتي ! هذا شعري أعرفه بلونه الخروبي وطوله . هاتان عيناي العسليتان الحالمتان بتفجير شيء ما ... هذان حاجباي المقوسان الرقيقان . هذا أنفي المستقيم الـذي يأنف من انحرافي . هاتان شفتـاي الرهيفتان اللتان تحسنان التدخين والشرب أكثر من القبلات ! » .

فكرت لحظات وهي واقفة أمام المرآة ، ثم قالت : « صدري لم يستسلم ، ما زال دائمـا في حـالة تأهب ! وهذا خصري ... » .

تنهدت وهي تنظر الى خصرها وسخرت منه تقول : « ستصير برميلا ذات يوم بفضل كريمو ... » .

اتجهت على اثر ذلك الـى منضدة السرير فأخذت سيارة وأشعلتها وجذبت أنفاسا ، واذا بالباب يـدق ، يصحبه صوت أبيها :

ــ ألا تقومين ؟

أطفأت السيكارة بسرعـة ، وأشارت الـى المرآة هامسة : « الجنرال ! الجنرال ! » وخرجت مغلقـة الباب وراءها بسرعة لئلا يدخل ابوها الغرفة ، وأجابته :

ــ لي درس عنـد الحادية عشرة ، والساعة الآن الثامنة والربع .

فسألها :

ــ وهالة ؟

ــ خرجت في السابعة والنصف . دروسها تبـدأ في الثامنة .

ــ مع من تذهبين الى الكلية ؟

ــ كالعادة . الحافلة أو بعض الاصدقاء .

ــ اياك أن تركبي مع أي كان !

ابتسمت ساخرة مـن أبيها ومن نفسها وأسرّت : « على ماذا تخاف أيها الجنرال ؟ انتهى الامر ... انه هنا في بطني منذ شهرين ! » ، ثم أفصحت :

ــ أنا أركب مع أي كان ؟ لا . أبدا !

وفي نفسها كانت تقول: « اللهم الا اذا لم أجد.. » .

فقال لها الشيخ علاوة معتدا بنفسه :

ــ نحن اليوم لنا اجتماع حول « الميثـاق » عنـد الساعة التاسعة .

وأضاف وهو يغادرها :

ــ اليوم يوم أعداء الله !

نظرت اليه باشفـــاق وسخرية وهي تتمتم بين شفتيها : « أعداء الله ! كأن الله عاجز عن الدفـاع عن نفسه !.. » .

عادت الى غرفتها فاستلقت في الفراش ، واخذت علبـة السجائر فأشعلت واحـدة وجذبت منها نفسا وأرسلته ببطء لتتابع تعرجات الدخان ، كما تفعل عندما تكون منشغلة البال . أقلعت سيـارة أخيها الاكبر الذي يصاحب أباه الى ساحة الشهداء عنـدما ينزل مبكرا ، ومن هناك يتوجه الى عمله. فقالت في نفسها : « لو كنت سيارة لاتجهت في خط مستقيم ... » ، لكن الخاطرة لم تكن موفقة ، فاستدركت : « وما الفائـدة ؟ أتحطم عند أول عارض ... لو كنت بركـانا ، البركان له مـا يقول ... أفجر أولا الثكنة التي نحيا فيها، ثم ... » .

(*) للكاتب روايتان ترجمتا الـى الفرنسية هما « نهايـة الامس » و « ريح الجنوب » التي حولت الى فيلم .

وقفزت في ذهنها فكرة : تكلم كريمو الذي وعدهـا أن يجيبها في مدى أسبوع . وقد انتهى الموعد ، ولم تتصل منه بجواب .

نزلت الى الصالون في الطبقـــة الارضية حيث الهاتف . ركبت الرقم فاذا بصـوت يجيبها : « هنـا صونانراك ... » ، فاستعذرت وأعادت تركيب الرقم ، فأجابها صوت آخر : « س.ت.س. فيخدمتك... » . وضعت السماعة ، وفكرت : ماذا تعمل ؟ الهاتف لم يرد أن يذعن لرغبتها ! طفقت تركبالرقم منجديد ، فيجيبها صوت لم يستيقظ صاحبه جيدا :

ــ الو ... نعم ...

ــ أنا دليلة ! (بحدة) .

فيجيبها كريمو . وقد أيقظته تماما حدة الصوت :

ــ صباح الخير . ماذا تريدين في هــذا الوقت المبكر ؟

ــ (امره) أريد أن نتـلاقى عند الساعه الثانيـة زواليـة !

ــ عند الساعة الثانية ؟ (بتردد) أين ؟

ــ في شارع محمد الخامس .

ــ (محتارا) لكني لا أستطيـع ... أختي تزف عروسا يوم الاحد . وأبي قرر أن يقيم حفلة لاصدقائه غدا فلا يمكن أن أتغيب ، لا اليـوم ولا غدا ولا بعده ، حتى ننتهي من هذا الزفاف ..

ــ لا بد أن نتلاقى اليـوم ! (يزداد صوتها حـدة وتهديدا) .

ــ لماذا لا نتلاقى يوم الاثنين او أي يوم آخر بعـد الزفاف ؟

ــ (بقوة) لا ! عند الساعة الثانية بعد الزوال !

تضع السماعة بقوة وتنهي المحادثة ، واذا بأمهـا تدخل . وتسالها :

ــ مع من كنت تتكلمين يا طفلة ؟

فردت ساخرة :

ــ صباح الخير ، كومندان !

ــ مع من كنت تتكلمين ؟ كفاك مزاحا !

ــ مع خالتي !

ــ من خالتك هذه ؟ أم تسخرين مني ؟

ــ خالتي هي خالتـي ... الانه ليس لك أخت فينبغي أن أبقى بدون خالة ؟

ــ متى تنتهين من هذه السخرية ؟ أتحسبين انك ما زلت صغيرة ؟

ــ أبدا ، كومندان . أعرف جيـدا انني لست صغيرة بالمرة !

ــ معك لا يمكن الكلام ...

رجعت العجـوز كلثوم الـى المطبخ كالمغضبة .

وصعدت دليلة الى الدور الثاني ، الى غرفتها . فتحت الخزانة تبحث عن تبـان نظيف تلبسه ، فوجدت كـل سراويلها الداخلية وسخة ، في كل مرة تنزع واحدا ، ترميه في زاوية الخزانة ، وتنسى تنظيفه من بعـد ... نزعت التبان الذي عليها ورمته مع الاخرى . ثم رزمت الجميع مع بعض المناديل والصدارات في قميص نوم ، وأخذت حقيبتها اليدوية والرزمة وخرجت . رأت باب « الرزق على الله » مغلقا (بابغرفة أخيها الاكبر) وكانت تنوي أن تطلب من زوجة أخيها ، منى ، ان تغسل لهـا في هذه المرة أثوابها . لكن لما رأت الباب مغلقا عـدلت عن ذلك . ومرت بباب غرفة أخيها ، رضا ، فدقت على كلمة « الدخول حر » المكتوبة على الباب ، فلم يجبهـا أحد . نزلت الى الدور الثاني فدقت على باب « كلبـة واعرة » ، باب أختها الكبرى زبيدة ، ففتحت لها الباب نعيمة ، ابنة عمها التي تدرس في الجزائر . زبيدة لـم تكن هناك . سألتها :

ــ ليس لك دروس اليوم ؟

ــ قولي ، صباح الخير ، اولا ...

ــ خير ماذا ؟ أعندك خير انت ؟

ــ طيب . لا أدرس اليوم ، انا حرة .

ــ قولي . لا أدرس اليوم ، بدون حرية ... أيـن هي زبيدة ؟ مع الكومندان ؟

ــ ربما . ماذا تريدين عندها ؟ وما هـذه الرزمـة التي في يدك ؟

ــ هذه ... ليست بذات أهميـة . أعرف انك تقسمين بكل الأيمان أن تغسليها انت . لكن ... أليس كذلك ؟

ــ ليس كذلك ! مع السلامة . أنا حرة ، والحرية لا تقبل الاوساخ !

ــ في كليه الادب لا يلقنـونكم شيئا كبيرا عـلى ما يبدو !

ــ في كلية الحقـوق يلقنونكم اغتصاب حريـة الناس ! مع السلامة ...

وقفت نعيمة بالباب مازحة تشير لها بالخروج . فاقتربت منها دليلة ووضعت ذراعيها على كتفي ابنـة عمها . وقالت لها ساخرة :

ــ أقسم بحبك لي أن تغسلي مـع ثيابك هـذه الاثواب الداخلية . انها نظيفة وانما أحببت ان أزيل عنها رائحة الخزانة !

وقبلتها على كتفها كما يفعل في الريف معالرجال .

ــ أنت التي يناديك شباب الحي : دليلة ــ الرجل، ولست أنا !

ــ لذلك قبلت كتفك ! لكـن لا بأس ، أنت ابنة عمي وقبلة على جبينك ليست خسارة كبرى ...

قبلتها على جبينها ساخرة . فقالت لها نعيمة :
ــ في أي سنة تفكرين الانتهاء من السخرية ؟
ــ عما قريب ... أؤكد لك .

تركت لها ملابسها الداخلية ونزلت الى المطبخ ، فوجدت أمها وأختها الكبرى وزوجة أخيها هناك ، فحيت :
ــ صباح الخير ، أيها الرفاق (بصيغة المذكر) !

فقالت لها أمها :
ــ الى متى وأنت تسخرين ؟
ــ عفوا ، كومندان . أمزح لا أسخر . علينا بالدقة في التعبير ... ألم تسمعي حوار التليفزيون ؟ كل واحد يتهم الآخر بعدم الدقة في التعبير !
ــ ما لك يا طفلة ؟
ــ هوني عليك يا ماما ! أمزح ليس الا . اجلسي ، اجلسي يا أميمتي الصغيرة ، أنا أفرغ القهوة وحدي بدون أن أتعبك .

قبلتها وجلست فشربت قهوتها في جرعات وخرجت .

* * *

وقفت دليلة في مفترق الطرق بين حسين داي والقبة لعل سائقا ممن تتوسم فيهم « غباء خاصا » يدعوها للركوب ...

وأخذ السواق يغازلونها من سياراتهم بالاشارات الضوئية ، والبعض بالكلمات والغمزات ، وهي لا تأبه بهم ، لانهم كانوا من الشبان . ان تجربتها علمتها ان الركوب مع من اجتازوا مرحلة الشباب ، ولا سيما المتزوجين منهم ، أضمن طريقا . بين بن عكنون حيث تدرس وهذا المكان الذي تقف فيه ، قلما كانت تجد من يضحي بالبنزين والوقت من الشبان . انهم بمجرد ان يسمعوا « بن عكنون » يأخذون في الاعتذار والتأسف الذي لا يغنيها عن طريقها ...

ها هي سيارة ، كانت مسرعة ، واذ رأتها خففت السرعة ! ها هو رجل بداخلها يتجاوز الاربعين يشير اليها ... تنظر دليلة الى الرجل : يلبس نظارة سوداء لا تتبين من خلالها طريقة نظره . تتردد ! السيارة تبتعد « راجلة » في تباطؤ كبير ! اشارتها الضوئية اليمنى تلح على دليلة : اقبلي ! لا تخافي ! تلتحق به دليلة . تركب الى جانبه . يحييها مرحبا ويعتذر مكانها :
ــ الحافلات صارت عذابا !
ــ وأي عذاب !
ــ اتسكنين في هذه الناحية ؟
ــ لا ، كنت عند خالتي .
ــ آ ... لك خالة تسكن هنا ... جميل .
ــ اين تريدين أن أوصلك ؟
ــ الى بن عكنون فقط . اذا امكن .
ــ تسكنين هناك ؟
ــ منذ أربع سنوات !
ــ جميل !

يأخذ علبة سكائر أميركية من درج السيارة ويناولها سيكاره ، فتأخذها منه . يجذب القداحة الكهربائية ويقدمها لدليلة وهو يبتسم . تلاحظ طاقم أسنانه الاصطناعية التي موهها بنابين من ذهب . تقول في نفسها : « ان الرجال لا يريدون أن يظهروا كبارا أكثر من النساء ... » . تشعل السيكارة وتعيد اليه القداحة شاكرة . تنتظر ماذا يفعل بعد السيكارة . لكن الرجل يبقى في حالته الطبيعية . لا يبدي أي حركة أو اشارة خارجة عن نطاق الاصول العامة للسلوك . ثم بغتة يفاجئها سائلا :
ــ ماذا تدرسين ؟

فتجيب تلقائيا :
ــ الحقوق .
ــ جميل ! كم سنة بقيت لك ؟
ــ هذه سنتي الاخيرة .
ــ أنا رئيس مصلحة ادارية باحدى الشركات . مكتبي بالمدينة .
أعربت له دليلة عن أسفها لاتعابه واضاعة وقته ، وقالت :
ــ اذا شئت ، اتركني هنا . لست مستعجلة .
فأجابها مبتسما :
ــ هوني عليك . أنا أيضا لست مستعجلا . أعمل بشركة خاصة يملكها شخص واحد . لا يهمه حضوري ، يهمه عملي أتمه نهارا أم ليلا .
ــ أنا ظننت ان العمل عند القطاع الخاص أصعب .
ــ وأنا قلت لك أسهل ؟ انما اتفقنا على أن يكون وفني لي وعمله له ! هكذا لكل حسابه ... لو لم أتم العمل المطلوب مني بالنهار أتمه بالليل !
ــ كيف يستطيع تقدير ذلك ؟
ــ ممارسة المهنة زمنا طويلا تعلم كل شيء . مثلا في القطاع العام ، المردود يساوي عشر الطاقة المستخدمة !

هزت دليلة كتفيها كمن لا يعنيه الامر . فقال :
ــ هذه مشكلة من مشاكل الجزائر ... مشكلة كبيرة . ان لم تحل وجدت البلاد نفسها بعد بضع سنوات كالرجل الذي فقد ذاكرته !

راق التشبيه دليلة ، ولكنها لم تفهم الام يرمي بكلامه . انه يعمل بالقطاع الخاص ، بأي حق يسمح لنفسه بهذا النقد ؟ أم هي عدوى من « معلمه » ؟ وفكرت ان تهاجمه لترى كيف يصد ضرباتها ، فقالت :
ــ ألم تقل انك تعمل بالقطاع الخاص ؟

ادرك الرجل ما تعني بهذا التساؤل فرد الهجوم :
ـ هل أفقد جزائريتي بذلك ؟
ـ ليس هذا ما أعني ، لكن ...
ـ ماذا ؟
ـ ظننت ان القطاع الخاص يسره أن يرى الجزائر تحيا بعشر طاقتها ... لا ؟
ـ تحيا... أظن يا آنسة ان التعبير الذي استعملته لا يتأتى من طالبة في الحقوق . اذا استطاعت الجزائر أن تحيا بعشر طاقتها ، من ذا يكون مثلها ؟ كان عليك أن تقولي انها تموت تحت ثقل التسعة أعشار الضائعة !

قالت دليلة في نفسها : « بدأ يقلقني ... أنا ابحث عن تفجير العشرة أعشار ، حتى يعلو الدخان الى أعلى السماء ، وهو يتحدث عن... لست أدري ماذا ... » .

لما رآها سكتت قال :
ـ من يدري ، ربما بعد المصادقة على الميثاق الوطني تصير الرؤية واضحة ؟
ـ هذا في الوقت الراهن لا يهمني كثيرا . أنا مشاكلي لم أستطع حلها فضلا عن مشاكل ستة عشر أو سبعة عشر مليون جزائري !
ـ ما يجري في بلادك يهمك ، أحببت ذلك أم لم تحبي ! لكن لا أدري ما هي مشاكل من في الثانية أو الثالثة والعشرين من العمر ؟ الحياة كلها امامك . كل يوم تكتشفين اكتشافا جديدا ! ما لك والمشاكل انت ؟ أنا في سني هذه وليست لي مشاكل ...
ـ من حسن حظك .
ـ من حسن تنظيمي ! نعم ، من حسن تنظيمي... أنظري الى هذا الجسر الذي نقطعه . ليست الفوضى هي التي بنته ولا الصدفة وضعته هنا ، انما الانسان المنظم . لقد فكر ان السيارات لا يمكنها أن تمر من شعبة غائرة مثل هذه ، فمدّ الجسر .

وكانا حينئذ قد وصلا الى الجسر الرابط بين حيدرة والجهة المطلة على البحر من المدينة . فقالت دليلة :
ـ هناك ظروف لا يستطيع الانسان مجابهتها بسهولة ...
ـ المجابهة هي الاساس . السهولة تأتي بعد ذلك . الآن لو لم أقتحم بسيارتي ، وأنتظر السيارات الاخرى تفسح لي الطريق ، لبتنا هنا . كذلك الحياة .
ابتسمت دليلة وردت له ملاحظته الاولى :
ـ المجابهة غير الاقتحام !
ادرك بسرعة ما تعني ، وقال :
ـ واحدة بواحدة ... لكن مع ذلك ، كل من المجابهة والاقتحام يتطلبان الشجاعة والاستمساك بحرية العمل .
ـ واذا لم يمكن ؟

ـ انا طلقت زوجتي من أجل احتفاظي بحرية العمل التي حاولت تعطيلها .
قالت دليلة في سرها : « وصلنا الى بيت القصيد ! كل هذا اللف من أجل أن يقول انه طلق زوجته ! » .
لكن الرجل اضاف :
ـ وهي رغبت في الطلاق من أجل أن لا أعطل جزءا من حريتها . كلانا أدرك انه يحيا في مغالطة اخذت تسلب منه حريته بلا طائل .
التبس على دليلة أمر الرجل ، ولم تدر ماذا هو ؟ ماذا يريد ؟ ماذا يعني بكلامه ؟ هل هو يلمح الى أشياء سياسية ؟ هل انتقلت اليه عدوى تفكير مستخدمه ؟ أم انه يتحدث ليتحدث ؟

ورات أن تجاريه ، اذ ليس هناك ما يترتب عن الاستماع اليه . فقالت :
ـ الطلاق ليس جميلا .
ـ بالنسبة اليّ جميل . لأني اكتشفت انه من المغالطات البشرية الكثيرة التي يحاول الانسان تغطية حقيقته بها . الزواج هو بديل زائف للجنة الضائعة ... وللجنة البعيدة كذلك !
ـ لم أفهم ما تقول !
ـ الامر بسيط . الجنة الضائعة هي اللاوعي الكلي ، والجنة البعيدة هي الوعي الكلي . هذا واضح ؟
قالت دليلة في نفسها : « أخذ يلقي درسه .. » :
ـ واضح .
ـ الانسان الآن في منتصف الطريق ، يحيا بجزئين : جزء يتصرف فيه وعيه ، وجزء يتصرف فيه لا وعيه .
ـ وماذا يترتب على هذه الحياة النصفية ، أو لست أدري كيف تسمى ؟
ـ يترتب عليها انه يدور في حلقة مفرغة . يحيا بالبدائل المزيفة !
ـ ماذا يفعل ؟
ـ ببساطة عليه أن لا يغالط نفسه ولا يبني حولها سجنا ضخما بما يخلق من قيود وحدود . ليفرغ للعمل الجاد ويخرج من سيطرة اللاوعي بأقل ثمن !
ـ كل هذا يفوق حدود مداركي .

كانت السيارة وصلت بهما الى المدرسة الادارية ، وكانت كلما اعتقدت انها توصلت الى فهم مقصود الرجل ازدادت تيها . وفكرت : اما انه رجل مريض واما انه يسعى الى شيء لم تتوصل الى تصوره . ومهما يكن ، فلم تبق لها معه الا دقائق معدودات وتنزل . واذا بالرجل يتكلم :
ـ ذات يوم كنت بأحد الشوارع ، وكان أمامي زوجان في مقتبل العمر ، لست أدري أن كانا متزوجين ام لا . كانا يمشيان في انسجام ، واذا بالمرأة تنحني

وتنزع من رجلها حذاءها وتنزل به على راس الرجل ! اجتمع الناس حولهما ، البعض للتفرج والبعض لمحاولة التوسط بينهما ... ثم انطلقا سائرين من جديد كما لو لم يحدث بينهما ما يستحق القطيعة !..

قاطعته دليلة سائلة :

ــ هنا بالجزائر ؟

ــ هنا بالجزائر . لكن ما الفرق ؟ عندما يكون الامر يتعلق بالمرأة والرجل ، العالم كله يصير بلدا واحدا ...

واستأنف يقول :

ــ ومن ذلك اليوم ادركت انه في لاوعي كل رجل امرأة ، وفي لاوعي كل امرأة رجل . القصة واحدة منذ الازل والى الابد ، والممثلون يتعاقبون على تأدية الادوار ! لذلك فأقل ثمن ندفعه هو أن نتعلم انْ نكون احرارا دائما. ولهذا قلت لك من قبل : ان الزواج هو البديل المزيف لما في لاوعي كليهما !

ــ ان ما تقوله يستوجب انقلابا كليا في الحياة والسلوك والتصور ، يستوجب انفجارا ضخما !

ــ ولم لا ؟

ــ لو يتحقق هذا . لانفتحت آفاق أخرى امام الانسان ! تصير الحياة فعلا مغامرة عظيمة تستحق الحياة ، ويصير المستقبل ...

ــ لا داعي للمبالغة ... الآفاق ، المغامرة العظيمة . المستقبل ... كلمات جعلت لتغطية العجز وعدم تحقيق الرغبات في الحاضر . المغامرة العظيمة بين أيدينا لا تتطلب منا سوى أن نحياها !

وكانت السيارة وصلت أمام مقر الديوان الوطني للصناعة والتجارة السينمائية ، فقال لها :

ــ أين تريدين النزول ؟

ــ شكرا ، أنزلني هنا . لست بعيدة .

فقال لها ضاحكا :

ــ عن سكناك انت بعيدة !

قالت في نفسها : « لم أسجل معه هدفا ! لكن ، من هو ؟ هل يعرفني ؟ ولماذا كل هذه الاحاديث والتفلسف ؟ » .

فكرت أن تطلب منه عنوانه أو تسأله عن اسمه ولكنها عدلت عن ذلك : « لن يقول لي الحقيقة . ما الفائدة ؟ الرجل عندما لا يكذب على المرأة يعتبر نفسه أحمق أو غبيا ! » .

أقلعت السيارة وتابعتها دليلة لحظات ، حتى غابت عن عينيها في الطريق المؤدي الى حي الأبيار .

بقيت في مكانها برهة عساها أن ترى بعض زملائها. ولما لاحظت رجلين في آخر شبابهما يتسكعان حولها بصقت في اتجاههما وانطلقت مع الطريق الى كلية الحقوق .

أعطي اشارة بدء المعارك

... الى فقراء بلادي

عمار بو الدهان

متعب ، ها هو الآن يقدم نحوي ، يصافحني ثم يمضي ، المسافات تنأى بنا ... أذكر الآن ان المقاهي كانت رفيقا ، وان المنافي التي جمعتنا رفيق ، وان الذين ينامون فوق رصيف الموانىء في وطني رفقاء .

متعب ، ها هو الآن يفتحبابي الذي لاذ بالصمت.

أشهد ان الذين يمرون خلف زجاج النوافذ لا يدخلون الفنادق ، أشهد ان الذين يجوعون مثلي ، يموتون مثلي وفي وطني شهداء .

متعب ، أذكر الآن ان المدينة ضاجعها القحط ، والقمح باغته الطير . أذكر ان صدور الجبال تخبىء وجهي وتخزن كل القنابل ، قد تنفجر يوما ، وقد تتخلخل يوما وقد ... أذكر الآن ان القطارات مرت ، وان الشوارع ينطفىء النور فيها قريبا ، وان الزلازل سوف تكون رفيقا لمن يقطعون الطريق حفاة ، لمن يسمعون أغاني الجبال التي قد تجيء بها الريح يوما ، يجيء بها المطر المتبقي ، يجيء بها الشهداء .

أيها الوطن . الجرح ، يدمل وجه الطريق ، وتحبل قيحا حروف القصائد ، تسقط كل الشعارات من واجهات الحوانيت ، والكلمات الجميلة تسقط ، كل القصائد تهرب من سجنها ، يخرج السجناء من السجن ثانية ، يتنفس ليل المدينة لا اكتفي ؟

اذكر الآن ان النهر يثور على ظمأ البحر ، يطلق طلقته . ويقاتل غطرسة البحر ، يمنح أعشابه الماء والبندقية ، يفتح كل الصناديق ثم يوزع كل الذخيرة ... هل أذكر الآن ؟

اطلق طلقة بدء المعارك ، أعطي للنهر أمر التراجع (لا) .

ما رأيك أنت الذي تراجع . تنتظر الاحتفال الذي سيقام ـ غدا ـ لقراءة قائمة السجناء وتنصيب تذكار لبقايا الارامل والشهداء ؟

أطلق الآن طلقة رشاشتي المتبقية ، الآن اعطي اشارة بدء المعارك بين الجيوش التي تتناحر ، أشهد ان الذين ينامون فوق رمال الشواطىء أو فوق ما لفظته البيوت من الزبل والوسخ المتبقي يجيئون يوما ، ويقتحمون المدينة ، أشهد ان الذين يموتون فوق جليد بلاط الشوارع ينتشرون ويختصرون المسافة ، أشهد ان صهيل خيول (المداشر) يقترب الآن مني ، وأشهد ان البنادق تنتشر . الآن لا أتراجع ، أعطي اشارة بدء المعارك بين الجيوش التي تتناحر ، أعطي اشارة بدء المعارك يا أيها الشهداء .

اذكر الآن ان المداخل قد حاصرتني ، وان السنونو يهاجر قبل قدوم الشتاء ، ويأتي اذا غازل الشيب لون الحقول ، اذا احمرّ زهر الحدائق يأتي السنونو ، وأذكر ان المدينة قد خرجت من برودة طقس الشتاء الاخير ، المدينة قد حاصرتني بنادقها ، والعيون التي تيبس الآن في زمن القحط تختزن الصور المتناقضة ، الآن تلتقط الصور ، القحط لا ينتهي ، ورجال الصحافة يلتقطون خفايا المدينة ليلا ، المدينة قد تضع الحمل ، تخرج أحشاءها ، تتقيأ ، تلقي حمولتها ، الآن يذكرني الشهداء .

متعب ، ها هو الآن يقدم نحوي ، يصافحني ثم يمضي ، المسافات تنأى بنا ، والزمان الذي كان يجمعنا صار يهجرنا ، أتنقلُ عبر خلايا المحطات ، أسماء كل الشوارع قاطعها الشهداء !

آه يا أيها الشهداء ، المناديل تهجر وجهي ، الجيوش تحاصرني . الدرك الوطني يقيم حواجزه ، والمناشير ممنوعة لا تهرّب ، لا تتسرب ، والصمت مقبرة ، لا بطاقة لي ... أتراجع ؟

انني أعطي اشارة بدء المعارك بين الجيوش التي تتناحر ، أعطي اشارة بدء المعارك يا أيها الشهداء .



قطاع الرجل

مرزاق بقطاش

(١) حي قطاع الرجل :

رويدكم ، فالحياة صارت ثقيلة كالرصاص .

انها اثقل مما مضى ، وانا ادرى بمثل هذه الوطأة. لقد شهدت حروبا ، واحسست بوقعها الحديدي غير ما مرة ، وتحملت رواسبها . واعترف لكم انني بعد الحرب الاخيرة اصبت في مقاتلي . فالشيخوخة زحفت عليّ دفعة واحدة ، وصار من المستحيل أن أصمد في وجه التغير المفاجيء . انني ادرك تمام الادراك انه اعتراف خطير ، وانني لي ان اتجنبه والموت العاصف ينتظرني عند الابواب ! قبل اسبوع واحد ، قطعوا جزءا من اوصالي العليا التي تربطني بالطرف الآخر من المدينة .

حكايتي قد تطول وقد تقصر .

لقد ولدت في ذهن معماري لا يعرف التاريخ له اسما ، ونيفت على أربعة قرون . كاتاروجيل ! هكذا يقول اللوح المكتوب بالاحرف اللاتينية ، ولست في الحقيقة الا قطاع الرجل . وهذا الاسم غريب حقا . كما ترون . وانا لا اكاد أذكر شيئا في هذا المضمار . خلاصة القول هي انني زقاق طويل في قلب القصبة ، أمتد من الجانب السفلي الى غاية الجانب العلوي الواقع في الشرق . ولعلكم تعلمون انني فقدت هيبتي منذ زمن طويل . فالناس كلهم يعرفون انني حيّ المواخير . لو انني استطعت أن اجد تفسيرا لاسمي الحقيقي ، لأقنعتهم بالعدول عن هذه الصفة التي ألصقوها بي . وان كانت هذه هي الحقيقة في واقع الامر .

لا مناص لي من الحديث عن وطأة الحرب الاخيرة ، لانها حطمتني شر تحطيم .

مدافع الغزاة الاسبان ما كانت لتنال مني ، وهجمات السلب والنهب التي شنها الفرنسيون لم تترك بصماتها ، غير ان هذه الحرب تركتني أتقوقع على نفسي لاولك أمجادي وتاريخي . وأنتم تعلمون ان الفقراء هم حطب الحرب ووقودها المفضل . لذلك لم يكن عجيبا أن يكونوا من السباقين الى خوضها . ظنا منهم ان عهد الجوع سينقضي الى الابد . غير انهم ما كانوا يعرفون شيئا عن هذه العملية الجهنمية ، فوقع ما لم يكن في حسبانهم . ولم يحصلوا الا على النزر اليسير كما يقال . وانا الآخر ، كنت أظن انني سأجني ثمرة مقابل الضحايا الذين قدمتهم ، لانني كنت ادفع لاول مرة مثل ذلك العدد من المحاربين في وجودي كله . انني لا أذكر عددهم في ايامنا هذه .

كيف كانت النتيجة يا ترى ؟

احسب انكم لا تعرفونها. اذن خذوها بحذافيرها !

كلكم تعرفون « قدّور » البطل ! أليس كذلك ؟ بعد الحرب مباشرة اضطر العائدون الى أن يجمعوا بعض المال لوالدته كي يشتروا لها فراشا تنام عليه ، هناك في تلك الغرفة السفلية التي تقع في المنعطف . انني أكره الافضاء بمثل هذه الامور ، غير ان الحقيقة هي الحقيقة . ثم انني بلغت سنا لم أعد أخشى معها شيئا . أطرافي تآكلت ، وكنت أظن انهم يتفهمون وضعيتي هذه . ويعملون على حفظ التاريخ ، لكنهم ما فعلوا شيئا من هذا القبيل . كل ما في الامر هو انهم تركوني أموت شيئا فشيئا ، وأفسحوا المجال لدخول عائلات فقيرة الى هذا المكان .

بربكم ، هلاّ نظرتم الى هؤلاء الاطفال ! المحظوظون منهم لم تمتلىء بطونهم الا بالخبز والماء وبعض الطماطم التي سرقوها من السوق . حتى آباؤهم عاجزون عن ارسالهم الى المدرسة لنقص ذات اليد . وتلك المرأة التي تبيع جسدها هناك ، في ذلك البيت الضيق الواقع على أطراف الزقاق ، أتعرفونها ؟ انها تعلم تمام العلم ان جسدها لم يعد يصلح للبيع منذ زمن طويل . ولكن لا سبيل لها الى الاكل سوى أن تعرض بضاعتها الكاسدة.

العديد من أمثالها اغلقن أبوابهن ، ولست أدري كيف تصل لقمة الخبز الى أفواههن .

أرجوكم ، لا تستفزوني كثيرا ، فقد أفقد وقاري. كنت أظن ان الحرب الاخيرة هي الخلاص الوحيد ، والعكس هو الذي حدث . فلقد ازددت فقرا على فقر ، وظللت حي المواخير بالقصبة .

أتريدون الحقيقة الساطعة ؟

رأيت الاثرياء يزدادون ثراء ، ولا من أحد يضرب على أياديهم ، واستطاع « قدور » أن يكون خلفا لموريس في العديد من الاحيان .

الا ما أشد نفاقكم ! انكم تعرفون مثل هذه الحقيقة، غير انكم تجدون لذة في أخذها من هرم مثلي . الافضل أن أسكت عنكم . فأنا أنتظرهم هذه الايام . لقد قرروا أن يهدموا جزءا مني حتى يستطيع السياح زيارتي دون خطر الانقضاض عليهم .

(٢) الزانيـة :

هذا الصباح فيه مذاق الرماد .

حي قطاع الرجل يبدو رماديا ، ولعل انعكاس أشعة الشمس هو الذي يخلق مثل هذا اللون الكابي .

الزقاق يلتوي كعادته ، ويتداخل في ذاته ، ويؤثر السكون ، أما هذه السلالم الفرعية الضيقة فتحاول أن تفسح المجال للحياة العادية . انفتح باب خشبي صغير ، وأطل منه وجه امرأة بين الخامسة والاربعين والخمسين من العمر . نظرات بعض المارة استقرت على هذا الوجه بعض الوقت ثم انسحبت عنه ، انه لا يكاد يشجع الانسان على التحديق فيه طويلا . أبرز ما فيه هو ذلك الانف الاقنى الذي ترتفع فوقه عينان ضيقتان ، ويستقر أسفله فم متكمش فقد أسنانه الامامية .

المرأة تفتح الباب كله ، فينطلق بكاء طفل في الثالثة أو الرابعة ، وسرعان ما يظهر كلب عند العتبة . هناك دكة خشبية عليها غطاء قديم . ذلكم هو المكان الذي تضاجع فيه هذه المرأة زبائنها . انها تقف عند العتبة بجوار الكلب ، وتنظر نحو الناحية العلوية حيث يتقاذف عدد من الاطفال كرة من الورق في حدود مساحة ضيقة كانت فيما مضى بيتا للدعارة . عيناها الضيقتان تحاولان أن تتبينا أحد الاطفال ، ثم ينطلق منها صوت متهالك : « حميد » . ولا يلبث الطفل أن يسارع اليها تحت سخريات أصحابه . الحديث بينها وبينه ليس طويلا . فقد سلمته قفة صغيرة وطلبت منه أن يسرع الى السوق ويشتري لها الطماطم . يبدو ان الاطفال غاضبون بعض الشيء ، لان اللعبة لم تعد متساوية بينهم بسبب ذهاب رفيقهم . أحدهم يتناول ماندولينة ليس فيها الا الخيط الرابع ، ويحاول أن يعزف لحنا شعبيا فيعجز ، ثم يطرحها جانبا في مكان من الساحة ويدخل في حوار مع أصحابه عن كيفية مواصلة اللعبة .

المرأة تنزع الغطاء عن الدكة الخشبية وتنفضه عند الباب ، فيتذمر المارة ، غير انها لا تعيرهم اهتمامها . هناك فرن صغير وسط البيت ، وقد وضعت عليه قدرا صغيرة ، تعيد الغطاء الى مكانه ، ثم تميل نحو القدر ، فتحركه قليلا .

الطفل جالس على الارض وليس على جسمه الا قميص خفيف . يده اليمنى تعبث بذنب الكلب ، بينما يشد باليسرى قطعة من خبز . المرأة تعصب خمارا على رأسها ، وتحدق في الطفل وكأنها تريد ان تقول شيئا يبعثها على القلق . تتردد هنيهة ، ثم تميل عليه وتمسح المخاط عن انفه بخرقة ، وتعاود التحديق فيه . عيناها تلتمعان وسرعان ما تخبو التماعتهما وكأنهما تذكرت شيئا محزنا . « يبدو أن أمك لن تعود ، وليتك تعلم انها لن تعود » . تقوم من مكانها وتستقصي أبعاد الحجرة الضيقة التي تعيش منها وفيها . يتضح من نظراتها انها تريد أن تجد مكانا للطفل يستطيع النوم فيه . « لو كنت تقفز على رجليك كهؤلاء الاطفال لما طرحت لي أية مشكلة. انني أكره أن يدخل عليّ رجل وأنت هنا معي » .

الحركة عادية في السلالم ، غير ان بعض المارة يتطفلون على ما في داخل الحجرة فتحدجهم المرأة بنظرات ناقمة . والاطفال في الساحة الصغيرة عادوا الى اللعب مطلقين بين الفينة والاخرى صرخات متقطعة. المرأة تجلس عند العتبة الى جانب الكلب ، وفي حجرها عدد من حبات البطاطا تقشرها بحركة رتيبة . بهذه الطريقة ستضع حدا لتطفل المارة ، ثم هي تعلم ان الزبائن لن يأتوها في مثل هذه الساعة من الصباح . حنجرتها تنطلق بالغناء دون أن تتوقف عن تقشير البطاطا : « يا قنديل البيت اللي تحول » . الطفل يستند الى ظهرها فتوجه نحوه نظرة جانبية وتبتسم ، ثم تحاول الاستمرار في الغناء ، غير انه يحاول أن يتسلق ظهرها فتتوقف . « لو جئتني قبل هذه الازمنة اللعينة لاستطعت أن أعيلك وأبعثك الى المدرسة . ليتك تعلم انني لا اكاد أحصل على خبزي الضروري » . وتصمت المرأة ، تميل بجذعها نحو الجهة العلوية من السلالم وتتنهد .

القدر في الداخل بدأت في الغليان . يبدو ان الكلب لا يحب الاصوات المتولدة عن الغليان ، فقد بدأ يهز ذنبه في قلق ، بينما راحت عيناه تطرفان . تنظر اليه المرأة في عطف : « لا تخف . فالقدر لن تندلق عليك هذه المرة ! » . وتعمد الى القدر وتحرك ما بجوفها بملعقة خشبية ، ثم تعود الى مكانها على العتبة . ويتخذ الطفل هو الآخر مكانه على العتبة ، فيتراجع الكلب قليلا ليفسح له المجال . تعود المرأة الى الغناء ،

وتكرر الكلمات نفسها : « يا قنديل البيت اللي تحول . ما حاجتي بك الليلة » . ثم انها تتوقف دفعة واحدة ، وقد غير الغضب ملامحها . وتنظر الى حجرها وهي تهمهم . لقد تبين لها ان معظم حبات البطاطا متعفنة . الغضب يتحول الى حزن شيئا فشيئا ، ثم تواجه الطفل وراءها ، وتريد أن تقول له بعض الكلمات ، وسرعان ما تعود الى جلستها وتسند جبهتها الى يدها اليسرى وتظل مطرقة برأسها .

في هذه اللحظة بالذات ، يندفع احد الاطفال من الساحة العلوية الصغيرة نازلا لالتقاط الكرة التي تدحرجت فوق السلالم ، وتتتابع وراءه نداءات الاطفال مستعجلة اياه . غير انه يلتقط الكرة . ثم يرسل ابتسامة نحو المرأة ، ويلعق شفتيه : « ما الذي تطبخينه ؟ » . ولا يأتيه أي جواب منها ، فيقترب ويلاعب الكلب والطفل ، ثم يقول للمرأة وهو متأكد من نفسه : « سوف أتناول بعض الحساء معك عندما تفرغين من اعداده » . ويندفع صاعدا السلالم في سرعة .

وتظل المرأة مطرقة الرأس .

(٣) الطفل :

لقد بدأ صعود السلالم المتعرجة المفضية الى حي قطاع الرجل .

صعوده متثاقل . وخطواته غير عادية . يده اليسرى تمسك بالقفة ، أما اليمنى فهي موضوعة أفقيا على أنفه . انه يصعد ويصعد . ثم يتوقف ويطلق سعالا ، ويمسح أنفه بكم قميصه . خيط من الدم ينسحب على خده منطلقا من أنفه . لا يبدو عليه انه يبكي مع ان عينيه حمراوان . انه يتوقف على بسطة السلالم ويضع القفة جانبا . عدد من الاطفال يتحلقون حوله وهم ينظرون اليه دهشين . ويتهامسون فيما بينهم ، فيزعم البعض منهم انه تلقى صفعة ، بينما يدعي البعض الآخر بأنه تشاجر مع أطفال الحي السفلي من القصبة . اما هو فلا يكاد يسمع اليهم بجد ، فقد انهمك في تنظيف وجهه ، وراح يمسح آثار الدم المتجمد على أطراف يده اليمنى . انه لا يريد أن تعرف المرأة شيئا مما حدث له . فقد ترق له ، غير انها سوف تفضي به الى والده . انها تعرف والده منذ زمن بعيد ، فهو يكاد يكون الوحيد الذي يوجه لها التحية من أبناء الحي ، ويتبادل معها بعض الكلمات المقتضبة .

لقد ابتعد الاطفال عنه بعد أن أشاح بوجهه عنهم . تناول القفة واستمر في الصعود . لم تبق أمامه سوى هذه العطفة الصغيرة ويطل بعدها على حي قطاع الرجل . علامات القلق تظهر عليه ، ويده اليمنى تعاود مسح وجهه كأنه يستوثق من ان آثار الدم قد زالت عنه تماما . توقف عند العطفة قليلا . وجعل يسترق النظر الى المرأة والى الاطفال في الساحة العلوية الصغيرة . وخمن بأنه ينبغي عليه أن يسارع الى المرأة ويطرح القفة أمامها ، ثم يندفع نحو الساحة العلوية حتى لا يفتضح أمره . وراقت له الفكرة ففعل ، ووجد نفسه وجها لوجه مع المرأة . حاول أن يتخلص من نظراتها ويندفع في السلالم ، غير انها كانت قد شدت يده اليمنى شدا محكما . وانتشرت الحمرة بسرعة في كامل وجهه ، فأطرق برأسه . انه يسمع التنهيدة التي ترسلها المرأة ، وهو يعلم الأبعاد التي تحملها في طواياها .

انه يحس الآن بيدها تنزلق شيئا فشيئا على رسغ يده . ومع ذلك فلم تعد به أية رغبة في الانفلات منها ومن أسئلتها . تكفيه هذه النظرات الضيقة المليئة بالحسرة . شعر فجأة بدافع الى البكاء ، والتمعت عيناه بالدموع ، غير انها انتهرته بحركة من يدها ، لكأنما ساءها أن تراه باكيا . انه لا يبكي بدافع الخوف ، ولا بدافع الحياء . هناك شيء مبهم في ذاته يستحثه على اطلاق العنان لدموعه . ويدرك آخر الامر ان ذلك الشيء ليس سوى الفقر . انه لا يعرف ما الفقر ، بل لا يكاد يشعر به ، ولكنه حين يجد نفسه وجها لوجه مع ذلك الشيء المبهم يعرف حقيقته .

لن يقوى على التحرك من هذا المكان . انه يحس بأنظار رفاقه من الاطفال تنهال عليه من الساحة العلوية . ويشعر وكأن نداءاتهم المتكررة تقرع أذنيه قرعا . ويزداد اطراقا برأسه محدقا في ثقوب العتبة ، لن يخلصه شيء من وطأة الوقفة سوى أن يفضي للمرأة بما حدث له . هذه هي عادته التي تتكرر مرتين أو ثلاث مرات في الشهر الواحد . ومع الابهام الذي تصطرع به نفسه ، يبرز تساؤل ملح في ذهنه : « لماذا تراها تصر على أن ترسلني الى السوق وهي تعلم انني لن اضبط يدي أمام السلع المتراصة ؟ » .

احس بضغط على يده ، فأدرك بأن اللحظة المنتظرة قد حانت . وصعد العتبة وهو يتفادى قدمي الطفل وذنب الكلب ، ثم انه جلس على طرف الدكة دون أن يرفع رأسه . لم يكن يشعر بالخجل أمام نظرات الفضوليين من المارة ، فالعيش في حي قطاع الرجل أمر عادي جدا ، بل ان هذا الحي لا يختلف في نظره عن بقية الاحياء الاخرى الا بفقره المدقع . وفيما عدا ذلك فانه لا يكاد يعير اهتماما لما يجد حواليه .

قلبه يخفق بشدة في هذه اللحظة . فهو يدري ان أسئلتها قد تنهال عليه دون مقدمات . هذه هي اللحظة التي يعاني فيها ما يعاني . يحاول بقدر الامكان الا يصرعه السؤال المفاجيء ، ويجد نفسه آخر الامر منطرحا منهزما . لقد رفع رأسه قليلا ، وراح ينظر اليها وهي

تحرك القدر ببطء ، ثم انه أبصر بها وهي تلاعب الطفل ، وتقف عند العتبة مولية ظهرها له . الطفل يقترب منه ، فينحني حتى يلاعبه . وقد نسي لبضع ثوان ما ينتظره. واذا بالسؤال يأتيه قاطعا : « ماذا سرقت ؟ » .

ندت عنه حركة مضطربة من راسه . وازداد خفقان قلبه . عليه الآن أن يفكر في الاجابة ، فهي لن تسمح له بالخروج ما لم يفض لها بما عنده . وهل له ان يفكر ويحاول مداراتها وهي تعلم ما أقدم عليه ؟ وأعادت عليه السؤال في شيء من العنف : « ماذا سرقت ؟ » . وأدرك هذه المرة كعادته ان الجواب الصريح هو الذي ينقذه من هذه المرأة ، ومن ذلك الشيء المبهم الذي يستقر في ذاته . أوضح لها في البداية متلعثما انه كان يمر بين طاولات الخضر عساه يعثر على الطماطم، واذا بصندوق من الزيتون الملتمع يظهر أمامه الى جانب احدى الطاولات . ولم يحاول أن يزيد في توضيحه ، فهو يعلم انها ستقوم بالبقية . وهزت رأسها وقد ارتسم على وجهها ما يشبه اليأس وقالت : « طبعا ، انت لم تستطع أن تتمالك نفسك ، فأخذت قبضة من ذلك الزيتون . أليس كذلك ؟ » . وأجابها بحركة عمودية من رأسه وعيناه تستقران على جانب من جدار الغرفة . لقد ظهرت لها الحقيقة الآن ، فلم لا تتركه وشأنه ؟ يبدو انها تعرف سبب ذلك الخيط الرقيق من الدم المستقر تحت أنفه . وبحركة سريعة ، مرر كمّ قميصه على انفه . فلاحظت ما بدر منه وسألته اذا ما كان قد تلقى صفعة من صاحب الطاولة ، وردّ عليها أن نعم . ثم رآها وهي تتلفظ بأقذر الشتائم ، وترسل تهديدات طويلة . ووجد الفرصة سانحة ، فحاول القيام من مكانه الا انها أوقفته وهي تحدق في وجهه بعينيها اللوزيتين الضيقتين ، وسألته اذا ما كان صاحب الطاولة قد هدده بأخذه الى مقر الشرطة فلم يكن له بد من أن يفضي لها بالحقيقة الكاملة .

ورآها تبادر الى اطفاء الفرن الصغير ، فأدرك بأن الواقعة لا مفر منها . انه يعلم الآن ان السوق سوف تنقلب رأسا على عقب . ثم عصبت رأسها ، وغطت جسدها بملاءة رقيقة ، وشدت الطفل الذي كان يلعب بين قدميها من خصره ، وأغلقت الباب دون أن تكفّ عن السب والشتم . وخرج من الغرفة وقد زايله الخفقان العنيف ، وجعل يحدق فيها وهي تنزل السلالم بحركات غير مضبوطة ، وتغيب في عطفة صغيرة ، في حين كان المارة يتوقفون صامتين وهم ينظرون نحوها .

وجعل يصعد السلالم التي تفصله عن الساحة الصغيرة بخطوات متباطئة . وهو يفكر في العشية وما ينتظره من والده . انه يعلم الآن تماما ان الخبر سوف يصل مسامع والده . فالضجة التي ستحدثها المرأة بعد قليل في السوق ستكون في علم الناس جميعا . ولم يعر أدنى اهتمام لالحاح رفاقه على اللعب معهم ، فقد كان غارقا في همه الكبير . وجلس عند سور الساحة مستندا بظهره اليه ، بينما راحت أصابعه تتحرك بحنو على خيط ماندولينه منطرحة الى جانبه . وأحس بنفسه وحيدا مثل خيط الماندولينه تماما .

(٤) الماندولينه :

« لو نعيد همومي نعمّر الف كتاب » (1) .

وما عساي أقوله بعد هذه السنين الطويلة سوى أن أبكي حظي العاثر ؟ ها أنذا الآن منطرحة في هذا المكان من الساحة بعد أن كنت السيدة المبجلة في مقاهي القصبة . ما كنت أتصور يوما انني قد أقع في يد هذا الحفيد الشقي الذي خلفه سي عبد القادر .

يقولون انني ولدت في مقاطعة الالزاس سنة ١٩٢٥ على يدي صانع ماهر . والعهدة في ذلك على تلك الخطوط البنفسجية المنقوشة في جوفي : « أميديو ديردوني . الالزاس ١٩٢٥ » . تاريخ ميلادي لا يهم . خلاصة القول هي انني صرت ملكا لسي عبد القادر في السنة التالية . كان يعمل في الميناء تبعا لما يمليه عليه مزاجه . وان كان في حقيقة الامر يعيش مما يدره عليه الماخور الواقع في الطرف الغربي من حي قطاع الرجل . كان يفرض سيطرته على ست نساء ، ولم يكن ينزل للعمل في الميناء الا ليبعد عنه تحريات رجال الشرطة ، وفيما عدا ذلك كان لا يغادر حي القصبة الا للحصول على « الكيف » ثم يعود اليه لقضاء الليالي في الحانات مع رفاقه . وكنت بدوري ملازمة لسي عبد القادر كظله .

أروع ما كان ينطوي عليه سي عبد القادر من أخلاق هو انه كان يقف الى جانب الضعفاء دائما وأبدا ، ولا يفرض سيطرته الا على النساء اللواتي كنّ راضيات باحتراف البغاء . والطريف فيه أيضا هو انه لم يكن يحمل أسلحته النارية الا بعد أن تغرب الشمس لكأنه كان يريد أن يقهر الظلام وما يأتي به من بحارة وعشاق مغامرات .

ذات ليلة من سنة ١٩٣٥ . عاد سي عبد القادر الى بيته الذي يقع بنهج الاميرة « نفيسة » وسط القصبة . وكان مخمورا جدا ، يضمني اليه باليد اليمنى وتتدلى من يده اليسرى زجاجة خمر لم يبق منها الا القليل . ولم يكن من عادته أن يحمل الخمر الى الدار ، ولعله كان يظن ان والدته لن تبصره في الهزيع الاخير من الليل . غير انه ما أن دخل الدار حتى كانت والدته قد أشعلت القنديل . وراحت تستعد لاستقبال الفجر . ويا لدهشته عندما انطلقت منها صرخة حادة . وقد وقعت أنظارها على زجاجة الخمر . لعلها كانت أمام مثل ذلك المشهد لاول مرة في حياتها ، ذلك انها راحت تصرخ

وتضرب صدرها ، بينما ظل سي عبد القادر واقفا عند مدخل الدار وقد عقدت الدهشة وجوده كله . ثم تحول صراخها الى بكاء عندما التف الجيران حولها يواسونها .

هذه الحادثة البسيطة حولت مجرى سي عبدالقادر، وجعلته يقلع عن معاقرة الخمر ، ويحرر النساء اللائي كنّ تحت سيطرته . أما انا فظللت في صحبته ، وان كنت قد تحولت الى المدائح الدينية بين أصابعه ، وتزوج سي عبد القادر ، وأنجب والد هذا الحفيد الشقي الذي يجرجرني صباح مساء في حي قطاع الرجل .

وما كان السلوك الجديد الذي اتبعه سي عبدالقادر ليقع موقعا حسنا في نفوس رجال الشرطة السرية ، لذلك راحت تقتفي آثاره أينما حل وارتحل . وضاق ذرعا بمثل تلك التحرشات ، فلم يجد بدا آخر الامر من الذهاب الى رجال الشرطة والاستفسار عن الاسباب . وكان الرد قبيحا ووقحا . واضطر سي عبد القادر في سنة ١٩٣٦ أن ينضم الى حزب الشعب الجزائري حتى يقوى على مواجهة رجال الشرطة بطريقة نظامية دون أن يلجأ الى استخدام طرائقه السابقة .

ورايت سي عبد القادر يتحول من رجل فتوة يفرض سيطرته على قطاع عريض من حي المواخير بالقصبة الى رجل سياسي يحاول أن يستخدم ذكاءه ضد السلطات ، غير ان حياته السابقة دفعت بالمسؤولين عنه داخل الحزب الى أن يجعلوا منه رجلَ المبادرات ، فحيثما اقتضى الامر استخدام القوة والعنف ، كان سي عبد القادر هو المعني بالامر في المقام الاول ، وأعجبته المكانة التي احتلها بين أفراد الحزب ، غير انه كان شديد الحماس وهذا ما دفعه الى الهلاك .

وعلى الرغم من انه ظل سنتين كاملتين دون أن تستطيع الشرطة ايقاعه في الفخ ، الا انه وجد نفسه ذات يوم من بداية سنة ١٩٣٩ يبادر الى مساعدة احد المستخدمين المستضعفين . وكانت بادرته تلك تلقائية لم يتبع فيها أوامر الحزب . اني لا ازال أذكر ذلك المستخدم الذي طرق عليه باب بيته ذات مساء وهو يبكي لان صاحب الحانة التي يعمل بها رفض أن يدفع أجرته الاسبوعية بعد أن كسر دون عمد عددا من زجاجات الخمر . وانطلق سي عبد القادر الى الحانة ، وارغم صاحبها الاوروبي على دفع ما عليه من حساب لذلك المستضعف ، وما أن غادرها حتى كانت الشرطة تحاصره وتقتاده الى السجن .

واشتبه في أمر سي عبد القادر . واذا شئتم الحقيقة فانهم حمّلوه اتهامات ليست له أية علاقة بها . ووجد نفسه آخر الامر في السجن ، فحاول الفرار ؛ غير ان السلطات كانت قد أضافت نشاطه الحزبي الى قائمة الاتهامات الملفقة ضده .

لست أعرف بالتدقيق ما حدث له بسجن « الحراش » . فكل المعلومات التي لدي التقطتها من بعض الذين عرفوه عن كثب في السجن ، وجاءوا الى الدار ليرددوا بطولاته على والدته وزوجته وابنه . فقد سعى في السجن الى تنظيم عدد من رفاقه ، واصطدم آخر الامر بأحد الحراس . وبعد مشاجرة كلامية ، كان ذلك الحارس ينطرح أرضا والدماء تسيل من جبهته على اثر ضربة وجهها له سي عبد القادر برتاج حديدي كان يحمله معه دائما .

وحوكم سي عبد القادر في بداية الحرب العالمية الثانية . وكان الحكم قاسيا . ثم انه خيّر بين السجن والتطوع في صفوف اللفيف الاجنبي والتوجه الى أوروبا لمحاربة هتلر . وقد اختار السجن بطبيعة الحال.

وكان سجن « لامبيز » قاسيا عليه . فقد قضى فيه من شدة الجوع ووطأة القمل .

ومع موت سي عبد القادر سيطر الفقر على عائلته ولا يزال الى يومنا هذا ، مع انه كان من المنتظر أن تتحسن أحوال الناس بعد الحرب .

« لو نعيد همومي يصير البحر غلاّب » (٢) .

---

(١) و (٢) من أغنية للمطرب الشعبي الجزائري الحاج محمد العنقاء .

يوميات متسكع محظوظ

سليمان جوادي

الجمعة :
لحظات تأمل وتركيز .

السبت :
وقوفا على طلل في قفاري
تربع كالاثم بين الديار
حديث ، وفي مقلتيه انتداب
الى عهد عاد ، بأقصى الصحارى
طويل ، وبين حناياه حب وشوق
الى الراقصات القصار
وقوفا به يا رفاقي ،
وقوفا
فذاك هواني ،
ويوم انهياري .

الاحد :
تسكعت حينا من الدهر
حتى غدوت أسمى : دخان القطار
تقيأت بالرغم مني شموخي
تقيأت بالرغم مني افتخاري
تعذبت ..
غامرت ..
مزقت نفسي ،
وعلقتها فوق ألف جدار
منعت من الضحك المشمئز
منعت من الضحك المستعـار
تكلمت :
أيقنت ان هرائي
صهيل حصان ،
نهيق حمار .

الاثنين :
تهدهدني بالصبابة ليلا
وتملؤه بالعذاب نهاري
وتكره شعري
اذا كان شعرا
وتعشقه ان دعا لشعار .
أنام على ناهديها صغيرا
ولما أشيخ ، تقول حذار ..
وقد زوجت وزير ،
وظلت تحن الى غرفة المستشار .

الثلاثاء :
أفيقي من النوم ،
علّ النهار
يجود بخبز ،
ويسخو بدار
افيقي ،
لعلّ النهار يحقق حلما
فتسخو علينا البراري
أفيقي ، أفيقي ،
والا دعيني
طموحي الى المجد ملّ انحداري
سأهديك موتا اذا لم تفيقي
وأهديك ثانية من بوار .

الاربعاء :
تفرعنت في الحلم ،
خضت المنايا ،
جنيت السبايا ،
غنمت الجواري
حضرت حنينا وبدرا
ودوخت جيش العدو بذات الصواري
تفرغت للجنس ، ناضلت فيه
وبرهنت عن لذة الانتصار .
فطنت ،
وجدت الكلاب أمامي
ومزبلة الحي ظلت جواري
فطنت على صوت أختي تنادي :
« الي ّ فبالسعد جاد نهاري
وجدت حذاء ،
وخبزا طريا
وثوبا به عري جسمي أواري »

الخميس :
تمنيت أن لا أحيطك علما
بيوم ازديادي ،
ويوم انتحاري
تمنيت أن لا أحيطك علما
بيوم انتصاري ،
ويوم انكساري
تمنيت ، لكن ،
برغم التمني علمت
ورغم صدور القرار
علمت . برغم انقباضي وبؤسي
ورغم ازدواجيتي وانشطاري.

الجمعة :
دعيني ،
فبيني وبينك ،
عشرون عاما من الصبر والانتظار
وبيني وبينك
غابة حزن ،
وبئر عذاب عميق القرار
دعيني ، دعيني
فاني كفرت بربك يا زوجة المستشار

بعد التأمل والتركيز :
تبرعمت جرحا ،
تفتحت شوكا ،
تفجرت ثأرا ،
بمائي وناري
تكافأ عندي : حياتي وموتي
تساوى لديّ : شموخي وعاري
تسكعت ، غرّبت ، شرقت ، يمّنت
يسّرت ،
وفقت في الاختيار
وأيقنت اني الزعيم المرجّى
وعادت لتسألني باحتقار
لمن هذه الارض ؟
للكادحين ،
وللطيبين ،
فهل من مبار ؟

بوزريعه (الجزائر)

قصة قصيرة :

موجة برد

زهور ونيس

عندما وقف أمام المرآة ليصلح من وضع ربطة عنقه . كان ظهر زوجته الثانية يملأ فراغ المرآة . حتى ليكاد يسد عليه صورة معظم الاثاث في الغرفة .

ـ أيهما أغلى ؟ امرأته أم الاثاث ؟ الاثاث كلفه كثيرا .

ـ انه من أهم الاحلام التي حققتها رغم انها لم تتولد لدي الا اخيرا .. اخيرا ... على كل . فقد حققتها ؛ حققت أحلاما كثيرة ...

ـ ولكنها لم تكن ابدا قديمة في نفسه ، أولها ذكريات طفولية ، وهذا ما يبعث على الفخر .

ـ لقد حققت أكثر مما كنت أتصور ... لم تكن أحلاما مجذرة في ذاكرتي . أعترف انها أشياء جديدة.. جديدة علي جدا . ولكن لا أحد ينكر انها جميلة جدا كذلك ... ولن أنسى من ساعدني على تحقيقها ... بعض الاصدقاء في الحقيقة كاملو الاخلاص ... أنا أيضا قدمت لهم مساعدات ... واحدة بواحدة ، لا أحد له دين على الآخر .. الحياة أخذ وعطاء ...

أيهما أغلى ؟ سؤال لم يخطر على باله من قبل .. ولكنه هذه المرة ، يأخذ أكبر مساحة في ذهنه ، وهو يستعد لوضع آخر الرتوش على هندامه .

انه مدير ، ومسؤوليته تقتضي هذا وأكثر . وكل ما يحيط به ويدور حوله .. في الحقيقة هو من متطلبات العمل .. والمسؤولية .

كانت امرأته تتحرك اتجاهه ، وهي تجر ذيل ثوبها الوردي الشفاف المنور ... تعلقت به أمام احدى واجهات لندن ، وهما يقضيان بعض أيام الراحة خلال الشهر... كان حلما من أحلامها أن تشتري قماشا ثمن المتر منه يكفي لكسوة أسرة كاملة ... مثل أسرتها هي تماما ... لا داعي لذكر الماضي .

كانت مختالة معجبة بنفسها ، تملأ وجهها الجميل ابتسامة عريضة . فيها من الكلفة ما في ابتسامات الممثلات المبتدئات في السينما الرخيصة ... وقبل أن تضع يديها على كتفيه . استدار بخفة في حركة صبيانية مراهقة ... ثم قبّل جيدها العاري في دلال ، مشيرا الى الساعة التي في معصمه ، ومعقبا بابتسامة حالمة . وهو يضع سبابته على أرنبة أنفها مداعبا :

ـ اجتماع كبير يا عزيزتي ينتظرني ... ومع الوزير ...

بعض أنواع العطور يجعل من الرجل الذميم رجلا جميلا مهذبا (جنتلمان) .

هذا ما تبادر الى ذهن زوجته الثانية . وهو ينسل خارجا متفحصا حذاءه الاسود . ثم بنظرة شاملة . اطمأن تماما الى انه على ما يرام .. انها متطلبات الشغل ... والمسؤولية .

ملأ غليونه وهو يستريح مغتبطا في المقعد الامامي السيارة ، رادا على تحية الصباح التي ألقاها السائق . أشعل عود كبريت بعد آخر ، وكأنه يتلذذ برؤية الشعلة الصغيرة . وهي تعجز المرة تلو المرة عن الوصول الى التبغ الذي حشا به الغليون المصدف بعناية ودقة . واخيرا تنفس أول نفس ، لتعبق رائحة التبغ الغالي في أرجاء السيارة :

ـ انها ماركة 'مبسادور من هولندا ...

ثم استدار فجأة للسائق الذي لم يكن قد فتح فمه ، كان يبدو لاهيا بالسياقة .

ان السائق لم يسأل عن ماركة التبغ . لعلني تصورت ذلك . وابتسم ابتسامة جمعت الرضا بالتوجس :

ـ أيكون قد فقد الثبات ، وأصبح يحدث نفسه كال .... ؟

وصل الى مقر ادارته . نزل من السيارة كأحسن ما يكون مدير مسؤول ... اعتدل في وقفته قبل أن يأمر السائق بالانتظار . خطا خطوات جادة تحمل الكثير ، الكثير من المعاني . كانت خطوات مدير . يعتز كثيرا انه مدير ... ويفهم كلمة مدير فهما خاصا جدا وغامضا جدا ...

شق صوت حذائه أروقة الادارة ، وهو يتحسس بعينيه كل باب من الابواب . تهيأ له لمدة انها ستفتح ، ويشير له أصحابها بالتحية ... الابواب ظلت مغلقة ...

ـ ماذا حصل ؟ حتى الحاجب غير موجود ...

تساءل وهو يدفع باب مكتبه ، ويتجه رأسا الى حيث الجرس :

دقة .. لا مجيب ، دقتان .. لا مجيب ، ثلاث... ما هذا ؟ هل مات الحجاب جميعا ؟

ولم يغضب ، بل شعر بوحشة وغربة للحظات قصيرة . وقف منتفضا كمن يهرب من هواجس غير مريحة . أطل من نافذة مكتبه ، نظر الى الشارع . الناس كما هي . تسير ، تتحدث ، تتشاجر وتضحك أيضا .

أخيرا بدأت الابتسامة تعرف طريقها الى وجوه الناس . تحدث في الهاتف :

ـ أنا المدير .. ابعث لي الجريدة .. أنني لا أجد أحدا ولا أجد حتى صحف الصباح على مكتبي ...

ـ صباح الخير الاخ المدير .. الجرائد نفدت من السوق .

ـ نفدت ؟ غريبة .. هل عندك جريدة أنت ؟

ـ كلا ، أنت تعرف انني لا أقرأ ...

أغلق الخط وهو يردد :

ـ الاخ المدير ... رجعوا لكلمة الاخ ... ذكرني العامل بأيام مضت لم يكن الحظ حليفي فيها أبدا ...

ها هي صورة زوجته الاولى تهجم عليه .

هي قديمة وكل ما يحيط بها قديم ... حتى الاثاث ...

قال ذلك ، في نفسه ، وهو يحاول ابعاد الصورة التي اقتحمت ذهنه دون رغبة منه ، تفرض نفسها فرضا طفيليا ، تترك خطوطا سوداء في نفسه لا يستطيع التعبير عنها أبدا ...

دق الجرس مرة أخرى . انفتح الباب عن الحاجب. قال بغضب :

ـ ألم تسمع ؟ منذ ساعة وأنا أبحث عن أحدكم !

ـ لم أسمع .. جئت مباشرة من قاعة الاجتماعات لاخبرك ...

ـ قاعة الاجتماعات ؟..

لم يترك الحاجب يتم عبارته . تحرك في عجلة ، لبس سترته . هجم على الحاجب يبعده عن طريقه ، اتجه الى قاعة الاجتماعات .

ها هو الوزير حضر حتى هنا . وأنا غائب ! ماذا سيكون جوابي ؟.. ورؤساء الاقسام هم الذين استقبلوه ، هكذا اذن . هذا ما تمناه أغلبهم دائما : ازاحتي من الطريق ـ حتى يخلو لهم الجو . وها قد خلا لهم مرة واحدة ...

كان ذهنه يغلي بالكثير من التأويلات والاستنتاجات .. وذكاؤه يعمل بسرعة غريبة تتوقف عليها كل مصالحه وامتيازاته . كم استعمل ذكاءه قبل اليوم . كان يقول لصديقه العامل بالجمارك :

ـ كلانا يريد أن يثري بسرعة . ولكني أشطر منك ..

ويؤمن صديقه على كلماته بابتسامة مترددة وكأن خيوطا خفية تتحكم فيها .. لا يدري لها مصدرا ..

أصلح مرة اخرى من هندامه ، قبل أن يلمس قبضة باب القاعة . قاعة الاجتماعات . وسرعان ما انفلت داخلها ليجد أمامه حشدا كبيرا من العمال .. عمال الشركة يحتلون الكراسي .

ـ أين الوزير ؟.. أم انني لا أرى . ومن ذاك الذي يلوح بيديه ؟ والكل اليه منصت ؟.. كأنني لم أدخل . لم يعرني أحدهم أي اهتمام .

قال كل ذلك دون أن يفتح شفتيه ... تحرك دون شعور منه الى الامام . وجد أحد الكراسي شاغرا .. أراح جسمه عليه .. كان في حاجة ماسة الى هذه الراحة القصيرة الزمن ...

نفسه تحدثه : « بئيس جدا هذا اليوم .. كما يبدو من الساعات الاولى للصباح . على أي وجه شؤوم صبحت اليوم ؟ زوجتي ؟ كلا . انها الجديدة . والثانية، والملائمة لرجل مثلي مسؤول . لا شك انها دعوات شر جاءت من الاخرى . هي ، هي الحاقدة والذميمة والقديمة أيضا » .

شيئا فشيئا ، بدأ يحدق حوله . الكل لاه عنه ، باحاديث بعضها فيه حماس ...

« ما باله يشد عروقه هذا الذي يجلس قبالتي ؟ وكأنه وزير .. أو كأنه لم ينطق منذ أعوام ؟.. لم أكن أعلم أبدا انه يحسن الكلام ، هذا البسيط الساذج .. كنت أتصوره جبانا .. معقدا .. ويعطي الامر بالكلام أيضا ... لعله يحسب نفسه رئيسا ، فخار يكسر بعضه .. فلأتركهم يتجادلون .. وما دخلي أنا ، ولماذا جلست معهم . في الحقيقة هناك رؤساء الاقسام . وهذا الذي يعطي الامر بالكلام لا يزال يحسب نفسه رئيسا » .

ـ رئيس مجلس العمال ... لجنة البلدية ... الميثاق... المناقشة ... الاثراء ... مكاسب الثورة... الاستفتاء ...

الاستفتاء على ماذا ؟

بعض هذه الكلمات كان يسمعها ، ولكنه لم يكن يتصور انه يصبر على سماعها طيلة هذه المدة ...

ربع ساعة يمضي . والكل عنه لاه . وهذا بجانبه ينفخ نفسه ، ويعتز بشواربه ولباسه الازرق ، وكأنه لا يزال يمارس عمليات الفداء في حي القصبة أو بلكور.

« أهو الذي ينتفخ .. أم إنا الذي أنكمش ؟ » .

لم يكن يدري . ولكنه كان يجد نفسه تتقلص حتى أصبحت في حجم قطة متداخلة في بعضها خوفا من موجة برد طارئة ...

لماذا وضع نفسه هذا الموضع ؟ ولماذا لم يبق في مكتبه بعيدا عن جميع هؤلاء الناس ؟

قام الجميع يغادرون القاعة ، دون أن يشعر . نظر حواليه . ليجد الفراغ . سحب من الدخان لا تزال تتخبط في فضاء الغرفة ، لا تجد لنفسها منفـــذا . زجاج النوافذ قد فقد لمعانه وانعكاساته نتيجـة ضباب الانفاس المكثفـة . بقيت أذنــاه تجتران رنة التصفيقة الاخيره التي انتهى اثرها الاجتماع ، وكأنها رنة ناقوس كنيسة تعلن عن وفاة ...

جرجر نفسه خـارج الغرفة ... ثم خـارج الشركة . السيارة كما تركهـا . والسائق واحترامـه وصمته ...

« لكم يخيفني هذا الصمت ، وهذا الاحتـرام .. وهذه الحدود المضبوطة بيني وبين هذا السائق . أكاد أجزم انه شخص آخر مثـل رئيس مجلس العمال » .

اعترضت سيارته حافلة محشوة بالناس من كـل سن ... توقفت سيارته حتـى تتحرك الحافلة ... ابتعدت الحافلة بالعيون الكثيرة عنه .. شعر بشيء من الارتياح .. وصل الى بيته .

كانت رائحة المأكولات قد قفزت من النوافذ لتصدم أنفه ، قبل أن يدخل البيت . دخـل البيت . اختلطت رائحة المأكولات المتنوعة ، بعطر زوجته ... كاد يفقـد توازنه ... أصابته شبه اغماءة ، تبعث على القيء ... تصور كل قطع الاثـاث الثمينة المستوردة تجثم عـلى صدره ، تضغط وتضغط . استمـر الضغط والشعور بالقيء ، وزوجته تضع شفتيها عـلى قفاه الاحمر ... وشعره المصفف . قفز واقفا دون شعور منه . حـدق فيها . غريبة هذه المراة !.. تتصرف تصرفات مقززة .. ولى هاربا .. الى الشارع .

كانت هي .. والاثاث المستورد .. وثوبها الوردي الشفاف .. وبدلته .. ليست منه . انه يذكر جيـدا انها لم تولد معه ، ولا في شبابه . لقد ولدت أخيرا .. أخيرا ، جديدة جدا هي وغريبة أيضا .

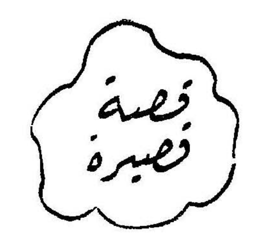
كان الشارع طـويلا ... وخطواته تحاول أن تكسب توازنا ، كانت قد فقدته ، وقطرات مطر تحـاول أن تغسل شيئا ما في نفسه .

بوجهك ترسمين الدرب

مسعود حديبي

بوجهك المجروح
بوجهك المترهل الصبوح
ترسمين في الافق الازرق شارات حب
وتنثرين الورود في أكف المتعبين
الزاحفين الى حقول المستحيل
يا امراة أحبها
أعبدها حتى النخاع
يا مطرا يغسل وجه الكلمات
كي يعيد لي زمن الهوى
والركض في ساح التوهج المبلل بالحياة
يا طفلة عشق الفراش ظلها في الزمن المخصي
بوجهك المجروح
بوجهك المترهل الصبوح
تطبعين على جبين الشمس قبلة الالق
وتصرخين :
لنفتح القلوب للذين اقبلوا يطالبون بالشفق
فكيف لا أصير في أسر هواك ؟
طيرا يفرد الصباح والمساء
يقتلع الدموع من محاجر الصغار
ويسكب الضياء
كي يزيل رائحة الغبش
ويسقط العطش
بك يا طفلة الاحلام
تحلم الجياد والقصائد والشفاه
وتنبض القلوب بالحياه
بوجهك الطري تفتحين لي الدروب
وتسكبين النور في القلوب
بوجهك المجروح
بوجهك المترهل الصبوح
ترسمين في الافق الازرق شارات حب

الفل (الجزائر)



ناس في الميناء

السائق الحبيب

عقربا ساعة الميناء بطيئان .. كأنما يتحركان خلف الزمن .. هكذا أحس العم قادري ؛ اذ شد على خاصرته يدافع الما يشب نارا في كليتيه .

ينحني ، يدرج البرميل اللزج الملمس ، وفي راسه يعيد ويعيد خطة الغداء المكرورة ...

انطبق العقربان فارتفع مبحوحا صوت الصافرة يعلن منتصف النهار .

من كل زاوية في أرضية الميناء كانوا يخرجون على نغمات شجية ترددها موجات البحر المتكسرة عبثا على الرصيف .

في ذهن كل واحد منهم يتحرك عالم بحجم همومه، يعمقها في صدورهم مطر ما زال يسقط . وريح تجلدهم .. وتطاردهم . عربات يمارس الزمن ضدها البلى ، ولا تؤويهم جميعا .. أيديهم في جيوبهم ، نحو مخرج الميناء متجهون . في وسطهم بدأ يحس بحز في صدره :

ـ كيف الحال عمي القادري ؟

ـ رديئة كحالة الجو .

من اين يبدأ الحديث ؟ أين ينتهي ؟ لم يكن ذلك ذا قيمة .

ملاذ يلتجئون اليه به خبز وشيء آخر ساخن . هذا هو المهم .. صحن من الحوت المشوي تقف عليه شاهدة واحدة من دم السبع .

رد ـ دفعا ـ دعوة امعائه الى المقطوعة التي تعزفها واستجاب لصوت السيد المختار يتردد صداه بعد تلاشي دوي الرعد الذي ملأ الاسماع :

ـ لو خيرت في أمركم ، كنت رميت بكم جميعا الى البحر يقتات منكم الحوت .

رذاذ بدأ يسقط .. انذارا بمطر غزير . قفل ياقة معطفه .. كح الما وكحت السماء رعدا :

ـ عمي القادري ! نكاد نصل .. بعض الجهد وتسترد أنفاسك .

توقفوا عبورا للشارع .. سيارة السيد المختار تابعتها أعين بعضهم في فضول .. متجهة نحو غرب المدينة حتى غابت في المنعطف مائلة . ولما استوى السيد المختار شكل قالبا أجوف أوسعه اشفاقا :

ـ الا تجدين انهم تعساء أكثر من اللازم ؟

ـ الى أين يتجهون ؟

ـ لا تتحيري .. لم تسألي الى أين نتجه نحن ؟

ـ ليس مهما !..

ـ كل يوم أكتشف فيك شيئا جديدا .

ـ مثلا ؟

ـ جمالك !..

ـ مجرد حكايات !

ـ صدقيني .

ـ أولادك ؟

ـ لا يهم .

ـ زوجتك ؟

ـ لا يهم .

ـ سمعتك كرئيس مدير عام ؟

ـ لا يهم .

توقفت السيارة ثالثة تأخذ مكانها في ركن منزو :

ـ وصلنا !

ـ فعلا . انه اندلس ! لكنه كئيب !!..

ـ المظاهر خداعة ! ثم الا تخافين على سمعتي ؟

عبرا الى باب المطعم :

ـ تفضلي .

دفء .. هدوء .. تنسيق .. ضوء ولا ضوء .. لا هو أحمر ولا هو أصفر . تنبع منه نغمات موسيقية مهدهدة تمسح عن الآذان كل اثر لبقايا أصوات خشنة .

وكأنما على خشبة مثل ببدلته الحمراء ومنديله الابيض على ناصيته :

ـ كما طلبت سيدي المدير .. مائدتكما محجوزة..

اسمح لي بمعطفك .. شكرا ! اذا سمحت سيدتي .. تفضلي . تفضل .

ثم تقيا جزءا من مسحوق الابتسام الذي جرعه .

رغم كل الشرود كان اللقاء عيونا ناظرة هي الاخرى عجزت عن النطق لحظة .

وما خطر ببال السيد المختار يوما أن يسأل ما الذوبان ؟

اسفنجة تمصه الى اعماقها ، هكذا يدرك اللحظة في حضرتها .

شفتاها لم تقصدا دعوة عينيه حين تحركتا لنعبث انامله ويتشنج بعض من عضلاته .

يريد أن يتخلص ـ ولا يرغب فيذلك ـ من محاولة اجتثاث نهديها لعينيه ..

كل شيء فيها يحسه يتحداه .. يفتقد موقعا أماميا .. يلوذ بالمائدة يستجمع قواه ليحطم أغلال الاسر :

ـ صرت أرتاح اليك كثيرا ! صدقيني .. رغم انك قاسية .

ـ ترتاح الى جسدي ؟

ـ رغم انه لهيب !

جميع المعادلات لا نتائج لها .. صعدت .. هبطت .. دخلت وخرجت .. مشطت طولا وعرضا فكانت الفريسة وكان الوحش في عينيه شراهة البحر :

ـ الى متى ستظلين على هذا العناد ؟

ـ ما دام جسدي يقيم توازنك .

أحس حفرا تحت قدميه فهرب الى زوايا المطعم .. ولما عاد وقف في حضرة الوجه الجميل :

ـ تغيرت ! صدقيني !

اعلان خطير ! لماذا ؟ يجب أن يبقى في موقف قوة . او على الاقل أن يظهر كذلك ...

في جذور شجرة القلق التي بدأت فروعها تنتؤ في صدره كان يبحث عن شيء ما .. ابتسامة مثلا ! لكنها على وجهه طمستها غيمة شاردة مرت بسرعة .

وعلى مستوى أخفض من مستوى الموسيقى المهدهدة يقدم تنازلا آخر :

ـ نفسي تحدثني بأنك .. اقصد انك مهمومة !..

ـ أشعر ببعض الحزن ... مجرد حزن ...

ـ هذا الاسبوع أذهب الى العاصمة في مهمة .. انها فرصة أخرى .

ـ عجيب ؟ وفي الاسبوع نفسه تسافر زوجة السيد العياشي الى أوروبا ! لا يا عزيزي . أنا آسفة .

اتقدت جمرات دعوة السيد العياشي تدفىء صدرها :

(ـ أفضل أن أتحدث اليك على انفراد .. هذه بطاقتي .. انا تعيس .. زوجتي مريضة .. والاموال لا توفر السعادة) .

ـ لم تردي .

ـ سيدي المدير .. الا ترى ان لدي أعمالا تتطلب الانجاز قبل نهاية السنة ؟

ـ شعور نبيل ! متى كنت جدية الى هذه الدرجة ؟ تستحقين ترقية !

ـ ومع هذا أعرف اني امرأة لا تستحق كل هذه العناية !..

ـ مثلا ؟ أن تتزوجني ؟ الا هذه !

ـ لماذا تعذبينني ؟

ـ لاني قرفت من بلع الحبيبات ... أكفيك شر انتفاخ بطني .

قاطعهما .. الورقة البيضاء في يد ، والقلم في يد . ووقف استعدادا للتنفيذ :

ـ طلباتكما .. سيدي سيدتي .

ـ أحس بجوع غريب هذا الزوال .. توجه الى السيدة تطلب لنا غداء دسما .

ـ هذا أقل ما يمكن أن أقدمه .. هيا سجل .

مشى رجل نحو الباب يخاصر امرأة .. ولما كانا خارج المطعم واجهتهما فوهة الشارع فاغرة تنفث رذاذا كانت أقل دفعا له ، قاعة المطعم المكتظة بالصيادين وعمال الميناء .. تزفر حرارة الانفاس ودخان السجائر العائم .. تفرز رائحة « الخمر الاحمر » والسمك المشوي على النار الغازية ، فتنتشر في ذوق خاص يستطيع الزبائن وحدهم معرفة عناصر تركيبه .. لانه يكون جزءا من حياتهم ! لكن تمييز الكلام في هذا المقام صعب ! كل الشفاه تتحرك . وكل لسان يلفظ .

حتى الذي انزوى في الركن الخلفي يسند ظهره الى الجدار يدندن ، يودع زجاجته السر الخطير الذي يخبئه ، يبتسم كأنما يسخر من العالم الصغير المتماوج أمامه ..

الكراسي بدت له احصنة حرنت ، ركابها لا يحركون ساكنا من أجل همزها ، ولكنهم وحدهم يتحركون !.. السقف في عينيه والجدار دارا ، فاطلق كلمات يقاوم بها الارتجاج :

ـ الدورة ! الدورة ! كل شيء يدور ..

الى الاعماق يغيب اللفظ تحذيراته .. يخنق قهقهاته :

ـ أعجبك الغداء ؟

ـ لان المكان يعجبني !..

وبصحنه بقيت زيتونة سوداء شاهدة على هياكل السمك .. لم تضع منها شوكة . تناولها :

ـ كم ستكلف اقامة مطعم بشركتنا ؟

ـ على من تقرأ مزاميرك يا داوود ؟!
ـ لاننا لم نحسن اختيار من يطرح مشاكل مماثلة !
ـ اذا ضربك القاضي لمن تشتكي ؟
ـ والرتيلاء ؟ الى متى ستظل شبكتها قائمة ؟ والقائمة السوداء ؟

حقيقة ! ما الرتيلاء ؟ ما القوائم السوداء ؟ كيف يمكن لمسها ؟ لم يكن أحد منهم ليجيبه حتى يجاهر . صمم على غيه : ماذا يحدث لو تسحقني في يوم من الايام شبكة الرافعة المحملة ان تقطعت حبالها ؟ ومن عيني المعتوه ـ في الركن ـ جاءه الرد ترجيعة رعناء : ستموت ككلب داسته سيارة !..

ـ هذا أنت أيها العفريت ؟ خرجت من أعماق البحر ؟ مالك مبتل كقط ؟
ـ المطر خيط من السماء !

الرعدة ـ في مفاصل الاجسام ـ سرت شحنة كهربائية رغم دفء القاعة . فكح العم قادري كحة ترددت حدتها في صدور المحيطين به دودا خبيثا يدب :
ـ أنت مزكوم يا عمي القادري !
ـ لماذا تغالط نفسك ؟

مساكين ! لكنهم أقوياء ! رغم المختار والفقر والبرد والبراميل والرافعات .. صقلت ذوقهم أغنيات البواخر الراسيات المبحرات ونحتت أجسامهم أمواج البحر التي امتزجت بعرقهم في المد والجزر .

من الركن متعثرا قام المعتوه عاري الرأس وفي عينيه المكورتين يتولد الرعب فزعا :
ـ غدا تحمر الآفاق لميلادها .. وحين تمشي يزهر النوار الابيض !.. غدا .. غدا !

وهرول يخرج مطاردا خيطا لا يتبينه .

رصده العم قادري في آخر خطوة يلفيها خارج المطعم :
ـ يسمونه لخضر المهبول .. كل ما يعرف عنه الناس انه أصبح ذات خريف هنا منذ سبع سنوات

يرحل لخضر ! يتنهد العم قادري .. ويزعزع صدر احدهم بريق :
(ـ لو تتواصل الحلقات !) .

تحاكت الكراسي وانت .. وفي اتجاه الميناء كانوا يخرجون :
ـ أحس بتعب .. كح . كح . صدري !.. آه !..
ـ ما زالت البركة يا عمي القادري ..
ـ أواه ! عظامي تسوست !..
ـ لم ترحم نفسك .
ـ لأني أعرف انه يوم أموت . في المستشفى يلقح طفل يولد .

ومن ذراعه الى الامام دفعه نحو مخرج المطعم .

وهران

ملاحظات نقدية حول :

الرواية الجزائرية

الاعرج واسيني

أن محاولة دراسة الرواية الجزائرية مسألة في غاية التعقيد . اذ ان أية دراسة لا تراعي الظروف الاولى التي كانت في أصل نشأتها انما هي أمر مفتعل يظل صاحبه يصطاد في مياه عكرة قد لا توصله الى نتيجة مهمة . فهناك حركة تاريخية تتحكم بتطور المجتمع وتعيش هذا التطور بكل عمق شاءت ذلك أم أبته ، بكل ما تحمل تلك « الحركية » من تناقضات تخلف في مسيرتها افرازات ثقافية ليست الا وجها من وجوه حقبة تاريخية بكل أفكارها وتقاليدها الثقافية السائد منها على الساحة والتي تنمو في الخفاء تماشيا مع حركة التاريخ .

من هذه البؤرة الضوئية سنحاول أن ننطلق لابداء بعض الملاحظات حول الرواية الجزائرية المكتوبة باللغة العربية على وجه الخصوص ، متوخين التركيز على ثلاث نقاط مهمة مسطرة في تسلسل تاريخي منطقي :

١ ـ هل كانت الرواية في مستوى التغييرات التي حدثت في الجزائر ؟

٢ ـ كيف تطرح قضية الشكل والمضمون في الرواية الجزائرية ؟

٣ ـ اتجاهات الرواية الجزائرية .

لقد كان لنضالات العامل والفلاح والطالب الثوري المدرك لجدلية التغيير ، نتائج تجسدت في مكاسب ثورية ـ ديمقراطية جد ثمينة ، أصبح تدعيمها ضرورة ملحة لوقف الهجمة الرجعية المرتبطة تاريخيا بالمصالح الامبريالية ـ الرأسمالية . مكاسب يعتبر التنازل عنها تنازلا عن الذات التي شاركت أو بالاحرى أسهمت بكل جدية في دفع العملية التاريخية . فهذه المكاسب وليدة صراعات بين مختلف القوى الاجتماعية ، ولم تتحقق الا بسقوط آلاف الوجوه عبر الحقب التاريخية المتتالية ، ما قبل الثورة الوطنية ، وزمن الثورة ، وبعد الثورة .

وهذا الطرح « يغرقنا » في سؤال هام وان كان يبدو للبعض في ظاهره مستهلكا على أعمدة الصحافة الجزائرية خاصة والعربية عموما : ترى هل كانت البنية الفوقية في حجم التغييرات والمكتسبات التي حققتها الجماهير الشعبية الاكثر حرمانا ؟

من الطبيعي جدا أن يتأخر الوجه الثقافي . من حيث التغيير ، نسبيا . فالمعروف تاريخيا ان البنية الفوقية تتأخر اذا وضعناها وجها لوجه أمام التغييرات التي تحدث على مستوى البنية التحتية مهما كانت جذرية . فتغيير « الافكار » عملية تتطلب وقتا ليس بالقصير ، لكن هذا لا يعني أبدا عدم وجود « فيروس » أدب جديد (أو فكر ...) جديد يحمل نكهة جديدة . لكن تطوره يبقى متأخرا اذا قارناه بالثقافة السائدة . واذن فان مسألة الافكار وتغييرها مسألة شاقة ، وليس من السهل أن تزول بسرعة حتى بعد زوال الطبقة التي تمثلها .

وطبيعي جدا أن تتطور الرواية الجزائرية بتثاقل لتقف على أقدامها . وتغطي كل المنجزات الثورية ، فهي ليست الا جزءا ضئيلا من الاجزاء التي تكوّن هيكل البنية الفوقية .

وهي لا يمكن أن تسير مواكبة لذلك الا مع جيل (مع اهمال فارق السن) يؤمن الايمان القاطع بالغد الافضل للانسان المحروم ويجسد هذه الاماني في نضالات يومية يقودها على كل المستويات . أعني ـ بكلمة أوضح ـ تطابق الحلم الذي يهدف « الفنان » الى « تحقيقه » مع الممارسة الاجتماعية اليومية .. هؤلاء وحدهم (الذين يكونون الجيل المذكور) كفيلون باعطاء الرواية العربية في الجزائر مذاقا ذا طعم « دافىء » يجعلها قادرة على تخطي كل العقبات وتجاوز الوجه السائد والجانب السلبي للثقافة القائمة .

لقد خرجت الرواية الجزائرية في بداياتها من رماد الحرب لتلج العالم الجديد بكل ما يحمل في رحمه من تناقضات . واعتمدت ـ أول ما اعتمدت ـ على جيل من « النخبة » (بكل تحفظ) أفرزته الثورة المسلحة ، كالطاهر وطار وابن هدوقة عبد الحميد وعبد المالك مرتاض ـ هذا الثلاثي هو الذي يملك زمام الرواية في

الجزائر مع الاشارة الى اختــــلاف الرؤية والتجربة . وبجانب هؤلاء تنمو « وجوه » ما تزال في الظل ، وبخجل رهيب ، لتطأ أرض الواقع الجديد الذي تعيشـه حتى الاعماق وتتفاعل معه ، وهي تحمل السمات الفكريـــة « المتناقضة » نفسها ، والامل معقود عليها ان هي طبعا عمقت معارفها أكثر ، فهي الوجه الجديد الجدير برصد الواقع الجديد بأمانة والتزام ، وهــــذا ما يسمح لها بالابتعاد عن « الانفصامية » و « الشيزوفرينية » التي يمثلها أكثر من روائي وقصاص وشاعر في بلادنا . فتجد الواحد فيهم يلبس « الثورية » صباحـــــا ليخلعها في المساء ، عندما يتلبد وجه السماء او عندما يتضارب ذلك مع المصلحة الخاصة . وكل هذا طبعا راجع الى عــــدم وجود رؤية ثورية حقيقية يستطيع الاديب بواسطتها أن يتمثل الواقع لدراسته دراسة اجتماعية ـ فنية وتجاوزه نحو رحاب أكثر اشراقا .

يقول أحد هؤلاء، بنظرة ما تزال تعاني من ألم « المراهقة النقدية » ، في أحـد أعداد « الجمهورية » : « انـي أرفض الكتابة بطريقة تجعل الناس يقولون لي : لم لا تكتب ما يفهم ؟ اننا نكتب لعامة القراء من معلمين وطلاب وقراء آخرين يفترض في معظمهم البسطة في الثقـافة .. فلا يجوز أن نترك الجمهور ونكتب لغير الجمهور ... » .

والحق ان هذا الطرح الساذج هو تصور بدائـــي لعلاقـــة الاديب ـ روائيا كان أو شاعرا أو غيرهما ـ بالجمهور الذي تكتب من أجله . وهـــذه بطبيعة الحال علاقة ميكانيكية كما يطرحها أي انسان بسيط .

يسير هذا موازيا للكتابة الروائية (عند صاحبنا) التي تزعم « الجماهيرية » في الوقت الذي تقضـي جل وقتها في البحث فوق مساحات الاوراق على « قنابل » لغوية و « رقصات » لفظية لا يفهمها الا صاحبهـا ومـن حذا حذوه .

واذا كنا أكثر واقعية ، فمـن الجائز أن نطرح السؤال الذي يفرض نفسه علينا بشكل رهيب : ما الفائدة من الكتابة في قضايا لا نؤمن ولا نستطيع أن نؤمن بها ؟ ان الكتابة معاناة وليست كلاما رخيصا . الكتابة انتمـاء حقيقي وليست جواز سفر يسمح بواسطته الجولان في دهاليز الايديولوجيات . الكتــــابة معايشة يومية لآلام العامل والفلاح وغيرهما ، يتمثلها الاديب الفذ ، بشكل رفيع ـ فني . ومن هنا ، واذا آمنا أن الكتابة جــزء أساسي داخل البنية الفوقية ، زيادة على عملية التثقيف والتوعية والمساعدة على حضور اللوحة الخفية من الواقع واشكالاته وتناقضاته .. يمكــن أن تخلق « أذواق » و « أجواء » جمالية اشتراكية في ذهنية العامل والفلاح والموظف البسيط وغيرهم .

ان العلاقة بين الاديب و « الجمهور » الذي يكتب من أجله ، لن تكون الا على هذا الاساس . وهذه قضية يبدو انها أخذت حقها في النـــدوة التي أعددناها في مجلة الثقافة العربية الليبية (العدد الاول ـ شهر يناير ١٩٧٨) ، ولا أريد الوقوف عندها كثيرا حتى لا نكـرر أنفسنا من جديد .

واذا دخلنا دهليزا جديدا ، وحاولنا الاجابة عـلى القضية الثانية ، فهذا سيأخذ منا الوقت الكثير ، ومكانه بحث خاص ، ولكننا سنحاول ابـداء بعض الملاحظـات وبعض الانطباعات .

فقضية الشكل والمضمون قضيـــة معقدة جدا . فهي تتطلب أول ما تتطلب تمثل الواقع جيدا . وبديهي ان من المستحيل ايجاد أدب فيه الشكل بدون المضمون أو العكس ، وتغليب واحد منهما عـــلى الآخر يعكس بالضرورة وجهة فكرية معينة تعكس بدورها انتماء فكريا معينا ، وهذه قضية معروفة لا تحتاج الى نقاش كبير . فلا نستطيع الكتابة عن موضوع راق بشكل « مهترىء » . ولنتفق منذ البداية ان الشكل لا يعني أبدا التقعر اللغوي والالفاظ الرنانة الجوفاء التي تغطي وراءها مضمونا لـم يهضمه صاحبه بالقدر الكافي ، فكانت بذلك « الكلمات البهلوانية » هي أفضل رداء يلبسه الاديب (المزعوم) على عمله حتى يظهر جديدا وحتى تغطى فيه جوانب النقص. وهذه الظاهرة موجودة في القصـــة الجزائرية بشكل واضح . فالشكل يتطلب من صاحبه وعيا اجتماعيـــا وفنيا . فالصورة الفنية الراقية لا تأتي الا بايعاز مـــن مضمون راق يملي عليها كل تحولاتها وجمالها ورونقها . وهذا ما يدفعنا الى الايمان بأن الشكل ما هو الا افـراز للمضمون ، وبمعنى أدق : الشكـل لا يتحدر الا بتحدر المضمون . ومن هنا تظهر العلاقة الجدلية بينهما . وهذه طبعا مجرد ملاحظات يمكــن تعميقها في مجال آخر . والسؤال الشرعي : كيف تطرح هذه القضايا في الرواية العربية في الجزائر ؟ وهذا ما تركته عمدا للاجابة عنـه في السؤال الخاص باتجاهات الرواية الجزائرية (المكتوبة بالعربيـة) .

نستطيع أن نقسم اتجاهات الرواية الجزائرية الـى ثلاثة تكاد تكون متناقضة متباينة عن بعضها : اتجـــاه تقليدي يطرح أعماله من خـلال رؤى ضيقة مستهلكة ، واتجاه وسط يجمع بين التقليد والحداثة ، واتجاه ثالث يمتلك بين يديه الواقع وتناقضاته ، واضح الرؤية وربما هو أكثر الاتجاهات اتساعا ، لانه الاتجاه الوحيد الـذي يجد فيه الادباء التقدميون أنفسهم .

فامـــا الشق الاول فيمكــن أن نضع فيه بعض الروايات ، ولا أجد أفضل مـن ثنائية الدكتور مرتـاض « نار ونور » و « دماء ودموع » . روايتان تتمثلان الواقع بشكل ميكانيكي ، وتشريح بسيط لهما يضـع هاتين الروايتين في خانتهما الحقيقية .

تحاول « نار ونور » التي طبعت في مصر و « دماء ودموع » التي تكلفت بنشر أجزائها جريدة «الجمهورية» ايجاد علاقة متينـــــة بين زمنين مختلفين في الظاهر وليسا في الحقيقة الا حلقة واحدة من التطور التاريخي. لكن الدكتور مرتاض يفشل في ذلك ، فالموضوع المركزي للروايات التاريخية فـــي الادب الجزائري ـ أو الآداب العالمية بصفة عامة ـ يتألف بالطبع من تصوير الحركات والاحداث التاريخية المرتبطة بثـورات العمال والفلاحين ونضال الجماهير الشعبية مـــن أجل الحرية الاجتماعية والوطنية ، وهذا لا يتأتى الا بهضم الواقـع هضما جيدا ومعايشته عن قرب . فهل حدث هذا لدى اديبنا ؟

ان الروايتين تركـــــزان الاضواء عـلى أشخاص لا يربطهم وازع موضوعي ، يتحركون بشكل ميكانيكي ، يتلقون الوعي طفرة واحدة . وقد حذر لينين من هـــذه الظواهر التي لها مقابلها في الواقع الاجتماعي ، كما حذر بشكل جدي من كل تصور مبسط لتكوّن الوعي الجماعي. منتقدا بصورة لا تقل شدة عن ذلك ، المترددين الذيـن يشكون في امكـــان خلق ثقافة جديدة : « لقد كـــان الاشتراكيون الطوباويون القدامى يتصورون ان بالامكان بناء الاشتراكية بواسطة أناس آخرين وانهـم سيكونون أولا بشرا طيبين كـــل الطيبة ، أنقياء كـــل النقاوة ، متعلمين بصورة مدهشة ، بفضلهم سيبنون الاشتراكية. وسخرنا من هذه الافكار ، اذ لم تكن نرى فيها ســـوى هزلية لمسرح عرائس الكاراكوز » .

أما التشكي ، وثـــورة الطبقة العاملة داخـــل الروايتين ، فقـــد طرحت بشكل بدائي بسيط جـــدا . لا يتماشى والتعقيـــد الموجود اجتماعيا . فالقيمـــة الاخلاقية للطبقة العاملة لا تتأتى من كونها اكثر الطبقات استغلالا وأكثرها عذابا بل من وضعها الطبقي الذي لن تستطيع أن تتحرر منـــــه الا بتحطيم شامل للماكنـــة الرأسمالية التي تتلف الانسان ، أي لا تتأتى قيمتهـــــا الاخلاقية من الالم والبؤس والشقاء بل من النضـــالات التي تهدف الى الاطاحـــة بالاستغلال وتحقيق العـــالم الاكثر عدالة .

فبانتصار الطبقة العامـــلة يتحقق لكل انســـان مختلف الوسائل التي من شأنها تطوير الارث الانساني الذي يحمله وتواجد الظروف المادية والاخلاقية لانسانية حقيقية ، ومن هنـــا كان النحيب والبكـــاء والتشكي الرومانسي مع الاعتماد على المفردات « الثقيلة » قـــد أضاع من يد الدكتور مرتاض كتابة رواية جيدة .

فالفن ـ وهذا ما غرق فيه الدكتور مرتاض فـــي ثنائيته ـ لا يقتصر على مجرد اعادة انتاج مظهر الواقـع وليس هدفه الوحيد اعتبار ابداعاته هو ذاته بمثابة نظائر مماثلة للواقع تماما ، ولا ينبغي أن يخلط ما بين أعمـــاله وأشياء العالم الخارجي ، اذ ان عمل الفن يقتصر عـــلى أن يدرج في ابداعاته الانطباعات والصور المولدة مـــن الواقع . والفـــن يعكس كـــذلك عالم الانسان الداخلي الحميم وشخصيته وتجاربه وعلاقته بالعالم الخارجي . والفن هو التعبير الفريد عن نشاط الانسان . نشـــاطه الفكري والروحي الخلاق ، ومع هذا فهو يملك استقلالا بالنسبة للواقع وذلك مع شدة ارتبـــــاطه به . وهذه الجدلية المتعددة الجوانب والفنية بعلاقات الفن بالواقع قد أشار اليها الكثير .

ومرتاض بهذا المعنى لم يكن واقعيـــا رغم زعمه ، بل كان « طوباويا » . غارقا في همـــــوم رومانسية ، بتصويره لما هو شكلـــي وخارجي . فالفنـــان الواقعي يحسن أن يرى وراء وقائع الحيـــاة اليومية وظاهراتها اللوحة العامة للحركة وصراع مختلف القوى الاجتماعية.

واذا كـــــان الدكتور مرتاض الوجـــه النموذجي للوجـــه الاول . قد استطــــاع بفن غير واقعي أن يخلق طبائع . فقد ظل عاجزا أن يجعلهـــا نموذجية . عـــاجزة عـــن الخلود والبقاء نظرا لكونها شخصيات وطبائع ذات ميزات سطحية جـــدا . فالابطال لديه ـ كما أشرنـــا سابقا ـ في روايتيه « نار ونور » و « دماء ودموع » . عبارة عن شخصيات ميكانيكية او « روبوات » تتحـرك بأزرار داخل المســـاحة المسيجة « بقنابل » و « ألغام » الالفاظ . التي يصطادها أديبنا مـــن المجلدات والمصادر المنزرقة في القدم . فهـــذا الثنائي (البطل ـ اللغة) المستعمل بطريقة ميكانيكية . وضعهما مرتاض عن قصد او عن غير قصد خارج حركـــة التاريخ وخارج الزمن . فوجدان الابطـــال وفكرهم وجوهرهم وأخيرا نفسيتهم انصفت جميعها بالهامشية واللازمنية . واضفاء نوع من الطباع المنغلقة في قالب لغوي متخلف للابطال انما هو شيء مميز بدقة للانحطاط الفكري ، خصوصا عندمـــا تكـــــون « ظاهرة » الحب ـ وما أكثر ما تظهر داخل « الثنائية الروائية » ـ عبارة عن هوس ميطافيزي بعيدا عن أن تكون علاقة انسانية مبنية على أسس موضوعيـــة يكون النضال وتغيير الاوضاع على راسها .

وتصوير ساذج كهذا لقضية الحب ، يدفعنا الـــى العيش بمواجهة أبطال خارجين مـــــن كهوف القرون الوسطى (الابطال ـ الاسطورة) . فجميـــع أشخاص « نار ونور » أو « دماء ودمـــوع » متميزون باستسلام مميت رغم انهم قادرون على القيام بنشاط كبير . انهم يعيشون في جو من الرتابة .

أما الاتجاه الثاني ـ وهو بأتم معنى الكلمة لا يمثل اتجاها واضحا ، اذ انه لا يملك رؤية جد واضحة يواجه بها التغييرات الاجتماعية التي في كثير مـــن الاحيان تتجاوزه ويحدث أن يسايرها ـ رجله اليمنى حبيســـة مخلفات الماضي بكـــل تناقضاتها ، ورجله اليسرى في الحاضر بكل جديته ومزاياه ونقائصه . وهو اتجاه اكثر

تقدما من الاول وان كان لا يملك رؤية جد واضحة بأدق معنى الكلمة والتي تسمح له بتجاوز الحاضر نحو آفاق مستقبلية ؛ ولعل المدى التاريخي والاحداث ، هو الذي يجعل هذا الاتجاه يأخذ موقعه الحقيقي ، اما الاول واما الثالث ، اما مع أو ضد ، أي عدم قبض العصا من الوسط . « و « ريح الجنوب » و « نهاية الاحسن » للاستاذ ابن هدوفة خير ما يوضع داخل هذه الخانة .

قلت ان التجربة والمحك التاريخي هما الطريق الوحيد لتحديد دقيق لهذا الاتجاه ... ويبدو ان ابن هدوفة يتجه نحو الاتجاه الثالث اكثر من الاول . فقد استطاع برؤية تتأرجح بين الغموض والوضوح ، وبكفاية فنية لا بأس بها ، أن يصور العلاقات الاجتماعية السائدة والحياة والمنازعات والتناقضات . لكن كل هذا ظل مؤطرا لم يُتجاوز ، رغم ما يبدو على ابن هدوفة من انه يمتلك جميع محسنات التناغم والانسجام وكل جمالات الاكتمال ، لكنها ظلت معدودة .

واما الاتجاه الثالث والاخير ، فهو أكثر الاتجاهات اتساعا ، ويمكن أن يلعب دوره كاملا في المستقبل ، اذ انه يمتلك الرؤية الواضحة الثاقبة التي تسمح له بتمثل الواقع الجزائري جيدا ودراسته بكل تناقضاته . يحاول أصحابه على وجه العموم ـ رغم الاختلافات البسيطة بينهم ـ أن يخلقوا عملا ابداعيا يحمل بين طياته هموم العامل والفلاح مع تصور موضوعي لفد أفضل كنتيجة للصراعات التي تقودها هذه الطبقة الاكثر انسحاقا واستغلالا . ورواية « الزلزال » للطاهر وطار ـ رغم ما قيل فيها وما يمكن أن يقال ـ رسمت ذلك بدقة متناهية وبنجاح كبير . وقد حاولوا أن يعيدوا تقسيم الثورة واثارة الجوانب التي لم تعرف الشمس بعد ، مثل رواية « اللاز » للكاتب نفسه .

والطاهر وطار من « اللاز » الى « الزلزال » ومرورا ب « القصر والحوات » و « عرس بغل » ظل يرسم الخط البياني والفارق الشاسع بين الاتجاه الاول والثالث ، فى محاولة لانتقال الرواية العربية في الجزائر من التابوت اللغوي والتركيب اللفظي اللذين يغطيان المضمون .

ولقد أتاحت له رؤيته الواضحة ومنهجه الابداعي أن يتخلص من المفاهيم الوهمية أو الخاطئة المتعلقة بالحياة والمجتمع ؛ فهو عندما يصور الواقع الذي هو في تطور وصيرورة بنزاعاته المتصلة بمصير ومصالح الملايين من البشر انما يعتمد على مكتسبات الفكر الاجتماعي المتقدم الذي يسهم في تغيير العالم ويساعد البشر على تغيير العلاقات الاجتماعية . وهذا أمر طبيعي ، لان تقدم الانسان العقلي لا يقتصر فقط على مراكمة الوقائع والمعلومات الجديدة عن العالم ؛ ذلك ان معناه الحقيقي يقوم فيما يختص بالانسان ، على اعداد تصورات عن الكون والمجتمع عنه هو .

وبهذا المعنى تبقى روايات الطاهر وطار بمثابة الفن « الشعبي » المتحرر من الاستغلال والمدرك لعمله التاريخي ، فهي شعبية لانها ثورة في الاساس ، اذ ان التطور الاجتماعي في تصورها يهدف الى ادراك المجتمع الاكثر عدالة المنسجم الخالي من الطبقات . وهذا المثل الاعلى الاجتماعي ـ السياسي الذي ترمي اليه روايات وطار ينطوي على مفهومه الواضح للانسان وقدراته التغييرية . فهو بدراسته للواقع الدائم التطور والتحول وتحليله العلاقات الاجتماعية ، قد صاغ لوحة صادقة لحياة عصره الخاصة والاجتماعية . وذلك لان الطبيعة ذاتها لطريقة الابداع الواقعية التي تستلزم معرفة فعالة للعالم ـ كما أشرنا مرارا ـ قادت وطار وقادت هذا الاتجاه الى نجاحات عظيمة وأتاحت للفنانين تصوير المنازعات الاساسية الجوهرية في عصرهم ، هذه المنازعات التي تحدد العالم الداخلي لابطالهم وأفكارهم وسلوكهم .

وما يدعو الى التفاؤل أكثر بمستقبل الرواية خاصة والادب الجزائري عامة هو اتجاه معظم الادباء الشباب نحو هذا التيار ، ك مرزاق بقطاش واسماعيل عموقات والحبيب السائح وعمار بلحسن ورزاقي وحمدي وزينب الاعوج ونمسي سعيد .

وبعد ، فان هذه تأملات ليس الا ، وأتمنى أن أكون قد أثرت فيها « نبرات » أو « نقاطا » كانت في الظل وهي جديرة بمجادلات وأبحاث مطولة .

الاعرج واسيني

هوامش

روايات :

- اللاز ، الزلزال ، القصر والحوات ، عرس البغل : للطاهر وطار .
- ريح الجنوب ، نهاية الامس : عبد الحميد بن هدوقة .
- طيور في الظهيرة : مرزاق بقطاش (آمال) .
- حورية : عبد المجيد عبد العزيز .
- نار ونور ، دماء ودموع : للدكتور مرتاض .
- وغيرها من الروايات التي نشرت بمجلة « آمال » والتي لم ترق حتى تصبح رواية بمعنى الكلمة (حب ام شرف للشناتلية ، وعلى الدرب للصادق حجي) .

دراسات :

- المصائر التاريخية للواقعية : بوريس بورسوف .
- دراسات في الواقعية الاوروبية : جورج لوكاتش ـ ترجمة أمير اسكندر .
- أسس علم الجمال الماركسي ـ اللينيني (جزءان) تعريب يوسف حلاق وعدنان جاموس .
- الفنون والثورة : برتولد بريخت .
- الواقعية الاشتراكية : ي. غروموف .
- ضرورة الفن : ارنست فيشر .



الصخرة السلفية

مولود عاشور

فات الاوان ! كم من مرة كررت شفتاي هذا ؟ لم يصعب عليّ — في هذه المرة — أن أركب الحافلة في الوقت المحدد . امتنعت عمدا . لا ، لم تكن الشيخوخة هي السبب ولا الكسل أيضا . كنت لا أزال شابا ، لم أتصرف بارادة فقط . أنا سجين نفسي . حكم عليّ هذا الوجود الذي كنت ابغضه وأنفر منه . ولكن ذكريات الحياة الاخرى — الحياة الماضية — كانت تخيفني أكثر ، حتى ان الوجوه التي كنت أعزّها تلاشت من ذاكرتي المحاطة بمرارة كل ما عشته هناك .. بهذه اللعنة التي تطاردني الى الآن .

— صاحبتك (دعوة الخير) ، حتى ولو أعلم ان عينيّ المستهلكتين لن ترياك أبدا .

بدون شك ، لم يكن يفكر في شيء . كان أبي وكنت الاول — من اخوتي الخمسة — الذي أتركه . ولا زالت باقية في نفسي هذه الجملة التي سمعتها منه وأنا أجتاز عتبة باب المنزل حيث أصبحت لا أصلح . ولكنها لعنة أحتفظ بها .. انها تضايقني باستمرار .

والآن ؟ ها أنذا كالغصن الحقير في فرع بال ، والنسغ لا يسيلَ الا عليّ .. ولكنه نسغ متعفن ، متهرىء .. يقتلني ببطء .

* * *

كانوا ثلاثة أشخاص داخل سيارة صغيرة يكسوها الغبار وهي تصعد الدرب الابيض من أشعة الشمس . اثنان منهم كانا بسن الشباب ، أحدهما يقود بحذر ، والآخر جالس في المقعد الاخير ، وقد جاء — فقط — ليتمتع مجانا بتلك النزهة . اما الشخص الثالث فكان جالسا الى الخلف وقد ظهر اهتمامه الحقيقي بالسفر الذي تم من أجله .. نظراته الغريبة ، سكوته ، واعجابه بما كان يحيط به — كل ذلك يؤكد انه لم يكن يرى في ذلك مجرد زيارة للريف ، وكانت فكرة التسلية والتمتع غائبة في بحر تلك النظرة التأملية التقديسية التي ابعدته عن رفاقه منذ ان غادرت السيارة الطريق المعبد لتأخذ هذا المسلك الوعر . لم يكن يستهويه جمال الطبيعة الا عند حدود تخيله — على أثرها — لاعادة تشكيل حياة ماضية .. كانت حياة له لوحده .

بدا الاثنان الآخران بعيدين عنه وهما يتحدثان عن أشياء أخرى . كان تفكيره يعلو كل الاحساسات بعيدا عن الطريق المزروعة بالحفر ، وغبارها الخانق ، وعن صوت المحرك المزعج وقد صعب عليه صعود الربوة .. ولم يفلت من عالم ذكرياته الرهيب الا جسده . هذا الثقل المتعب . بقي ملتصقا بكل وزنه الى المقعد ، يتحرك في صعود وهبوط وفق هزات السيارة . وراء زجاج نظاراته الغليظة كانت عيناه ثابتتين ونظرته التائهة مصوبة نحو عالم لم يكن يبصره سواه .

ظهر على وجهه أثر أعوام عاشها مليئة بالحيوية ، وبدا شكله قاسيا . تتجلى ملامح الشيخوخة واضحة في التجاعيد البارزة عند أطراف عينيه كلما ترمشت . ولكن حيويته تجعل من يراه يتساءل عن صحة سنه . اما شعر رأسه ، فقد بدأ يشيب عند الصدغين والرقبة .. تقلّ الشعيرات البيضاء عند اكليل رأسه لتفسح مجالا لجبين أحد المفكرين . بعفوية متكررة ، يعيد بيده السيجارة الى شفتيه .. يشعلها كلما انطفأت بالدقة نفسها والحركة الغائبة نفسها . وفي كل مرة ، لا يحسّ الاثنان الآخران بوجوده الا عندما يحدث صوتا بجهازه الغازي ليشعل سيجارة .

كان ذا قامة طويلة . يحرك بصعوبة رجليه المنطويتين في ذلك الحيز الضيق . لباسه كان نظيفا وبلا أدنى أناقة . وبذلك تتم أوهام فترة الشباب التي ضيعها منذ عهد قديم .

— أظن ان الطريق من هنا ، لم تبق لنا الا مسافة قصيرة .

كيف له أن يعرف ذلك وقد اعترف انه لم يطأ تلك الجهات منذ دهر ؟ ودون اي تفسير انغمس في العدم الذي تركه لبرهة وهو يرى ملتقى طريقين . سحب ملاحظته باشارة من يده .. في الحقيقة ، لم يكن يعلم شيئا . تفطن لحدس سري ينبئه بطريق العودة ، لانه عندما ذهب لم تكن الطريق موجودة .. وقد التحق

بالطريق الوطني – آنذاك – عبر الدروب الجبلية ، ميدان الدواب والبغال .

حين تابع السائق الطريق متشبثا بمقوده ومطمئنا لهذا الانسان الغريب ، ترك الشيخ العنان لرؤيته – من خلال النافذة – ليتأمل الخيط الابيض من واد جفت مجاريه .

الطريق ملتوية ، تتخللها منعرجات لا تحصى ، وتبدو مشرفة على قرية تسيطر على الوادي .. ها هو القرميد الاحمر ينتشر في شكل مثلثات مضعفة .

على جوانب القرية ، تواجدت حقول ونباتات خضراء وقد زادتها كثافة واخضرارا أشجار البلوط الكثيرة . اما الديار فكانت متماسكة ، متقاربة ، وكأنها تتأهب لمواجهة الغابة المهددة ... لم تكن الا خاطرة .

بعيدا ، أخذ الطريق يغيب عن الاعين تحت ضباب الغبار المتصاعد . ومن حين لآخر تظهر اشعاعات سريعة كان يحدثها انعكاس الشمس على احدى السيارات .. اذن كانت السيارات موجودة في تلك الناحية !

يقطع الشيخ – في هذه اللحظة – تأملاته ليبتعد قليلا عنها ، ويشير للسائق ان هناك خللا في السيارة .

بالفعل ، كان السائق « حسين » يعرف تكاليف السيارة ، ولم يكن يبتعد في اسفاره . ثم انه ليس من السهل المغامرة في هذه الطرق الوعرة .

كان يفكر في مرآب تصليح السيارات .. غلاء القطع .. كان خائفا في هذه المرة من تمزيق عجلة أو فقد أحد النوابض ، ولذا كان يقود بانتباه شديد متفاديا كل الاخطار بالقبضة المحكمة على المقود .

– سيارة من نوع (جيب) هي أصلح لهذه الطريق .

كان يكرر ذلك باستمرار في حين ان الشيخ – بجانبه – كان يحاول التخفيف من تفكيره وحيرته .

– لم تبق الا مسافة قصيرة ، أنظر هناك ! القرية تقترب .

– نعم ، ولكن الرجوع ...

لم يسمعه الآخر . كان موقفا معاكسا الى حد ما ، غير ان الشاب تظاهر بعدم الاكتراث لكي لا يزعج الشيخ ، كان من جيرانه ويعرف عنه ما يجعله يغفر له هذا الغياب .

لقد سمع « حسين » حكاية هذا الرجل الطويلة . وفي ذلك اليوم قرر أن يجعل سيارته في خدمة هذا الشيخ من أجل هذا السفر الطويل . الحكاية – في حد ذاتها – كانت تافهة . رجل متعب ، يترك والديه غير راض بحياة أجداده . يهاجر .. غير انه لم يكن كبقية المهاجرين من تلك الجبال ، لم يتخذ طرقهم نفسها في اكتساب عيشه . أكثر من ثلاثين سنة في اوروبا ، ثم يعود الرجل لبلاده ، لا لقريته التي لم يسمع عنها شيئا !

ولكن في أعماق هذه الوضعية التافهة التي لم تكن الا ثمرة الظروف المبالغة في حكمها ، تستشف الأصالة الحقيقية من حياة العربي – هذا هو اسمه – المأساة التي ميزته ، مأساة الوحدانية عند انسان تيقن من استحالة العيش وحيدا .

كانت له زوجة ، وأولاد كثيرون أحبهم . وذات صباح وجد نفسه وحيدا . الزوجة المخلصة منذ ثلاثين سنة لم تعد ترى ضرورة العيش مع رجل اختار الرجوع – معها هي – الى وطنه الحقيقي .

أما الابناء ، فكانوا ممزقين بين دم الاب ودم الأم . دمان مختلفان يسريان في عروقهم . ولكنهم كانوا كبارا . قادرين على التفكير فاختاروا أن يطيروا الى لا رجعة . فعلوا ذلك تاركين الشيخ وحيدا مهجورا . وآنئذ بدأ يرى الجزيرة من بعيد .

« عودة الابن الضال » . ابتسم « حسين » لهذه العبارة وهو ينصت بتمعن . شيخ كهذا يطلق على نفسه هذه التسمية بعد غياب أربعين سنة .. انه شيء مضحك . غير ان وراء ابتسامة الشاب يكمن احساس عظيم بالشفقة نحو هذا الشيخ الذي فقد الكل وهو يظن انه يستغني بسهولة عن القطيع .. حدق فيه طويلا .. لم يكن يرى بدا للمرح ، فغيّر العربي من طبيعة كلامه وغمرت حديثه مرارة زادته صدقا وحدّة .

لقد حدثت أشياء وأشياء طوال هذه المدة .. شكّ في حقيقة الميناء التي لجأ اليها الشيخ عند شدة الضيق .. ولكنه مع كل هذا ، تقبل أن يرجع .

تقترب السيارة شيئا فشيئا . ويحسّ العربي في داخله توترا متصاعدا . سوف يصل بعد قليل والله أعلم بمن سوف ينتظره في هذا المكان الذي بدا له – بغتة – معاديا .. لقد كانت هذه العودة القاسية ثمن السنين التي نسي أثناءها الارض .. أي استقبال كان يمكن أن ينتظره في مكان قد غيرته الظروف بلا شك ؟

استطاع الآن أن يتعرف على بعض المواقع التي كانت مسرحا عرضت فيه لقطات طفولته .. أسماء ، وأماكن بدأت ترجع لذاكرته . بدأت حافتا الطريق تتضحان .. أخذت النباتات تنقص كلما اقتربوا من الحي . على الجانب الايمن تطل ثمرات في شكل حبات سوداء من عناقيد العليق ، وكانت النظرة تشق طريقها عبر حقول الكروم وأشجار الكرز . وعلى الجانب الايسر ، تواجدت أسلاك حديدية على امتداد الطريق حاجزة بعض الاراضي المزروعة ، وقد قصدها الفلاحون رغم تفرد الحرارة في ذلك اليوم . كانت كل النواحي جرداء ، وكلما مرت السيارة بأحد المشاة حيّا باشارة عفوية تنطق بصدق الاحترام للزائر الغريب .. وكلما مر أحد وغاب داخل الغبار المتصاعد حاول العربي – دون جدوى – أن يضبط اسما معينا .. لقد كان من الممكن أن يتعرف على الذين هم في مثل سنه . مرّ ثلاثة شيوخ ولم

تتمكن ذاكرته من استرجاع أي اسم .. وبدأ يفقد الامل .

عند أحد المنعطفات ، كادت السيارة تصطدم بحمار . وكان الطفل الراكب على ظهره يحاول اقتطاف الحبات السوداء من الشجرة الشائكة ، فقفز خفيفا وسقط على رجليه سالما .. ثم اكتفى باشارة غاضبة من يده الى السائق تعبيرا عن رغبة الثأر منه رغم قامته التي جعلت المنظر مضحكا . ابتسم « حسين » لذلك ، وعلق الشيخ :

ــ انها وسيلة جيدة لاقتطاف هذه الثمرات ، اليس كذلك ؟

ــ بدون شك ، كنتم تفعلون هذا في مثل هذه السن ؟

ــ نعم . وما زلت أحمل علامة جرح في الركبة . ولكن لو ذقت طعم هذه الحبات « الوحشية » فانك لن تلومني على ذلك ، انها حقيقة لذيذة .

كيف تمكن أن يستعيد طعم هذه الثمرات الصغيرة السوداء وهو الذي لم يتذوقها منذ عهد طويل ؟

وتدخل الجالس الى الخلف الذي لم يتكلم قط .

ــ انك تمزح . مع هذا الغبار لن تكون هذه الحبات الا متعفنة ...

ــ الشيء الذي ارفضه عندكم أنتم الشباب هو جانبكم المدني . انكم تحملون المدينة في عروقكم ، ولا أحد يمكن أن يغير أذواقكم المعادية لجمال الوجود الريفي .

توالت كثير من الاعتبارات في شكل نكت ذكية . تحدث العربي عن أيام طفولته في هذه الامكنة حيث يأتيه كل منعطف بسيل من الذكريات .

وتيقن «حسين» اثر ذلك من مبدأ «البسيكولوجيا» القائلة عن ذاكرة الرجل المسن انه يسترجع الاحداث البعيدة ويبقى الضباب مسيطرا على الماضي القريب .

* * *

قبل الوصول الى منازل القرية ، تخترق الطريق المقبرة .. قبور كثيرة مترامية هنا وهناك .. البعض منها جديد يغطيه الرخام الساطع المذهب وبعضها قديمة اصبحت سطوحا مثلثة عليها أحجار متآكلة .

من قبل ، كان الطريق يمر بعيدا عن المقبرة ، وذات مرة أتت جرافة وشقت طريقا وسط القبور . بعد ذلك وجد الناس عظام الاجداد متناثرة فدفنوها في التراب داخل حفرة مشتركة .. لم يعترض أحد ، ذلك لان مرور هذه الجرافة لم يكن الا تمهيدا لاحداث اكثر قساوة وعنفا .

لم يكن العربي يدري كل ذلك . ولذا قرر ان يبدأ زيارته بالمقبرة يقينا منه انه لن يجد ضمن الاحياء عددا من الشاهدين على حياته في تلك البقاع .

في وسط القبور الاخرى من الجهة العليا تراءى له مربع بقبور مصطفة تبدو حديثة العهد وقد توسطها نصب هرمي الشكل .. في الاوجه الاربعة من الهرم أثبتت لوحات من الرخام عليها قائمتان طويلتان مكتوبتان بحروف ذهبية . لاحظ العربي ذلك في كل الجهات ولكنه صمم أن يبدأ بحثه من ذلك الهرم .

لم يجد قبور اخوته الاربعة ضمن المربع ، ولكن الاسماء كانت موجودة الواحد تحت الآخر مع تحديد الاعمار المختلفة . لاحظ « حسين » ــ الذي صاحب الشيخ ــ ان اضطرابا يعلو ملامح العربي ويطفى على وجهه النحيل .. عيناه الصافيتان تبرقان عبر النظارات .. هو كذلك قرأ الاسماء . كان اسم الشيخ العائلي يعود مرارا وكأن القرية كلها من عائلة واحدة .

وتكلم العربي :

ــ ان جد جدي هو الذي أنشأ هذه القرية، وعائلتي هي التي سقطت دفاعا عنها لكي تبقى الصخرة التي وضعها ثم تحيط بها هذه المنازل ويكون لها معناها الحقيقي .

بعدها ، سمعه « حسين » وكأنه يحدث نفسه « المعز المجراب » .. ثم كلمات بدون تتمة . وقبل أن يغادر مربع الخلود بكتفيه المنحنيتين أكثر من أي وقت مضى ، فهم الشاب « حسين » ضرورة تركه وحده .

جال العربي كل مساحة المقبرة ، ولم يجد قبر أبيه بسبب الطريق التي جرفت كل شيء . ولم يستطع كذلك أن يعثر على قبر أمه الذي ما زال يتذكره جيدا بعد أن رآه يوم حفروه .. ورغم جهده عجز عن التذكر .

لقد غادر القرية بعد بضعة أسابيع من موت أمه . ماذا كان له أن يفعل غير ذلك ؟ بعد أن رأى امرأة غريبة تحتل المكان حاكمة وشبح أمه لم ينمح بعد ، لم يتحمل ذلك .. اخوانه الآخرون كانوا صغارا وشقيقاته قد تزوجن . وهكذا اختار الهروب وقد تجاوزت الظروف السبب الرئيسي .. سمح لنفسه أن يحكم على أبيه وجعل من نفسه منفيا . وبحجة المنفى المتعمد داس كل المبادىء والقيم التي ضبطت وجود ذويه منذ العهود الغابرة .

أعاد التفكير في كل ذلك .. حاول ــ وهو في المقبرة ــ أن يربط بين الذكريات القديمة والقريبة العهد .. وظهر له في موازاة كل من زواج أبيه المتسرع وزواجه هو بامرأة اجنبية ...

عندما رجع الى السيارة ، أحسّ رفاقه بتأثره اثر هذا الاتصال الاول بجذوره . وكان الشيء المجهول لديهم هو القرار النهائي الذي اتخذه مع نفسه .. لا ! لن يأتي للبحث عن معتقل لايامه الماضية .. انه ــ فقط ــ في انتقال من معتقل الى آخر .

* * *

انحدرت المرأة العجوز مع طريق ضيق يأتي من قلب القرية لينتهي الى الساحة الصغيرة عند المدخل . كانت متجهة الى العين مع انتعاش الصباح ، تحمل على ظهرها جرة طينية طويلة ، تحيط بشكلها الدائري الوان متراكمة عديدة ، وحزام غليظ جعل خصيصا لحملها .

بيدها اليمنى كانت تمسك دلوا أزرق من مادة البلاستيك . سوف تنقل الدلو — عند العودة — من يد الى أخرى باستمرار لانه أصعب من حمل الجرة ، وتبقى غريبة كل مقارنة بين حالة ضعف هذه المرأة والعبء الذي تحملته . وكلما اقتربت ، برزت صفات ملابسها ذات الالوان الشاحبة والتي كانت — دون شك — زاهرة من قبل .. « الفوطة » المزركشة كانت من الكتان الخشن يظهر من تحتها الفستان الطويل الممتد حتى الكعبين . أما الصدار الواسع فكان مكسوا بالدانتيلا ، ويغطي رأسها منديل أسود تطل منه خصلات شعر مصبوغ بالحنة وقد كسا جذورها الشيب .

كانت حافية الرجلين ، غير ان جلدها الصلب يتحمل الاشواك أكثر من بعض النعال الجلدية .

ذلك هو نوع الازياء المنتشرة في الناحية تقريبا مع بعض التعديلات الضرورية وفق سن المرأة التي تحمله .. فكر العربي — مع نفسه — ان الحياة هنا لم تتغير حقيقة في شيء .

بدأت المرأة تقترب . من هذا الواقف قرب الصخرة ؟ وهل يتحتم عليها اليوم أن تتخلى عن فعل عاودته طوال حياتها . وهو أن تضع كفها المفتوحة على الصخرة السلفية ثم تعيدها الى شفتيها لتضع عليها قبلة حارة ؟

يحكى ان مؤسس هذه القرية أتى بصخرة « الشيسست » عمدا من عند أجداده أهل (أوزباك) ووضعها في ذلك المكان لكي يتكاثر نسبه . بنيت المنازل الاولى لتشكل القرية ثم نصبت تلك الصخرة لتكون رمزا وتمثالا .

.. وكان يحكى انها تجلب اليها أولادها الذين يغيبون طويلا عن القرية .

كانت « كولة » تؤمن من غير تحفظ بكل ما يحكى . ولا تتردد كلما سمحت لها احتياطاتها المالية أن تشتري شمعة : تشعلها وتضعها داخل حفرة في الصخرة لكي تتحقق لها احدى أمنياتها التي شكلت سر حياتها المكتوم أبدا والذي تابعها حتى أواخر خرفها وشيخوختها .

نعم ، لقد آمنت « كولة » — منذ طلاقها — انه سيعود .. انتظرت سنين طويلة لم تعترف لها بحقها ، فقررت أن تنتظر حتى الممات . غاب جمالها وولى ؛ ولكن شبابها بقي داخل قلبها ، خبأته له بحرص شديد غيور .

* * *

كانوا أربعة أمام الصخرة . تظهر اللامبالاة لدى اثنين منهم . كانا شابين يرتديان لباس المدينة . أما الثالث — باللباس نفسه — فيبدو أكبرهم سنا ؛ كان يتحدث مع الحاج ، أحد شيوخ القرية ، متكئا على جانب من الصخرة .

لقد أتوا — دون شك — في السيارة السوداء التي كانت تسطع في سكون الشمس الحارة .

مرت على بعد خطوات .. تأهبت لتحييهم فناداها الحاج :

— كولة ! أنت تعرفين قبر سعدية بنت ال ... هذا ابنها . قد رجع الينا بعد سنين وسنين ويريد أن يرى قبر أمه .

أحست كولة ان قلبها الضعيف يكاد ينهار .. هزة عنيفة حدثت في صدرها زعزعت عظامها القديمة .

هل سمعت جيدا ؟ هذا الرجل الكبير ، بلا شعر .. هو العربي ! تظاهرت — في صعوبة غير خفية — بوجه طلق لتجيب بصوت متلعثم :

— هكذا ! سمعت نداء الصخرة ، كنت واثقة من عودتك . فمرحبا بك اذن .

لا زال العربي يتذكر كولة . هو وجه ابنة عمه الغض ، الفتاة التي خصصوها لتكون زوجته .. شاركها في اللعب أيام الطفولة قبل أن تبدأ الفرار منه كلما التقت به ؛ بذلك كانت تداعبه ليستمر اللعب لانها كانت واثقة انها سوف تكون له في المستقبل .

كولة لم تتغير ، أو لعل كلاهما هرم وتقدم في السن ؟

وبدأ حديث العجوزين .. توجها نحو المقبرة وحديثهما حول العائلة التي انطفأت . شيوخ أموات ، وأطفال قتلى . تحدثا عن الذين عرفاهم والذين ذهبوا في حضورهما .. والذين رأيناهم ذاهبين : هو نحو أربعين سنة من الغياب ، وهي الى زواج فاشل لم يدم . وكان استعراضا مؤثرا ، هذان العجوزان اللذان يحييان معا سنين الشباب .

* * *

التحق الحاج بركنه المظلل قرب الجامع . وتوجهت كولة الى العين وكأنها تركت وراءها شيئا ما . وحين استدارت السيارة الى ساحة القرية في طريق العودة . لم يندهش « حسين » حين توجه اليه « العربي » :

« سوف نعيد هذا السفر يا حسين بعد أسبوع ، ولكن في هذه المرة ، لن أرجع معك » (*) .

ترجمة : عبد القادر ربيع

(*) القصة ماخوذة من مجموعة « الباقي » « Le Survivant » منشورات الشركة الوطنية للنشر والتوزيع (١٩٧١) .



نوتات مصورة من واقع لن يسالم البغي

الادرع الشريف

كانت نوافذ الجزائر التي استيقظت على أفواج الطلبة المتطوعين مشرعة على أبنائها اذ يهبطون مدرجات (بيزيي) الى الحافلات ترسلهم سلامها .

أستقر الى الخلف : أتنفس جو (افريقيا) والتجمع ، وتتبرعم في داخلي رغبات تمد يدها الاخوية الى المتعاون ومعا نعيد تشكيل الريف . ردت الحافلة على المدينة (ثورة الفلاح نادتنا .. زراعية لها تجندنا) وأقلعت تلتهم الطريق الاسفلتي بنهم الذي لم يأكل أبدا ، غير مطمئنة الى ان المسافة ما بين الجزائر والبويرة كافية لاشباع جوعها الفائق .

ما بعد الكيلومتر العشرين .. لا زالت المدينة صورة حية في عقلي ، بناسها ، وسياراتها ، والعمارات، والقاطرات ، والاسلاك ، وأعمدة الكهرباء والتليفون ، وكل الحمولة التي تعج بها نهارات مدينة انتفخت وتأزمت الى حد الاختناق .

الابتسامات ، البحلقات ، الدهشة ، اشارات ذات معان متضادة . تحيات التلاميذ خزرة ذلكم الخنزير القابع وراء مقود سيارته ، لقد انتفخت أوداجه . الاناشيد شكت قلبه ، وحركت شجنا وحقدا أكلبه . أولاد الـ ... يضحكون عليكم .. تطوعوا .. ها منذ أتت ثورتكم الزراعية .. هلكت الفلاحة .. وحجز الخير .

الصور الآن غير الاولى . بلغنا المنطقة الصناعية بروبية ، اختلفت تسميات ، وشارات الشركات الوطنية: تداخل الحرف العربي بالفرنسي ، والاشكال بالالوان .. ينبهر العمال حين تداهمهم الاناشيد ، والاغاني المنبعثة من الحافلة . ثم تنبسط أساريرهم اننا لا نسمع ما يقولونه لكنها تفهم قطعا :

ـ نشد على أياديكم .

وها قد بدأ الريف يطل . أشجار السرو ، والدوم، والصفصاف ، تنحني بايعاز من الريح في حركة ترحيبية ، تفقى بامتداد طولاني للاغصان يمسح برفق فوق الارض الشاغرة والعامرة على طرفي الطريق .

ركن الاغلبية الآن الى الحديث فيما بينهم ؛ أو التفكير ، أو تأمل الخارج . غير ان بث الجوق الفني.. شعبان .. موسى .. سليمة .. ما زال فتيا أروح مع الفناء . كانت الاحرف بشرا من كل الاعمار ، والاجناس، والالوان ؛ متشابكي الايدي كما هو حري بالغابة التشيلية لتصد الصقيع عن الارض والعصافير أيام الشتاء . تستوقفني صليحة قبل ان أنزل الشارع المصري لارى بعيني" شعر وغناء نجم ـ أمام .. وابتداء المسيرة .

ـ انت معهم أم معنا ؟

ـ ماذا تقولين ؟

انتبهت الى اننا قد شارفنا الاخضرية ، قام عناصر مجموعتنا يجمعون الاغراض .

ـ سألتك ان كنت معنا بفرقة البويرة .

أجابها رشيد منسق تطوع الطلبة بالولاية :

ـ عوضناه بمتطوع آخر . أما هو فقد الحق بمجموعة الاخضرية .

ـ العفو ، حسبتك معنا .

قال لها يستثيرها :

ـ ارتاحي حيث أنت .. فرقتهم (درديف) .

فتدخلت :

ـ التوزيع الواقعي للعناصر مسؤوليتكم .

ـ ها تد دخلنا مرحلة المزاح القاسي ..

فانفجرت صليحة هاتفة :

ـ (هاوزعف .. هاوتنوي .. هاوزعف .. هاوتنوي) .

استدارت الانظار ناحيتنا مستطلعة . قال رشيد زاجرا :

ـ يكفي صليحة .

فعاتبه بن يوسف ، أو تصنع ذلك قائلا :

ـ لا تغلط : هي (ابريفاديست) فرقتنا يا السي .

جنب مصطفى سيجارته بين شفتيه ، عوج مطهما كما يفعل الرجلة وأولاد البلاد :

ـ رجلة والا نسوة ..

فعم ضحك صاخب . وانبرى أكثر من لسان يعيد الجملة مقلدا صوته الهزيم .

تقف الحافلة يالله !.. موفقين .. نتصافح .. رشيد .. شعبان .. قاسي .. نور الدين .. صليحة.. وكل الاصدقاء . كمل عدد الفرقة ، تحركت الحافلة من جديد . تلويحات الايدي ، بالسلام ، اشارات النصر .

آه .. صليحة تبتسم .. من القلب أردها ابتسامة أودعتها سكر عنب .

مسؤول الاتحادية غير موجود . نائبه لحق به . ونائب النائب ، والدائرة أخت الاتحادية معطلة اليوم . أما البلدية فلا تريد أن تثبت القياس . بأن تشذ عن القاعدة . الصدفة وحدها تحضر سائق البلدية ، يوصلنا الى قرية (مسيد زبربورة) الاشتراكية بعد انتظار مائة وثمانين دقيقة . ويتأجل اللقاء بالسلطات المحلية الى الغد .

بمجرد أن أنيرت أضواء حمام القرية المعد لاقامتنا، فزع الفلاحون الينا :

ــ يا أهلا ..

ــ الشاوش ..

ــ مصطفى .. كيف حالك ؟

ــ جيد .. الدعوة ..

ــ حال الدنيا .

فهم عليه .

ــ غدا سنرى الامور واياكم .

وامتلأ المحل . يدخل اسماعيل . الوجه الفمحي ، الشوارب الكثة ، والبسمة المشرقة . راسا يراني . القدامى . يقبل . نتبادل السلام :

ــ كيف انتم ؟

ــ لا بأس ..

ــ صحاح ..

ــ هاه ..

وشددت عليها بحركة من رأسي ، وضحكة :

ــ برافو ..

يدور على الجميع . أوسع له مكانا .

ــ اجلس معنا .

ــ ايوه ..

يلتفت حواليه ، يهم بافتراس فشابينه . يلاحظه مصطفى ، فيقف .

ــ لا .. لا ..

يأخذ مطرحا . يطرحه في مقابلتنا .

ــ هكذا نعمل حلقة .. أجمعين ..

أينما حط نظري ، ردت عليّ العينان . بالترحيب، والامتنان ، وبالاعتزاز باللقيا ، والوجه بالبشاشة . الوجود يسبقني في التعبير عن الشعور . وابسط سمعي يلتقط تساؤل مصطفى :

ــ نوع مشاكل تعاونيتكم هذه .. انتاجية ؟

ــ والله عراقيل خارج دائرة الانتاج .

ــ تقصدون التسويق ؟

ــ المحيط بصفة عامة .

ــ وبالتحديد ؟

ــ مكتبية القرار وفوقيته .

ــ هذا هو النضال .

ــ الامور متشابكة .

ــ ليس غير نهجه الذي يصفيها .

ــ كثافة النشاط المضاد تزيد التعتيم .

ــ بالعمل الزائد .. وبوحدة النضال تفلحديدته.

يلتفت الى اسماعيل ، عامل «الدومين» ، منصرفا عن الحديث :

ــ عندك (الشمة) ؟

ــ لا .. سيجارة .

ينزع عنها الفلتر .. يشعل .

ــ أجيء أنت وانا نصارع (القره غول) ..

حدست بنفسه تذمرا مستكنا ، ولم أسأله عن المقصود .

ــ وكل من هو غير صالح لنا .

ــ فعل ذلك حديدوش حصد السيف ..

يقذف بالعقب .

ــ بلاش .

ــ اسمع يا بن يمة . قال التهامي لمصطفى وهو أيضا عامل بالدومين : ما قولك في انسان يقول لك « بعني دينارين بدينار واحد » ؟

أجابه اسماعيل :

ــ يتغابى أو يظن الناس أغبياء .

هذه هي التسعيرة التي جاءتنا .. اذا كان فائض منيجة وسكيكدة يجعل ديناري برتقال في قيمة دينار نقد . وخير وبركة ، فنحن بالاخضرية ما عرفنا هذه الوفرة من الانتاج .

ويتسع أفق الحديث ، ويتوغل الى الاعماق .. ويمتد . وها لم يبق الكثير لتزاح ستارة الليل عن جبل العالية ، وتشرق الشمس ، وحمية النقاش ما برحت في استعار متزايد ، فاسماعيل فجّر كل الاشياء .

الديوان الوطني للخضر والفواكه أضحى (قره غول) السوق المعاصر . وقره غول هذا على عهد الاتراك ، يقول اسماعيل ، كان يستبد بالتجارة ويفرض على السوق والباعة الفلاحين أبخس الاثمان ، ويشتري كل المحصول عن طريق أعوانه .. ويبسط المجاعة علىالناس . وحينها يبيع بأرباح خيالية . رفض فلاح مجرب التشبيه . مليح .. قال اسماعيل . غير المنتج يتوضأ باللبن وأنساغ أطفالنا الحية تشكو من نقص البروتينات .. ولا فائدة من محاولة تضييق عوينات الغربال فالشمس ...

وشد مصطفى عنان حديثه قبل أن يوغل في الركض .

ــ القره غول هو السوق الحرة .. ومن أشرت اليهم دواليب خدمة .

ــ دواليب خدمة وهي المتصرفة .. والنتائج وبال على المنتج والمستهلك .

تنبه مصطفى الى انه يشير الى تسعيرة الحوامض. وازمة التسويق التي خلقتهــــا .. وقد تكون عناصر متسربة ..

ـ الامر خلفيات .. وعوامل لا يصفها تفكير الخط المستقيم .

ـ المعنى . لا بد من تركيب عيني بومة في العقل لنرى كل الجوانب .

ها .. ها . ضحكه . ووجدها سليمان يوغر بها صدر الشطحات القلقة لاسماعيل التي بثها في عقــله ونفسه راديو « المانداتير » .

ـ الله يهلكك يا اسماعيل .. البومة ؟ لماذا هــذا التطير ؟ هنا لا يوجد سماح .. وان كنت أود ان نبلغ منتهى سهرتنا الان .. لنترك الاخوان يرتاحوا .. انما اقول لك : النضال ليس له من سدرة ..

الترحيب . تقديم عمال (الدومين) . وبلامغالاة بروتوكولية تكــلم مصطفى طبعــا بعد الكلمة القصيرة لمسؤول الاتحاد الفلاحي البلدي بافاضة حول التطوع ، الثورة الزراعية ، الرجعية ، والامبريالية ، ومتطلبــات المرحلة اطارا لفهم مشاكلنا .

قال فلاح : المفيد هنا .

فرد عليه الصادق : الكلمة المفيدة شساعة ..

ـ الملموس هو صحيحها .

فقال مصطفى :

ـ هات الملموس .

ـ انظر الواقع .

ورأينا البرتقالة صبية في عز النضج . أنا برتقالة (الدومين) ، حمراء مشقرة الخديــن . الاوفلا ، ربة التجار ، جعلت من شبابي بوارا .. عقد علينا لبلاد بره أنــا والسكيكدية والمتيجية (أنوار) .. لو تقصــدوا (لاميري) وتشوفوا عنــدهم التعداد .. خمسيــن لخمسين ، نساء ورجال متعادلين . واذا كان في بــلاد السكيكدية ونوار اكتفوا من نسوان البرتقال . وعلى كل ففي شرط الزواج تبقى الـــذرية جزائرية .. وأحلام قلبيهما على (زوفرية) ، صنايعية ، أصحاب مــواهب وعلوم ، واطارات، يسعدوا اولادنا وبلدنا فيما هو آت.. لكــن لم لي أنا زواج بره ونساءنا ورجالنا متعادلين .. ثم ها اني بوار .. فيا لاحزان الفلاحين .

قال الصديق : هذا هو الواقع فامخر عبابه عملا .

فانبرى مسؤول الاتحاد الفلاحي ورئيس تعاونيــة الثورة الزراعية (تاصليحت) متحدثا :

ـ لقد دافعنا عن المنتج ، ورفعت الكابسياس السعر تحت ضغط الفلاحين .

ـ هذا جيد .

وأضاف :

ـ لكن مزارع التسيير الذاتي .. الحقيقة خسرت الكثير ..

ورغم علم مصطفى بأن (تاصليحت) ، وهي مــن مؤممات اقطاعي ـ المعذرة نسيت اسمــه ـ خلفها لــه الاسلاف الكولون (الفرنسي) مــن أعتد التعاونيات ، أكثر العمال بها اشتغلوا عند كليهما لذلك فانهم متوحدو الامل واليد .. لكن ...

ـ كان المفروض أن يتم ذلك لكل من القطاعين ..

ـ (الدومينات) أجبرت على التعاقد مع (الاوفلا) ثم نحن كافحنا في سبيل مصلحة متعاونينا .

ـ ولماذا لا يكون ذلك لمصلحة كل الفلاحين ؟ العامل في التسيير الذاتي ، وفي قطاع الثورة الزراعية كلاهما يشتغل بالارض .

ـ نعم كلاهما ..

ـ فالقضية قضية كل الفلاحين .

ـ بالضبط .

ـ ثم .. ان النضال في الوحدة .

في اجتماع المجلس البلدي الموسع كان أكثر مــن صوت يندد بصفة خفية بما حصل عليه فلاحو تعاونيــة تاصليحت عــــلى أساس انهم ولجوا رئيسهم مسؤولا بالاتحاد الفلاحي . لكــن الحوار معهم ـ الفلاحين ـ أظهر ان أساس المصلحة فلاحي بالدرجة الاولى ، وربما الظروف فرضت عليهم منهج نضال لا يستقطب كل فلاحي الاخضرية ، ويقرون بأن (الدومين) كان القوة الفلاحيــة التي ساهمت في اقرار الثورة الزراعية كواقع ، وطوال فترة تأسيس تعاونيتنا يقولون كان الرفيق القوي الذي ساعدنا بكل ما يملك .

ـ اسمح لي أحب بذلك .

ـ أنا وأنت اثنان .

ـ ما دام عنا يقرر ..

أعرف في قطرة العرق المستقرة ما بيــن تجاعيد جبهة الشغيل .. هي الصح ، الحقيقة التي تدمغ كــل الكلمات والصور .. وأعود أفتش عن المعنى في المعنى.. كان الجوهر يضمر جوهرا ، وعلى امتداد العمق السحيق كان (عضو الاتحاد) يحمل لافتــة كتبت عليها جملة (توما الاكويني) : انما الانسان عقل ويد .

قلت له : هذه قمة المغالاة .

ـ نحن نقول وان ليس هناك أكبر من أكل مــال اليتيم. في حين نغض الطرف عن أتعاب فلاحي (دومينتنا) وملايين المنتجين .

ـ أنت متأثر بمسألة البرتقال الذي ضاع .

ـ لقد كنت واضحا معك .. لا يمكــن لاحد أن يحب بدلا من أحد .

ـ هذا صحيح ...

ـ ولا حتى الناس الـــذين يدخلون اطرافا في صناعة قصة الحب لا يحسنونها كالعشيقين .

ـ وهو كذلك .
ـ فاية سياسة تكون سياسة المنتج.. وهي غير..
الثوره كل . وهكذا وجدنا انفسنا عند السهر نخوض في موضوع اصلاح التعليم العالي وارتباطه بالتنمية وبكل التحولات الجارية . فمبداه ونهايته الحقائق الوطنية . وفاجانا الزميل الضاحك أبدا :
ـ كنت اظن الـ (بي . سي . يو) ـ المكتب الثقافي الجامعي ـ والـ (سي . في . يو) ـ لجان التطوع الجامعية ـ شيئا واحدا .
ـ أظنك الآن اكتشفت ابعاد نشاط هذا المكتب .
ـ بالتاكيد رجعي لا يخدم غير أعداء الشعب الطبقيين والامبريالية .
صمت قليلا ، ثم أضاف :
ـ يا للحية ترتدي اللباس الوطني وتفسق فيه .
قبل أن يحرك سيد المنصة ملكته ليقضي على البرج . يدركه الفلاح سعيود رب الشطرنج كما يدعونه.
ـ لنراجع الملفات .
ـ لم تبق غير أسماء قدمناها لولاية « تيزي وزو » التي لم ترد فحولناها الى ولاية « البويرة » .
ـ الم تؤممهم لجنة البلدية ؟
ـ بلى لكننا لا نستطيع منعهم من استغلال أراضيهم الا بامر من الولاية. وبعد تحديدها من طرف (الكاداست) .
ـ الثورة الزراعية ليست موكولة بالمهدي .
وقال فلاح :
ـ عمل لجنة البلدية هو المبدأ .
فرد عليه من المنصة :
ـ ومن رافعها ، بنجاح علي مثلا لم تقدر كل من الولايتين على لمسه .
وأسرع نائب رئيس المجلس البلدي يفض الاجتماع :
ـ لقد انتهت المرحلة الثانية ببلديتنا .
وأنا لم أصل اليه بعد ، كان قد أشغل لسانه بما حوى : سيدي ليس هنا .. سيدي مشغول .. سيدي في الاجتماع .. وسيدي .. وقبل أن يختم الباب بالشمع الاحمر : حضرتك مفتش .. وزير .. وتمتد أمامي جثة مريض مات قدام البيروقراطي ينتظر اليد الحنون أن تشيله من بين أظافر الموت . ومن أسفل الوادي كانت رائحة برتقال التعاونية (رقم ١٤) المتعفن تنبعث . لان أوامر سيدنا ضاعت بين المكاتب المعنية للجهاز . وقد تصل بعد الآن أو لن تصل أبدا . ويدخل الاعلان عن الحملة الجماهيرية منشورا سريا الى ثانوية (سي الحواس) يعتمر بسويداء القلوب الشابة .
عند مخرج المدينة . وفي طريقنا الى تعاونية (بوعمود) . وجدناه مرتديا بدلته الزرقاء الصينية التي أرسلها له ابنه مراد من فرنسا قبل أن تنقطع أخباره بثلاث سنوات . حيا الشباب الذين سبقونا على متن جرارين . أوقف عمر سيارة (لاندروفر) ..
ـ واش عمي حميدو تتطوع معنا ؟
واستدار الى من في الخلف يغمز .
ـ لكن بودربالة .. لا يريد .
نكس رأسه كأنما أهين .
ـ (النو تصب .. والريح ..)
ـ يكره المتطوعين أكثر من الشيطان .
ـ هو الشيطان خلقا .
ضغط السائق المحرك . قال (حميدو) :
ـ أين تقصدون ؟
ازدرد المحرك جواب السائق .
قال حميدو :
ـ آه ..
ـ بوعمود أن تأتي معنا ؟
أدرك (اللاندروفر) قبل أن تتحرك بقفزة .
ـ جميعنا اليها .
واستوى في الخلف منشدا معنا :
تسلحوا بالعدة اللازمة . وانتشروا في التعاونيه .
ـ الفلاحون كل واحد .
لهجت قلوب الفلاحين .
ـ ماذا سيكون مصير النصاف (حميدو) مع بودربالة ؟
فكر السائق : « اثنتي عشرة سنة قضيتها وراء المقود . ولا علاوة » .
ـ لا يجوز أن تحصر القائمة في الاداريين دون العمال .
حدث النقابي نفسه .
ابتسم مصطفى وهو يلاحظ حمية الشباب . لقد تغذى حبك يا (لونجا) من روح الدم المتدفق لابنائك الاطهار . هاتفهم الوطني ٧٥ ـ ٦٩ ـ ٥٦ محفور في القلب .
ـ حاربنا من أجل تحرير البلاد وابن البلاد .
قال حميدو . وكان الايقاع الجماعي يقول :
« أعداؤنا نسحقهم بالصبر ، ونقهرهم بالفعل . وندفنهم في ظل موسيقى العمل » .
يغرز اسماعيل المداراة بقوة في الارض . اكد العزم من خزرته وقسمات وجهه الصارمة :
ـ عهد رفاقه .
بدلا من رسالتي الى الحبيبة اثبت بطاقة أختي الصغيرة نعيمة التي لم أبعثها بعد :
الى نعيمة مع أمنياتي في أن تصبحي بعد قراءتك للبطاقة في طول سارية الراية الوطنية التي رفعتها طبقتنا العاملة لاول مرة في مظاهرات سكيكدة عام ١٩١٠ .. والسلام .

قصة قصيرة :

ويجيء الموج امتدادا ...

(الى المرأة التي تقاسمني آلام الزنزانة والمنفى والفرح و .. و .. و ..)

الزاوي محمد امين

— ١ —

كان جسدي حوارا .. وكان وطني الفضية المرفوعة ..

آتيك من مفترق قوارب الصمت مدججا بالرفض ، بالسخط ، باللعنة ، بالحب البدوي ، بالطفل الذي ينمو كسنابل القمح ...

آتيك أحمل راية ، ملفعا في راية ، من لونها يأخذ القمر حمرة عيونه .

يخرج كل لحظة من أكوام التبن ، وفيض البيادر وظل أغاني الحواتين ، فارسا يمتطي فرسا دهماء .. يقرأ لاطفال العالم الثالث كف الجوع والثورة .. الحربه .. الموت .. الرحلة .. المطر .. المنفى .. العشق واشياء لا يبوح بها سوى للاطفال .

وأنا آتيك ، أوقفني هذا الصباح رجل غريب عن المدينة ، كان يشبه الى حد ما (موسى) كما تحكي عنه خرافات جدتي ، التي ماتت ذات شتاء ، ولم تنه لي قصة (عيشة بنت الحطاب) .

سألني عن أقرب فندق يمكن له أن يقضي فيه الليلة ، لم التفت بادىء الامر ، لكني أيقنت ان كل فنادق مدينتنا محجوزة ...

لم أجبه .. ولم اتجاهله .. حتى اني كنت أتمنى ان لا ينام في هذه الظروف التي لا يجد فيها أين ينام .

— ٢ —

كان الاطفال — قال الراوي — يلعبون في الساحة العمومية ، اسرعوا فجأة جهة الزقاق الذي ينزل في اتجاه سوق الاغنام والابقار ، وقفوا عند (الحلقة) . كان الرجل الذي اجتمع حوله كل من في السوق من الاطفال ، ما فتىء يقرأ الاكف .

تقدم منه طفل من مخلفات الحرب الحريرية :
— اسمك ؟
— لا اسم لي ..
صاح الاطفال من خلفه :
— بوشواطة ..

في رأس الطفل أشياء كثيرة تمارس عملية الحفر بقوة . على عينيه يتمطى التعب وشبح الاكياس التي يحملها للشحن أو التفريغ .. من احدى الشاحنات العملاقة .. تقوس ظهره ، في أذنه صوت المحرك والزجر والامر والنهي ... والتاريخ .

نظر فيه العراف ثم قال :
— المدن التي ركبتها — يا بني — علمتك كيف تغتال الحزن ، في زمن يأتي لا ريب فيه ، سوف يبعدونك عن هذا الوطن ، وسوف يحاولون أن يغرسوا في غابات الحب الموحشة التي تملكها صحارى الكآبة . سيعلمونك في الاقبية الظلماء التي يدخلونك اليها أغاني الرثاء ، وأنت لا تحسن غناء هذه القصائد .. وعندما لا تبكي ولا تغني ، سيحاولون أن يعلموك الرقص ، وحين ترقص لهم كالعصفور رقصك المفضل ... سيصمتون .

الطفل كان مشدودا الى كلام الشيخ :
— من أنت حتى تقرأ أسرار هذا القلب ، الذي لا يملك أما ولا أبا ؟
— غريب انا عن مدينتكم يا بني ، لكني كنت أسمع دائما الحانكم تأتيني من خلف هذا الجبل العظيم .

وأشار باصبعه اليسرى الى الشاحنة الضخمة الرابضة تنتظر تفريغها .
— في زمن يأتي — أيها الشيخ — هل سأدخل

المدرسة وأتعلم كتـــابة الرسائل التي تحمل السلام والتحيات الى الناس في كل مكان ؟ هل سأتعــلم كتابة اسمي واسم أبي ، وكل الذين لم تسجل الحالات المدنية في المدينة ؟

ـ ... وسياتي ذات صباح أبرد بقليل من هــذا الصباح .. وستسمع فوق زنزانتك التي كتبت عــلى جدرانها بعض حبك وبعض كفرك وبعض أشعارك وأسماء رفاقك الذين ألقي القبض عليهم معك في تلك الليلة التي مارستم فيها الحلم بقوة .. حيث تتـــذكر كتبك التي حجزوها ، وبعض الوجـــوه التي تعفرت بالدم وهي تبتسم ، وكثيرا من الجـــروح التي لا تزال تسجل كل ذلك على ظهرك .. اذن فالامر بسيط .. ستسمع أغنية فيها بحة العمال والفلاحين وفيها بريق المناجل ورائحــة النساء العائدات عند القيلولة مــن الحصاد .. ستأتيك اللذة ، وتتذكر فتاة الحي ولاول مرة ستبكي ، ثم تكتب على الجدار كاذبا انك لم تبك ، ثم تسمع خطوات السجان تسرع الى الخارج . فيشدك وقـــع خطواته السريعــة وصليل المفاتيح يتبعه .. في هذا الصباح البارد مـــن زمن ياتي ستكون لك لحيـــة طويلة .. تدخل فيهــا اصابعك ، ثم تاخذ برسم وجه حبيبتك التي منعوك منها لانك لم تكرهها ولانك قلت فيها شعرا دون رخصة موقعة من رجال البوليس والشرطــة والجمارك الواقفين كــل لحظة في خطوط الحدود ، ورجال المخابرات ، والفقهاء والمشرعين وأهل القانون والمقدمين وكبار الجماعة والائمة وأصحاب الامر والنهي عن المنكر وكل أعــوان المدينة . ستحب هذه الزنزانة في هذه اللحظات كثيرا لانك تحمل على صدرها جزءا منك . وتحمل أشياء كثيرة.. تذكرك.

في تلك اللحظة كان الطفل يفرغ نظراتــه المحمومة في هذا الرجل . قال له :

ـ انت تقرأ قلبي ...

تلفت (المهرج) في الجمع ، كانوا شبه حيارى . مرر يده على وجهه المزروع ندبا ينتشر فيها الماضي اليما.

تقدم منه طفل آخر في تلك اللحظة . انتشر الرعب في عيني (الشيخ) . كان يغني .

ـ العلامة كبيرة ...

وغنى معه الاطفال ، بقوة ، الا ان الطفــل الاول ظل صامتا .

وكان الحضور ...

وكان الغياب ...

ـ ٣ ـ

وكان المساء .. وكنت واقفا في الامام .. أعترف لاطفـــال مدرسة الحي الشعبي ، أسفل السوق ، ان الولادات في هذه الازمنة عسيرة ...

كان الدم الناري يعسكر في وجوه مقسمة الــى أثنيــن ..

الجهة الاولى مقابر .

والثانية سلاسل .

ـ ٤ ـ

توقفت عن فتل الكسكسي فجأة . قالت :

ـ متى تكبر وتقلع علينا الغبينة ؟

في ملامحها تمدد أخطبوط العرق وتشرعت مراكب الجوع واغتالتها الذكرى :

ـ بنت الميلود الرقيعي .. طفلة رقيقة ، سأزوجها لك ، انها تحسن حلب المعز والابقـــار وغناء أناشيــد الجنود والشوالة ...

في ذات الـــوقت دخل (الدراري) يحمــلون (شواطات) السنابل التي التقطوها منــذ الصباح من خلف حصادة (المعلم) أحمد . كان البعض يقول :

ـ سأبيع (قردية) وأشتري بها نعالة عمر واحد ما لبسها في الدشرة .

قال الذري الذي لم يجمع سوى شواطة صغيــرة شاحبة السنابل :

ـ والله ملتو لو كان خلاني نزيــد نجمع ، حتى انجيب خير منكم .

ـ باينا عليك ... البارح شحال جمعت ؟

ـ قفة ... معمرة .. السبولة المخيرة لاختها .. لكن ربو اخذاها مني لدوابه للعلف ..

كان الكبار يتحدثون عــن ابنة (المعلم) ، يقولون انها تقرأ كثيرا وتحسن التحدث باللغة الفرنسية ، وهي جميلة تتكلم مع الرجال وتسير في الشوارع ...

ـ ٥ ـ

توقفت سيارة الشرطة مزمرة برعب عند الباب . قفز منها اثنـــان مسلحان مسكونان بالـــدم والرعب والاندفاع .. وأشياء أخرى :

ـ انت معزوز المدعو (بوشواطة) ؟

ـ نعم ..

ـ اطلع ..

عندما كان السجان يحل له ربطــة عنقه الرقيقة الوسخة وخيط حذائه وحزام خصره ، تفحص وجـــه أمه من خلال المحققين الذين أحاطوا به ، الا انه كان يبدو هادئا .. ولاول مرة كانت رائحة الحقول تشعره بوجوده الحقيقي . وكانت الطفلة التي يجوع اليها في كل لحظة تسير في دمه نارا محرقة ، شعلة من لهب .. تحاصره من كل جهة .. كان مصروعا تغتاله قوافل الذكريات ..

في الزنزانة التي قيد اليها .. يتبعه لحن رخيم .. كان عرف الصوت من اوله ...
المهرج التسيح .. كان .

- ٦ -

انظلام .. ليس غير الظلام . ولم يتبين أول الامر أي شيء . يشم رائحة البول والغائط والعرق . انتابه القلق . البطانيه الملقاة وسط الحجرة المنداة تبعث فيه القرف . نظر الى الجدار . مملوءا بالتواريخ محفورة بقصه هذا الزمن . قوائم اسماء بالفرنسية والعربية لرجال تعاقبوا على هذه الزنزانة في ازمنة متفاوتة البعد . تساءل :
ـ ذاك المهرج كان يقرا كل ما في صدري ..

واسم التسيح كان بين قائمة الجدار ، ولم يدهش لذلك ...
وسقط كثير من الاسئلة التي كانت تلاحقه .

لم يكن يتسلى بقراءة الجدران . كان يقف طويلا امام كل حرف ، وعرف بعض الخطوط .

في اللحظه يأتيه الوطن عبر خيط ضوء يتيم ينزل بالم من ثقب في سقف الزنزانة .. ممتطيا صهوة المحنة . يقف الوطن أمامه خجولا صامتا ، يسأله :
ـ هل كنت تتعشى في خمارات البلد.. يصافحك الاقطاعيون ؟

لا يجيب الوطن .. ثم يضيف :
ـ هل تفهم كيف يموت العمال في ترعات المناجم.. وفي أقبية ....

لا يجيب الوطن ويظل مطأطىء الراس.. ثم يضيف:
ـ هل قضيت ليلة دون عشاء .. انت أو صغارك ؟

يسكت الوطن ثم يركب الريح ..

وأبكي .. وأكتب ثانية على الجدار كاذبا انني لم ابك طول حياتي ..

ويأتيه الوطن ثانية في المساء .. يحكي له شيئا فقط حتى يزاح الصمت الثقيل :
ـ وأدخل نقابات لا أعرفها ، وأعرفها .. مقطعا مفزوعا تطاردني رائحة (الاقطاع) في ملاك الاجساد الطرية التي تقدم في الاماسي الجميلة .. أرمي عني الموت وأصير الموقف في أول طابور للطلاب ..

عندما جاءه الوطن هذه المرة لم يتألم ، الا ان صورة الحبيبة التي حاصروها من كل جانب كانت تطعنه ..

تذكر انه عندما قيد الى الزنزانة قال لها في ذلك المساء :
ـ سنتزوج مع نزوح الربيع الى قرانا.. وسنحمل الى قلوب الاطفال عناقيد الشمس : وستبقى ذاكرتنا بجروحها تعطينا بعدا وقوة جديدة .

اجابتني وفي كلماتها تصهل افرسة الحب الوحشية . وتفرخ صحراء الشعر ألحان المنفى والغربة :

ـ انظر . هذه الفيوم تحمل على أعناقها ، أشياء .. هذه فرس حمراء يركبها رجل ينزل بمدينتنا ذات مساء وسيسالك عن المبيت ولن تتجاهله .. وسيقرا لك الكف في السوق الشعبية . يعلن لك عن أشياء مخيفة..

وحدثتني ليلة التي سبقت مساء القبض على طفلنا الذي يغرد في حلمها ...

- ٧ -

عندما نزلت الادراج التي تؤدي الى الميناء .. كان الصباح رطبا تصحبني ذكرياتي وأحلامي وأشعار زوجتي التي لا تعرف الوزن، والتي سجلتها على الجدران وحفظتها .. كان طفل يشبه المحنة يحمل صندوق (كرتون) عليه علب الكبريت و (الافراز) وأنواع السجائر الرخيصة يبيعها لعمال الميناء ، يبتسم لي . وجدت فيه لحن بيت من الاشعار التي حفظتها في الزنزانة . قدم لي علبة وقال :
ـ افراز .. افراز .. يا بو لحية ..

وعندما سمحوا لي أن أتحدث معه ، لان اقلاع الباخرة لم يحن بعد . رغم ان بعض المسافرين كانوا يتجمعون عند أحد المداخل ، قلت له :
ـ كم عمرك ؟
ـ ولدت بعد ... افراز افراز .
ـ منذ كم بالتقريب ؟
ـ أتشتري السجائر ؟.. ما عندكش حتى باش تحسن لحيتك ؟..
تركني مسرعا يعترض الذين ينزلون الادراج .. عندما غاب وسط الزحام ميزت صوته يقول :
ـ المهرج .. المهرج ..

البحر كان يتقيأ عبارات حزني ويحتضن أسراري.. بعض طيور الماء كانت تغني للقادمين والراحلين ، وكانت المدينة لأول مرة تبدو لي ملبدة بغيوم تشبه عيني الطفل بائع الافراز .

شاهدت (المهرج) خلفي يقتادونه هو الآخر في اتجاه مصعد خاص في الباخرة .. رايت كفه وعروق المعصم بادية .. قالت لي الزنزانة :
ـ لو تعلم كيف يترك الرجال الفقراء هذا الوطن لبكيت ...
وعندما كنت أعلم ... وبكيت ، كتبت كاذبا اني لم أبك ..

في الطريق عندما بدا لي ذات يوم أن أحبك .. ضحكنا كثيرا لهذه الفكرة ..

قالت لي :

ـ أن تحب في هذا الزمن فأنت مستعد للموت...

وكانت موغلة في لهب الاحزان التي تستطيل وتستدير في أهرام الأمساء بوطني ..

كنت واقفا بين مد الرحلة واسترجاع اللحن الذي يأكل السواعد .. وكنت تبتعدين . تبتعدين .. ولم يبق لنا وقت للتأسي .. فقط سمعت قوافل الاناشيد ترحل جهة البحر المغشوش .. كنت ابحث فيها عن طريق أدحرج منه شراع الحزن ..

انتشلني صراخ طفل عربي .. عرفته بسمرته وأوساخه وأحلامه الى الخبز ، فتساءلت عن مصاعد المحنة في أهداب أمه . ادركت الساعة ان طريق البحر مسكون مشحون بعواصف اللعنة ..

تفيات كفري .. أغرقني عشق الزنزانه فياللحظة.
كنت أمارس طقوس الحب مصلوبا على الخشبة .

عندما عدت اليك من أدغال المنفى منعوني أن أكون صابونا أو خبزا أو رغوة ولكنهم لم يمنعوني أن أكون حلما .. وكنت الصحراء والشعر وعنترة ..

كانت تتراءى لي نوافذ مفتوحة يتسلقها نور في عين عصر المنفى ... كنت أصرخ في الاحياء الشعبية المنسية وأدعو أصقاع اللذة .

ـ ٨ ـ

في نوع من الاستشراق والتبصر كان المهرج يجمع لوازمه ، ثم يغادر (رحبة) السوق .

يتسابق الصغار في الطريق الضيق الذي ينزل الى الحي . لكن الطفل الذي قرا له الكف كان يسير ببطء الخطو حزينا .

سأله أحد الذراري ضاحكا :

ـ نخاف ـ كما قال المهرج ـ أن يأتي اليوم الذي لا ريب فيه فيبعدوك عن الوطن .. عن الحارة .. عنا.. عنها .. وتنتهي كل العابنا .

لم يجبه لكنه كان يبدو صامتا أكثر من اللازم .

سعيدة

حمري بحري

ـ ١ ـ

الوردة تشرب من دمها
وتقاوم قحطا يأتيها
وقميص الحلم على شفتيها :
توت عند ينابيع الفجر ،
المسكون بصيحات الثوار .

ـ ٢ ـ

فتقبّل غصنا ...
ثم تموت ...

ـ ٣ ـ

بين القضبان
كانت سكينا ،
في حلق السلطان
كانت نهرا ...
كانت وترا ...
والعازف ـ بركة ـ في دمها
وضحايا الطغيان .

ـ ٤ ـ

الشاعر عصفور
يشكو من جرح القلب
عذابات الانسان .
ويطير بعيدا
في غبش الفجر
المسكون بصيحات العمال :
« نحن نتعب
وانتم تتعبون
وهم ... يجنون ثمار التعب » .

ـ ٥ ـ

وطني غصن
ينمو في القلب ...

الجزائر ـ ١٩٧٨

****** ومن الطين .. ******

قصة بقلم : مصطفى فاسي

ها قد رجعت ..
سأبذل كل جهودي لافقد ذاكرتي ..
فيا زمنا لا تقهقه في عيوني .
سأسخر منك ومنهم جميعا .

أنا (ابن هنا) ، هذه قريتي لي تمد الدراع .. أنا (ابن هنا) سأبقى هنا ..
بأسناني هذي سأحفر أرضي .
سأصنع بستان كرز وروضة زهر أقدمهـا بافـة لليتامى .
سقيت أيا قرية البـذل بالدم يوما ، ويوما . وآن الاوان ليسقي أراضيك عرق الجبين ...
لا تحزني قد رجعت اليك ... حزمت هنا الك ما كنت أدري .. لقد علموني أن أحني رأسي ..
اشاعوا بأني انا ساذج ..
واني بليد .. واني واني ..

لقد حفظوني امورا كثيرة :
ــ بمجرد وقوف السيارة عليك أن تنزل بسرعة.. وتفتح بابها الخلفي . حذار أن تنسى الابتسامة اللطيفة كالعـادة .
ــ ولكن ...
ــ لا يهمنا ــ مطلقا ــ ما يدور في مخك . لا تنس الابتسامة . ابتسم دائما .

صدقيني يا قريتي العزيزة ، أنا ما رأيت الابتسامة منذ ارتحلت عنك ..
صحيح ، لقد كنت في الماضي راعي غنم ، ولكنني بلبلا كنت ، يرافقني الناي دوما .
لكم كنت أعشق نور القمر ، وتطربني الشمس عند الشروق ، وكنت أغني لليلى وخالد وجابر . وكنا نغني معا ونجري معا ونضحك معا .. فيا زمن العشق أيـن تغيبت ؟..
عمي سليمان ، وخالي رابح ، وجارنا حمـدان ، ترى كيف أنتم ؟.. آه متى الوصول ؟.. صدقوني ، ان شوقي اليكم يعذبني ..
ترى أين كنت ؟ ماذا فعلت ؟ ثماني سنوات كاملة غبتها هدرا ، فهيا جميعا لتحتفلوا بالهزيمة .. لقـد قفل السندباد بخيبته .. عــاد اليكم يجر الهزيمة ، ضيعته المدينة ورمته اليكم . لكم أتلهف أن أمرغ وجهي في هذا التراب ذي الرائحة الزكية .

صغيرا هنا كنت ألعب ، وتبحث ليلاي عني بين الصخور وبين الحشائش ، وحـين ترعرعت أصبحت أحفر هذه الارض بالفأس أخرج خيراتها ...

وفي يوم خريفي جميل .. كــان الهواء خفيفا منعشا ... آه منك يا زمان . كانت الغربان تمر محلقة أسرابا متجهة في جدية صوب الجبل .. وطيور النورس تمضي على ساحل البحر متتابعة على مستوى منخفض من الارض ، وكانت مجموعة كبيرة من طيور «الفريفرو» (1) تشكل خطا منكسرا على ارتفاع كبير وتمضـي الى حيث لا أدري وهي تحدث صوتا موحدا غريبا كأنه يدعو الذين لم يرحلوا بعد الى الرحيل ، محمرة كانت الشمس تنزل جهة الغروب ، وترسـل بقايا أشعتها في كسـل عبر الحقـول .

في هذا اليوم ، وفي هذه اللحظة ، انتعشت روحي السندبادية فلعنت حياة « الخماسة » ورحلت ..

الى هناك حيث المدينة تمـد أيديها الاخطبوطية ، فاستقبلتني ، وضمتني اليها بقوة أدمت عروقي .

وها اني أعود مصفر الوجـه أصابني الذبـول .. عصرتني عشيقتي ..

خلقت طليقا هنا كالرياح .. فماذا دهاني ؟ ومـا الذي قد رمى بي بعيدا ؟.. اني أرغب أن ألثم هـذي الاحجار .. يا لصفاء الجو هنا .. كم بعثوني ابحث عن

(1) الفريفرو : هكذا تسمى عند العامة ، تطير في أسراب كبيرة على مستوى عال من الارض ، مشكلة خطوطا منكسرة .

حب الرمان في البر الخالي ...

ــ أمرك سيدتي . أطلبي ما تبغين ، اني في الخدمة ، هل آتيك بقلب الحية ذات العشرة رؤوس ؟ وبأسنان التنين الساكن بعد السبعة أبحر ؟!..

أخبرت أميري بلطف مرة ، اني انسان لي أسرة ، طفلان صغيران تماما مثل ورود حديقة قصره هذا العامر دوما ، ليلاي كادت سيدي تنسى من ذاكرتي .. منذ سنين صار يعشش في جلدي بق الحمام ، كرهتني كل مطاعم بلدتكم هذه .

ــ أميري ، أنا لا أبحث عن قصر .. اني مثل البلبل يمتد خيالي بعيدا عبر جمال الاحلام ، واغني للدنيا فرحا . قلبي مفتوح أبدا لك . حين ولدت وجدت الناس تغني للقرية ، تعشقها .. فرقصت وغنيت . فقط أبحث عن عش يجمعنا يا مولاي ...

ــ سياراتك الفخمة لا تكفيني سكنا يا مولاي .

في الواقع كنت أرى في هذا الوجه ملامح وجه لا يمكن أن انساه . وجه واحد .. بطن منتفخ .. عينان تملأهما الحمرة تبعثان بالنظرات نفسها ..

هذا العالم مجهول بالنسبة لي .. لكني أخشاه .. بحر تتلاطم في باطنه كل القذارات .. بحر غامض ، يحمل كل الاسرار الشريرة .

وأنا مسكين ، ولدتني دنيا ذات سماء زرقاء .. الجو الصافي يملأ عينيّ أبدا . وأحاول أن ابحث عن نفسي .

أميري الاول كان قليلَ الزيارة للمزرعة .. أعمل وحدي أبدا ، وأراه فقط عند جني الغلة ليتصدق عليّ برغيف يابس . كان أميري الاول فلاحا لا تمس الارض يده . وأميري المدني المتحضر لا أعرف ما هي بالضبط وظيفته .. ما أعرف عنه ان الحفلات في بيته لا تنتهي ، وانه يغير السيارات مثل القمصان .

مولاي ... سياراتك الفخمة يا مولاي لا تكفيني سكنا ..

فكر لي في الموضوع ، رجاء ، يا مولاي ..

وفرحت كثيرا يوما حين أمرتني أن أذهب عند البنّاء أجيء به .

حضر البنّاء ، وبدأ يبني في طرف الحديقة الكبيرة ، كان بيتا جميلا ولكنه صغير ..

وملأ سؤال كبير ذهني : لمن هذا البيت ؟.. وبعد أسبوع استقبل البيت صاحبه . كان « ريلكا » كبيرا كالاسد ، علمت ــ فيما بعد ــ انك يا مولاي دفعت فيه بالعملة الصعبة ثمنا لا يستهان به .

صدقني مولاي لست حسودا . اكني تلك المرة تمنيت أن أكون كلبا .

وازدادت مشاغلي ، كنت من قبل اتنقل بين المزارع وغيرها أفتش عما يرضي سيدي وسيدتي أو أي واحد من أفراد الاسرة .. ولكن هذا لا يكفي ، هنالك سيد آخر لا بد من البحث عن مأكولاته الخاصة حتى لا يغضب أو يضرب عن الاكل .

ــ لا تنس أيضا يا أحمد انه يهوى الجولات . رافقه واطلعه على كل معالم بلدتنا .

آه .. بوبي المسكين نسيته ، أتمنى انه ما يزال حيا ، اذا كان كذلك لا بد انه سيستقبلني فرحا كالعادة. يهز ذيله .. يكاد وجهه يضحك من الفرحة .. يعتمد على نفسه معظم الاحيان في تدبير طعامه .. ابن القرية لا يعرف تعقيدات الحضارة .. أجلس أحيانا تحت شجرة التين الكبيرة التي تربض على الارض في اطمئنان وتظهر من بعيد مثل خيمة خضراء كبيرة .. تقع مباشرة تحت دارنا .. هنالك في ظلها أجلس وقت الحرارة ، أو أتمدد فوق جلد شاة وأنام ، وحين أفيق والتفت حولي أجد بوبي ممددا بدوره على الارض .. قد يفتح عينيه عند سماعه أية حركة تصدر مني ثم يعود الى نومه .

بوبي من القرية ، بوبي بسيط مثل جميع الاشياء هنا في القرية ، بوبي لا يشبه « ريلكا » . فوداعا يا عالم « ريلكا » ، وداعا يا دنيا الخماس ، لن أصبح بعد اليوم أبدا خماسا ، لن أتجول بين مزارع ابن‌مهيدي وعميروش وكل الشهداء . أفتش عن حب الرمان لسيدتي .

هذي الارض .. آه ما أجملها .. ها هي قد عادت .. سأعود اليها .. لا أعرف أن أعمل في غير الارض ، فيها نبت الاجداد ، والآباء ، ونبت أنا .

ما أجمل أن أشعر اني آكلَ من عرق جبيني ، ما أجمل ذلك .. كرهتني كل الحانات ، وكل محلات مدينتكم ..

ــ اذهب يا أحمد وائت بسيدك المسكين الفاقد وعيه . يا أحمد احمله في رفق بيديك وضعه على الكرسي الخلفي ودعه ينام ، يا أحمد ابق لطيفا أبدا ، لا تقلق سيدك المسكين الفاقد وعيه .

وصباحا يا أحمد ، عند الفجر ، لا تنس أن تنهض .. سافر يا أحمد للربع الخالي واجلب للسيدة المحترمة مولاتك لحم العنقاء .

وبعد .. يا أحمد .. يا أحمد .. يا ...

سأظل هنا .. لن ابرح هذي الارض.. سأحفرها.. اتمرغ فيها .. صارت أرضي .. ترابها هذا أعجنه ، ومن الطين لكل شهيد أصنع تمثالا ...

مذكرات منزلقة في فصل الشتاء

قصة بقلم ج. علاوه وهبي

الالم يعصر نفوسهم ، وهم على الرصيف مع اثاث منازلهم لا يتحركون . الدنيا برد . الحي انزلق والمنازل بعضهـــا انهار . رجال الوقايـــة المدنية يتحركون . يساعدون المنكوبين في نقل أثاثهم الى « الكماين » التي تنقلهم بدورها الى المغارات التي أعدت لايوائهم . كــل شيء يوحي بالخوف والذعر . القسم الشمالي من المدينة كله مهدد . القلق يسيطر على الجميع . أرصفة الشوارع اصبحت وكأنها سوق . الاطفـــال الصغار موزعون هنا وهناك يقفزون .. انهم غير شاعرين بالخطر . كل شيء حزين حتى الارصفة حزينة . وجـوه الكبار عابســـة . النساء مقرفصات ، كل واحدة جنب أثاث منزلها ، في صمت ودون حراك . كل واحدة بداخلها مجموعة مـــن شرارات نارية تكاد تقطع الاحشاء . القلـوب حزينة . وكل شيء يوحي بأن أمرا غريبا سوف يحدث . المغارات الكائنة بالمدينة أصبحت مساكن للمنكوبين . حتى القمر ابى أن يهل هذا المساء وكأنه أخذ يغط في نوم عميـق او كأنه حزن لحزن المنكوبين .

حديث المغارة رقم واحد :

قسم المنكوبون المغارة بينهم بالملاحف ، وضع كل واحد أثاثه في ركن ، وخيم الصمت . قامت العجوز من مكانها واتجهت نحو مدخل المغارة . تبعها الكلب وهـو ينبح . اقتربت مـــن فوهة المغارة ، ارادت أن تقول شيئا ، توقفت الكلمات في حلقها . جدار من الحزن حال دونها والكلمات . وقفت منتصبة في مدخل المغـارة ، رفعت وجهها نحو السماء ، رات نجمة واحدة في الفضاء تحيط بها السحب . حزنت العجوز .. شعرت بأنهـــا منكوبـــة .

تعليق :

السحب تغلف السماء . اختفت النجمة الوحيدة . الصمت يخيم على المغارة . كــلّ شيء ساكن ، حتـى الساعة توقفت عن الدوران . انهارت مساكننا . لمــاذا انزلق الحي ؟ لماذا جاء الحزن الى حينا ؟

حديث المغارة رقم اثنين :

الانهج والشوارع الصغيرة والكبيرة تتقيأ السيارات الضخمة . الازدحام شديد . الدنيا جنـون . مررت بالسوق المركزية . فاجأني جمع غفير أمام مدخل المغارة التي كانت تنضج الموز . فكرت في الحديث مع سكـان المغارة الجدد ، ان أشعر بحزنهم . ومن حقي التحـدث معهم . انتـــابتني قشعريرة . هزت جسمي . عندما تذكرت انني اسكن قريبا من حيهم . هذه المغارات كانت خاصة بانضاج المـوز . الآن يسكنهـــا بشر . أشعلت سيجارة أخذت منها نفسا ثم ألقيت بها جـانبا . انني أكره التدخين .

ــ الدنيا برد .
ــ نحن في الشتاء .
ــ هذه المغارة تشبه مقبرة .
ــ هناك أناس يدفنون أحياء .
ــ ماذا يمكننا نحن عمله ؟
ــ أحمد ربك لانك وجدت مغارة تؤويك .
ــ أصبحنا عرضة للامراض .
ــ فالك في أسنانك .

مررت أمام باب السوق ، وجدت قطعة من الطباشير ملقاة على الارض ، لا شك انها سقطت من محفظة طفـل منكوب . أخذتها وكتبت بها على باب السوق : « أريـد ان أقول أشياء كثيرة .. أري . . . د ان أقول انـني .. ل .. سـ .. ت .. أدري ماذا كان يدور فـي رأسي من افكار .. باختصار : أنا أبكي الآن حيكم المنكوب » . وعلى جدار السوق كتبت : « أريد أن أبني منزلا جديدا لكل منكوب .. ولكن هل هذا ممكن ؟ انني في بدايـــة الطريق .. » . عندما سقطت قطعة الطباشير مـن بين أناملي أدركت انني ما زلت فقيرا .. لذلك لن أقدر على بناء منازل جديدة للمنكوبين .. المال هجرني ، ولكن متى

كان عندي مال ؟ ابتعدت عن المكان ، يعتصرني الالم ، ويراودني الامل في العودة اليه من جديد ، وقد ملكت امكانيات انقاذ أناس دفنوهم أحياء . شعرت بالمغص ، فانزويت في ركن وتقيأت .

حديث الحي المنكوب :

منذ أربع سنوات ، أخبر سكاني بما سيحدث لي ، ولكن لا أحد منهم انتقل ، لانه لم يتمكن من الحصول على مسكن جديد . ومنذ أربع سنوات ، وأنا أحاول الاحتفاظ بصحتي ، ولكن الهزة الاخيرة أوقعتني ولم اتمالك . مددت يدي لاصافح السكان ، ولكن يدي بقيت تجول في الهواء دون أن تظفر بلمسة واحدة . وبقيت أدور وأنزلق ، وكل مرة تنهار دار ، وأنا أدور من واحد الى واحدة ، أدور من واحدة الى واحد ، لم اظفر بلمسة ولا بمصافحة ، لم يتنبه الي" أحد ، الكل يبكي حظه ويسب ويلعن انزلاقي ، ولكن ما حيلتي وما ذنبي ؟ أنا ضحية ومظلوم مثل سكاني تماما ، وعندما لم يتنبه الي" أحد من سكاني ، احسست بأني متسول أطلب بضع سنتيمات .

ـ منكوب ؟

ـ مانيش منكوب ، وماكاش أنت اللي تقرر .

ـ أعلاش ..

ـ هكذا واش تبغي ؟

وتمضي الساعات . من المنكوب ؟ طبعا لست أنا ، انما هم . ولكن أنا ماذا ؟ مهجور صحيح ، ابتداء من هذه الدقائق كل المنازل المبنية فوق ترابي ستهدم . قال المسؤولون انها لم تعد صالحة للسكن بعد الآن ولا يفهم الخطر الا مدركه . وأنا المدرك فهمت . ذلك لانني الحي الذي هجره سكانه ، وأنا رب هذه المساكن ، سيدها الحقيقي . دعك انت من المشكلة . أنا تعبت من ثقل هذه البنايات ، أردت أن أقوم بحركة فاذا بها تنقلب انزلاق . اسمعوني : لقد وقع بي انزلاق ، انهارت مساكني ، لست القاتل ولكن كل شيء مقدر .

ـ متى تأتون على تهديم كل المساكن ؟

ـ لذلك يوم معلوم يا أبنائي ـ الله ـ وهل أدري انا متى يكون ذلك ؟

ـ أنا يا ناس لا أعرف متى تبنى لكم مساكن جديدة ، ذلك من علم الغيب ، ومن المحتمل أن يكون في علمي وأنا أخفيه عنكم . هذا شيء ممكن . بالعكس ، أنا أجهل الجاهلين بالامر ، لست مسؤولا عما وقع ، انكم يا سكاني مشتتون في المغارات والمرائب . والمحظوظ منكم سكن في « كاراج » . صرتم تكرهونني ، وتكرهون حياتكم .. ولكن لو تعلمون انني مظلوم مثلكم ، أشقى حي في هذه المدينة ، ويبدو لي والله أعلم مني ، ان المعرفة بالاسباب شقاء دائم ، كما حدثني بذلك جاري المهدد بمثل ما وقع لي أنا الحي القديم الجديد في هذه المدينة .

تعليق منزلق :

أشياء غريبة ، وحوادث مؤلمة شاهدتها : « انزلاق في انهيار » وانهيار في انزلاق ، في زلزال ، مساكن في انهدام ، وانهدام في المساكن ، في المحلات ، في ..

وبقي الانهيار منتصرا ، وتم الترحيل واسكان المنكوبين في المغارات . تمنيت لو كان بي امكانيات ابقاء المساكن قائمة ، وبقاء السكان فيها لفعلت . ولكن فقدت صوت الاطفال وصراخهم والعابهم . أصبحت وحيدا .

حديث التراب :

آه .. وأنا مسكين .. تراب في باطني ماء . وأنتم تعرفون يا أحبائي انه لا يمكنني الصمود في وجه الماء . ولذلك عندما غمرني تفتتت وأخليت له السبيل ، لاني أضعف الضعفاء ، واليكم ، اليكم يا أحبائى أوجه حديثي ، واليكم أوجه هذا النداء .

اليكم يا أحبائي ، الى كل من بنى مسكنا فوقى ، عزائي . وليس لي أكثر من العزاء والدموع ، ولكنني لن أبكي . لانني لو بكيت لأضفت كمية جديدة من المياه ، وبذلك يزيد الخطر . يا أحبائي أنا لن أموت لاني موضوع حديث الكثير غيركم ، ولن أفنى لانني تراب ، والتراب لا يفنى ، وأخبركم بأن مساكنكم ما زالت تنهار ، وينتظر انهيارها جميعا . هكذا تقول تقارير المهندسين ، وتقول أيضا بأني غير صالح تماما للبناء ، ولكن أنا لم أكن أعرف ذلك والا لكنت حذرتكم من قبل .

آه ..

يا أحبائى هل تصدقون قولى ؟

قصة قصيرة

الشبح

حرز الله محمد صالح

١ ـ غفوة :

توقف طارق عن السير فجأة .. تعلقت عيناه بفيللا عملاقة أنجزت حديثا .. حملق فيها مليا ثم جلس على الرصيف يراقبها .. ظل متجمدا في مكانه لحظات ، ثم بدأ يعد النوافذ .. تصور ان شعبا بأكمله يسكن هذه الفيللا ، وبينما هو كذلك اقترب منه طفل وقال :

ـ ماذا تفعل هنا ؟

ـ لا شيء .

ـ لماذا تنظر الى فيلتنا ؟

ـ (......)

تأمل مليا ثيابه النظيفة .. دارت عيناه في محجريهما .. لاحت له أمه وهي ترتب اخوته التسعة في غرفتهم الوحيدة الكبيرة جدا .. ضم محفظته جيدا الى صدره ثم هرول تجاه المدرسة .

٢ ـ غرفة النوم :

ـ لماذا جئت متاخرا ؟

سكت طارق .

ـ قلت لماذا جئت متأخرا ؟

انسكبت الدموع من عيني طارق .

ـ ارجع الى مكانك .

الاطفال يشاهدون المنظر صامتين .

ـ نتابع دراستنا يا أطفال ، والآن صفوا غرفة النوم ..

انغمس الاطفال في الكتابة ، بنما راح المعلم يجول بين الصفوف ، شارد الذهن .

ـ سيدي ، كيف نسمي « الكوافيز » بالعربية ؟

ـ سيدي ، كيف نسمي « الاساندلي » بالعربية ؟

توالت الاسئلة على المعلم .. قطعت عليه حبل التفكير .. لم يكن مستعدا للاجابة على أي سؤال .. كان يستقبل أسئلتهم بلامبالاة ، ولما تمادى الاطفال في الاسئلة صاح فيهم غاضبا وأسكتهم ، وطلب منهم أن يكتب كل واحد ما شاء . استمر في السير بين الصفوف ، وكان يتوقف بين الفينة والاخرى ويقرأ بعض ما أنجز من جمل :

« غرفتنا تطل على حديقتنا الجميلة ... » .

« في كل صباح ترتب الخادم غرفة نومي ... » .

« زرت غرفة نوم صديقي عادل وكانت تتكون من ... » .

هز المعلم رأسه عموديا بحركات بطيئة ، ثم تذكر بأنه لم يدفع لصاحب الفندق ايجار الغرفة . توقف عند

طارق .. تأمل ورقته المليئة بالخطوط المتداخلة والدوائر والامضاءات ثم قال :
ـ لماذا لم تكتب يا طارق ؟
ـ لاني لا أستطيع أن أصف غرفة النوم يا سيدي .
ـ عهدتك تلميذا مجتهدا يا طارق .
ـ ....
ربت على كتفه ثم قال :
ـ حاول يا طارق .
ـ سأحاول يا سيدي .

٣ ـ محو البطالة :

ـ أطال الله عمرك يا سيدي ، فأنا اب لعشرة أطفال ، وقد فصلت من عملي لكبر سني .
ـ استمع جيدا .. حذار ان يقترب الاطفال أو المتسكعون من السور فيلطخوه كما سبق أن فعلوا .
ـ لا تخف يا سيدي ، ونم مطمئنا .. فسأسهر من أجل هذا .
ـ في النهار يمكنك أن ترتاح لاني لا أحتاج اليك الا في بعض المسائل الخفيفة .
ـ شكرا يا سيدي .
(ثم أضاف) :
ـ لي طلب عندك يا سيدي !
ـ ما هو ؟
ـ هل يمكن لابني أن يقوم بحراسة الناحية الشرقية ، فأنت تعرف بأن المعيشة ...
ـ لسنا في حاجة الى ذلك ، فالكلاب تحرسها ، ثم لا تضيع مستقبل ابنك ، فاتركه يكمل تعلمه .
ـ كما ترى يا سيدي .

٤ ـ حوار عابر :

ـ كلما مررت من هنا تذكرت أغنية « نجم » .
ـ ماذا تعني ؟
ـ « شيد قصورك على المزارع ... » .
ـ اما انا فأتذكر أغنية أم كلثوم « يا مسهرني » .

في هذه اللحظة كان يمر حذوهما شيخ ، التقط حوارهما فقال :
« اللي اشوف للسماء اطيح ششيتو » (٨) .

انطلقت منهما ضحكة مدوية رددتها أسوار القصر العظيم ، ثم سرعان ما ذابت مع الانحدار ، وحل محلها صمت جنائزي .

٥ ـ هامش :

بعدما أنهى طارق الفترة المسائية جمع أولاد الحارة الذين لم يكتبوا موضوع الانشاء وأعطاهم قطعا من الفحم والتعليمات اللازمة ، وراحوا يرسمون غرف نومهم على السور الابيض العظيم .

٦ ـ النصيحة :

الاب لابنه :
« صاحبك جيبك » .
« النعمة نقمة » .
« ان مع العسر يسرا » .
« ان الله مع الصابرين » .
« وقل لا يصيبنا الا ما كتب الله لنا » .

٧ ـ الدرس :

المعلم : من يشرح لي العبارة التالية :
« الثورة من الشعب والى الشعب » .

أحد التلاميذ يجيب :
ـ المقصود يا سيدي الثورة منا والينا .

ثم أجاب طارق :
ـ الثورة منه واليه يا سيدي .

انفجر التلاميذ ضاحكين . فصاح المعلم غاضبا :
ـ ماذا قلت يا طارق ؟
ـ الضمير الغائب يعود على ...
ـ يعود على من ؟
ـ عليه يا سيدي .
ـ من ؟
ـ الشعب .
ـ احسنت . (ثم أضاف) : انسبوا العبارة الآن الى صيغة المتكلم .
ـ الاولى أم الثانية يا سيدي ؟
ـ كما تريدون .
ـ الى الماضي أم الى المستقبل ؟

لم يستطع متابعة أسئلتهم المتهاطلة ، فوضع رأسه بين يديه وسكت .



(١) اطيح ششيتو : تسقط قبعته .

دق الطبل

مسرحية

أحمد بودشيشه

الشخوص :

١ ــ ثلاثة رجال
٢ ــ ثلاث نساء
٣ ــ أربعة أطفال
٤ ــ عجوز
٥ ــ شاب
٦ ــ شرطي .

المنظر الاول :

(فضاء واسع الارجاء .. تطل عليه عدة أبواب غرف متقابلة ، تظهر وسط الفضاء عجوز ، تقوم برش المكان بالماء ، ثم تعقبه ماسحة برقعة من الكتان . ثلاثة اطفال يروحون ويغدون في الفناء ، غير مكترثين لتبرم العجوز منهم، وتتوقف عن المسح) .

العجوز : آه .. اف من هؤلاء الاطفال ، كلما نظفت جهة واتجهت الى أخرى وجدت الاولى قد عاثوا فيها وسخا كأن لم أمرر بيدي عليها .
(تظهر المراة الاولى وهي مكلفتها بالتنظيف)

المراة ١ : (تعقب الفناء بنظرة فاحصة) مالي اراك أيتها العجوز قاعدة ولما ينته التنظيف بعد ؟

العجوز : ما حيلتي انا اذا كان ...
(يمر طفل ، وهو ابن المراة ، فيعبث برجليه على المنشفة التي تستعملها العجوز في التنظيف)
أنظري يا سيدتي .. انظري .

المراة ١ : اذا كنت غير قادرة على العمل قولي لي حتى أبحث عن امراة ثانية . هه ..

العجوز : انا لست مقصرة أيتها المراة .. لكن ...

المراة ١ : (متبرمة من حديث العجوز) ولكني لم آت بك للدعة والراحة . لتفهمي ذلك !
(تسمع دقات طبول .. يخرج الاطفال الثلاثة راكضين) .

العجوز : أمرك سيدتي ..
(تقوم .. وتستأنف العمل)
(متفحصة المكان باحثة عن الاطفال) لقد خلا المكان من ضجيجهم . الى أين ذهبوا يا ترى ؟
(تتوالى دقات الطبول من الخارج)

المراة ١ : (تعود متفحصة المكان) آه .. انك نشيطة أيتها العجوز ..

العجوز : يعود الفضل الى اطفالكم أيتها السيدة .

المراة ١ : كيف ؟..

العجوز : (تكاد تفرغ من التنظيف) لقد تركوا لي حرية التنظيف ولم يعوقوا جهودي .
(صوت الطبل يأتي من الخارج)

المراة ١ : لم يعوقوا جهودك ؟.. لم أفهم أيتها العجوز . هلا أفصحت ؟

العجوز : اتسمعين دقات الطبول التي تأتي من الخارج ؟
(تسمع دقات الطبول)

المراة ١ : أجل اني أسمعها . من يقوم بذلك ؟

العجوز : انه بوسعدية ..

المراة ١ : آه .. (تهرول الى الباب الخارجي للفناء لتطل على بوسعدية) كم كنت مولعة به وانا طفلة صغيرة ... لا شك انه اغرى الاطفال بالتفرج، لذلك تركوك تكملين عملك براحة ويسر ...
(صمت) انظري .. انظري ان الاطفال متحلقون به .. ان الزهو طافح على وجوههم .

العجوز : (تطل من حيث تطل المراة) أجل ، لقد افعمت قلوبهم بالسرور.. آه .. لو يستمر هذا الحال.

المراة ١ : يستمر ؟! (تلحظ العجوز) ماذا تقصدين ؟

العجوز : قصدي واضح يا سيدتي .. تمنيت لو يستمر هذا الرجل في زيارة الحي حتى ...

المرأة ١ : أجل .. هل يستمر في المجيء ؟.. سؤال هام جدا .. (صمت) ما العمل لو يكف عن ذلك ؟
(تعودان الى مكانهما الاول)

المرأة ٢ : أين الاولاد ؟.. الى أين ذهبوا ؟ (تفتش في الفناء) .

المرأة ١ : لقد خرجوا ..

المرأة ٢ : خرجوا .. الى أين ؟ (صمت) .. ما هذه الطبول التي أسمع دقاتها ؟

المرأة ١ : انها هي التي أغرت الاطفال بالخروج . أنظري من خلال كوة الباب لتري الحقيقة بنفسك .
(تتجه المرأة ٢ الى الباب)

المرأة ٣ : (تخرج من غرفتها) سعاد .. سعاد .. أين ذهبت ؟

العجوز : (وهي تجمع آلات المسح والتنظيف) خرجت .

المرأة ٣ : خرجت .. (تلحظ العجوز بشزر) من أخرجها ؟.. (صمت) أنت أيتها العجوز ؟

المرأة ١ : انظريها خارجا لتعلمي سبب الخروج .

المرأة ٣ : (للمرأة ١) انك تدافعين عنها ، لانها خادمتك.

المرأة ١ : كلا .. كلا .. أنت مخطئة يا جارتي ..

المرأة ٢ : (واقفة على عتبة الباب) تعالي .. أنظري كم الاطفال سعداء ..
(تهرول المرأة نحو الباب .. تنظر من خلاله الى الخارج ..)

المرأة ١ : أخشى أن يصيبهم أذى من هذا الرجل ..

العجوز : لا تخشي يا سيدتي . الرجل مسالم لا يؤذي أحدا ما لم يؤذ ..
(تعود المرأتان)

المرأة ٣ : حقا ان أولادنا لم يفرحوا كهذا اليوم ..

العجوز : (للمرأة) لقد فرغت من عملي .. هل يمكنني الانصراف ؟

المرأة ١ : يمكنك ذلك ...
(تخرج العجوز)

المنظر الثاني :

(عين المنظر الاول . النسوة مجتمعات تتبادلن الحديث ..) .

المرأة ٢ : لم أتمتع بالراحة أبدا كهذا اليوم الاغر في حياتي منذ أن تزوجت وصرت أما ..

المرأة ١ : كلنا شعرنا بهذا ..

المرأة ٢ : حتى العجوز قد فرغت من عملها بسرعة لم أعهدها فيها طوال هذا الاسبوع الذي كان فترة اختبار بلا شك .

المرأة ١ : حقا يا أختاه. لقد ضقت ذرعا بها في أول الامر.

المرأة ٢ : طالما ألححت عليك بطردها واستبدالها بخادمة أخرى نشيطة ..

المرأة ١ : أجل لقد قلت لي ذلك .. وكدت أذعن لطلبك وأوقفها عن العمل لولا هذا اليوم .

المرأة ٢ : لولا بوسعدية الذي ألهى أطفالنا ، واستغلال العجوز لهذا الظرف لاظهار قدرتها في العمل لطردت من هذا البيت .

المرأة ٣ : لكنها انتصرت وحازت على رضانا جميعا ، بعد نفورنا منها واشمئزازنا من خمولها .

المرأة ١ : يبدو ذلك من خلال حديثكما .

المرأة ٢ : أجل انها لكذلك ..

المرأة ٣ : وأنا أيضا ..

المرأة ١ : أغتنم هذه الفرصة اذن لاجدد لكما طلبي فيما اذا رغبتما في استخدامها لتصبح خادمتنا جميعا .. وبهذا نكون قد تفادينا مشكل تعدد الخادمات اللاتي سيجلبن لنا صداعا نحن في غنى عنه . ما رأيكما ؟

المرأة ٢ : أنا قبلت بذلك

المرأة ٣ : لنرسل في طلبها لنبلغها ذلك .

المرأة ٢ : انها ستفرح كثيراً بلا شك . وقبولكما هذا سيجعلها تكف عن القول في ان لها بيوتا كثيرة تنتظر خدمتها .
(يضحكن جميعا)

المرأة ٢ : قبل الارسال في طلب العجوز ، خطرت في بالي فكرة لعلها تظفر بقبولكما .

المرأة ١ : أذكريها ..

المرأة ٢ : لقد قلت في قرارة نفسي لو يستمر هذا اليوم ... الا تريان مني اننا تمتعنا باجتماعنا هذا وقلنا أشياء كثيرة وفصلنا فيها دون ازعاج؟

المرأة ٣ : حقا ، لقد شعرت أنا الاخرى بهذا التغيير .

المرأة ١ : (للمرأة ٢) أفهم ان لك فكرة تودين الافصاح عنها .. ما هي ؟
(صمت)

المرأة ٢ : في الحقيقة لا أنكر ذلك . ولكن فكرتي تبدو مستحيلة نوعا ما (صمت). مستحيلة التحقيق .

المرأة ٣ : هلا عرضتها علينا ؟

المرأة ١ : أواه .. لا .. لا يمكن أن تتحقق ..

المرأة ٢ : وهل فهمت ماذا كنت أريد أن أقول ؟

المرأة ١ : طبعا ..

المرأة ٢ : هل رأيت كم هي مستحيلة التحقيق ؟

المرأة ١ : أجل .. أجل .
(فترة صمت) .

المرأة ٣ : اذا كنتما قد فهمتما شيئا، فالامر يختلف معي.

المرأة ١ : ألا ترين معي ان تكرر مثل هذا اليوم لا يكون الا بتكرار مجيء بوسعدية الى الحي ؟

المرأة ٣ : لقد فهمت الآن .. لكن هذا أمر سهل .
المرأة ١ : سهل !!
المرأة ٢ : نحن يا أختاه أحوج ما نكون لاعطائنا فكرة تجعل هذا اليوم يتكرر علينا ..
المرأة ٣ : المسألة تكمن في امكانية اتفاق بيننا وبين بوسعدية .
المرأة ١ : اتفاق .. ومن يقوم بذلك ؟
المرأة ٢ : لي فكرة ..
(تتلهفان لسماعها)
المرأة ١ : افصحي .. افصحي .
المرأة ٣ : ايه .. قولي .. أسرعي .
المرأة ٢ : (متفكرة .. تدور رائحة غادية في الفناء) العجوز .. أجل .. العجوز .
المرأة ١ : العجوز ؟
المرأة ٢ : العجوز .. أجل . لقد غابت عن بالي .
المرأة ١ : لم أفهمكما .. افصحا .
المرأة ٢ : حينما نبلغ العجوز قبولنا على أن تخدمنا ، نعرض عليها أن تتفق مع بوسعدية .
المرأة ١ : أن تقوم العجوز بابرام اتفاق معه ؟ يا لها من فكرة شيطانية ! (صمت) .

المنظر الثالث

(بيت المرأة ١ . المرأتان ٢ و ٣ لم تدخل العجوز الخادم) .

المرأة ٣ : (تستأنف الحديث الذي توقف وهن في الفناء) اتتوسمان القدرة في هذه العجوز على القيام بابرام هذه المعاهدة ؟
المرأة ٢ : ولم لا ؟ انها اتفاقية بسيطة لا تحتاج الى جهد .
المرأة ١ : وهذا شرف تحصل عليه العجوز من حيث لا تدري .
(تدخل العجوز .. متظاهرة بالتعب)
ها هي ذي العجوز قد حضرت .
العجوز : لقد أسرعت في الحضور ، فلا تلمنني اذا ابطات عليكن .. هه .
المرأة ١ : ما نحن بلائمات لك يا عجوز الخير .
(يجلسنها بينهن)
المرأة ٢ : أنت رسولتنا أيتها العجوز .
المرأة ٣ : كما أضيف الى ما قالته جارتي اننا اخترناك خادمتنا جميعا ، فمن اليوم فصاعدا تستقيلين من اعمالك الاخرى المبعثرة هنا وهناك .
العجوز : رسولة .. وخادمة .. انه لشرف عظيم .. هلا شرحتن لي ذلك ؟
المرأة ٢ : لقد اتفقنا نحن الثلاث الموجودات أمامك على اختيارك رسولة بيننا نحن والرجل بوسعدية .

العجوز : بينكن وبين بوسعدية .. ولم ؟
(صمت)
المرأة ١ : ليقوم بدور تمثيلي بسيط . (صمت) . ليكن مهرجا اذا جاز لنا أن نسميه هكذا . يكون مصدر انشغال أولادنا حتى لا يزعجونا .
المرأة ٢ : وعندما يكون أولادنا منشغلين بهذا المهرج الذي يدعى بوسعدية ، يسهل علينا أن نتمتع براحتنا ، وقعدتنا هذه .
المرأة ٣ : كما يخلو لك أنت الجو لتقومي بعملك الذي تضاعف ثلاث مرات بقبولنا لك خادمة لنا .
المرأة ١ : هل فهمت ؟
العجوز : اجل .. (فرحة ، مغتبطة) أجل . لقد فكرت في هذا كله ولكنني لم أجرؤ على مفاتحتكن به خوفا من الطرد .
المرأة ٣ : لقد حصل خير أيتها المرأة العجوز . والآن ، هل انت جديرة بهذا العمل ؟
العجوز : لا أزعم ذلك ما لم أنجح في مهمتي .
المرأة ١ : اعتبري نفسك رسولة من هذه الساعة .
المرأتان ٢ و ٣ : (بصوت واحد) وخادمة لنا أيضا .

المنظر الرابع :

(غرفة تكاد تكون مقفرة من الاثاث . شاب يغط في النوم ، يتعالى شخيره)

العجوز : (تمضي الى الشاب . تصكه بقدمها على مؤخرته ، فينتفض مذعورا) . استيقظ أيها الولد الكسول .. قم . قم أيها السكير .
(الشاب يبقى مبحلقا فيها)
انهض .. انهض .
الشاب : (يعود الى الاضطجاع) دعيني أنم أيتها العجوز التي هي أمي .
العجوز : قم .. (تضربه برجلها) قم . لقد اصطدت لك لقمة سائغة ، سقطت من السماء ..
الشاب : (ينهض) من السماء ؟! أولم تعثري عليها في الارض ؟
العجوز : لا تسخر مني أيها الابله ..
(تخرج ورقة نقدية تساوي مئة دينار)
خذ ..
الشاب : (يقف) ما هذه ؟.. (يأخذ الورقة النقدية ، يتفقدها جيدا) ما عهدتك كريمة وسخية . حقا .. لو لم تهبط لك من السماء لما تصدقت بها عليّ ..
العجوز : كفى هذرا .. اخرج الى السوق وابتع لنا طبلا كبيرا ..

الشاب : طب ... لا ؟.. مممم .. ماذا نفعل به ؟ هه ! (ناظرا الى الورقة النقدية) لقد حسبتك أعطيتنيها .. (صمت) ما من شك .. (يدنو منها) ما من شك انك تمزحين !

العجوز : كلا .. اني جادة فيما أقول أيها الولد الذي هو ابني .

الشاب : لكن .. لا انت ولا أنا من يجيد الضرب عليه .

العجوز : لا يهم ذلك . الضرب أو عدمه لم يندرج ضمن الشروط المتفق عليها .

الشاب : الشروط المتفق عليها ؟ هل هناك شروط تتعلق بهذا الطبل ؟

العجوز : أجل ..

الشاب : هلا ذكرتها لي ؟

العجوز : ليس الآن .. اذهب الى السوق وابتع ما أمرتك به .. هيا ..

الشاب : (ذاهبا . ثم يتوقف عند الباب) ماذا نفعل بهذا الطبل ؟ (يعود) هل فكرت جيدا فيما أنت مقدمة عليه ؟ لماذا لا تتصدقين بها علي ؟ هه ! (العجوز تنظر اليه شزرا دون أن تنبس بكلمة) كما تشائين . (يمضي ، ثم يتوقف عند الباب)

العجوز : ان وقتنا ثمين لا ينبغي أن تضيعه في التردد .

الشاب : (يعود الى مكانه . يضطجع) خذي نقودك ..

العجوز : ما الذي أصابك أيها الولد ؟

الشاب : رجال الشرطة السريون يترصدونني في كل مكان . فلا أخالني أنجو من قبضتهم لو ذهبت الى السوق .

العجوز : صحيح .. لقد سهوت عن هذا . دع الطبل لي . ولكن استعد لشيء آخر سأكلفك به .

الشاب : بشرط ..

العجوز : ما هو ؟..

الشاب : أن يكون المكان الذي تدفعينني اليه آمنا ..

العجوز : هذا الموضوع لا يحتاج الى نقاش ، فأنا اكثر منك حذرا .. (صمت) أنا أذهب الآن .. (تهم بالخروج)

الشاب : انتظري .. ثمة شيء لم تطلعيني عليه .

العجوز : لست أفهم ..

الشاب : بمَ يتمثل دوري . أيتها العجوز التي هي أمي ؟

العجوز : طبال .. أيها الارعن الذي هو ابني . (صمت) .

الشاب : طبال .. لكني لا أحسن مهنة التطبيل !

العجوز : لقد عيل صبري . أف منك . ألا تستطيع أن تفعل هكذا ؟.. هكذا .. (تخبطه على ظهره عدة مرات كأنها تفعل ذلك بطبل) .

الشاب : كفى .. كفى . لقد فهمت .. فهمت . (متوجعا) كم أتقاضى على ذلك ؟

العجوز : لم أتفق على الثمن . لكن اطمئن ، لن يقل عن مئة دينار .

الشاب : مئة دينار ؟ آه .. لم أكن أحلم بهذا قط . ما أخالهم يقبلون .

العجوز : من ؟..

الشاب : الذين تم الاتفاق معهم .

العجوز : أبله .. ثمة من هو أبله منك ..

الشاب : (منفجرا ضحكا) طرفة تغري بالضحك .

العجوز : بل هي الحقيقة ..

الشاب : أنا لا أضحك الا لشيء واحد فقط .

العجوز : وهو ؟

الشاب : اني لست الابله الوحيد في هذا العالم الذي كثر فيه الحذاق .

العجوز : لا أخال هذا المبرر كافيا لتتهرب من المهمة التي كلفت بها . استعد للعمل . (تخرج) .

الشاب : (وحيدا) اني لا أكاد أصدق ما أنبأتني به هذه العجوز الخرفة . أيوجد ثمة من يريد أن يصدع رأسه بالقرع على الطبول دون نظام ؟.. لكن.. أووه .. لينهر كل شيء ، ويذهب الى الجحيم .. (ضاحكا .. ثم منقطعا عن ذلك فجأة) حسبي المئة دينار ! (يعود الى النوم) .

المنظر الخامس :

(النسوة الثلاث ، العجوز .)

(يستقبلنها نافدات الصبر)

المرأة ١ : ايه ، هل أثمر مسعاك ؟

المرأة ٢ : أرى علامات الفرح طافحة على وجهك يا عجوزتنا ..

العجوز : لقد صدقت . ما من امر أتدخل فيه شخصيا ولا يثمر .

المرأة ٣ : نجحت اذن ؟

العجوز : اجل ، ولكن بصعوبة .

المرأة ١ : ماذا يعني ذلك ، هل رفض ؟

العجوز : كلا ، لم يرفض وانما كانت شروطه ثقيلة نوعا ما ، لا يمكن احتمالها .

المرأة ٢ : هلا أنبأتنا عن هذه الشروط ؟

العجوز : (شبه خائفة) لا اخفي عليكن ، اذ تجرات بالاتفاق معه على شرط ، اظنه معقولا . لا تلمنني على ذلك ، كنت مضطرة للقبول لانه كان ثمة من يزاحمني عليه ، والقبول بكل الشروط دون قيد .

المرأة ٢ : أتراه قد عزف عنا ؟

العجوز : كلا .. كلا . لقد كان رجلا أصيلا . اذ لم يقبل سماع أي شرط آخر لانه اشترط وتم قبول ذلك معي .
المرأة ١ : يا له من رجل اصيل فعلا !
المرأة ٢ : أذكري لنا شرطه يا عجوزتنا .
العجوز : ثمة شيء آخر قاله لي ..
المرأة ٣ : أسمعينا اياه ..
العجوز : حين علم اني وكيلتكن . اخبرني ان أبلغكن انه لا يضطركن للقبول بشرطه .. فانتن حرات بقبوله أو نبذه على السواء اذا كان لا يتفق مع قدرتكن المادية .
المرأة ٢ : لا نظن اننا نرفض شرطه وهو على هذه الخصال الحميدة .
المرأة ١ : همنا الوحيد هو أن يعتني بأولادنا فقط .
العجوز : لا أخال رجلا مثله يفرط في فلذات كبدكن اذا أمن على عيشه منكن .
المرأة ٣ : أذكري لنا الشرط . لقد نفد صبري .
العجوز : كان من الضروري أن ابلغكن ما أفضيت به له . والآن في ميسوري أن أطلعكن على الشرط .
المرأة ٣ : أوووه ... اسرعي .
العجوز : لا يغرب عنكن انه يحصل من مهنة التطبيل والرقص بما قدره ألف دينار يوميا ...
المرأة ١ : الف دينار ؟
المرأة ٣ : هذا كثير .. كثير . زوجي الناجر لا أحسبه يحصل عليها .
المرأة ٢ : وانا أيضا لا أظن زوجي يمكنه الحصول على هذا المبلغ من صناعته .
المرأة ١ : قالت الحجرة للطوبة : أنا انبللت . فردت الطوبة قائلة : أنا أصبر !. اذا كانت تجارة وصناعة زوجيكما لا تحصلان على هذا المبلغ . فكيف ينالها زوجي المثقف المسكين ؟
العجوز : ومن قال لكن انه اشترط عليكن هذا المبلغ ؟
المرأة ٢ : هل ثمة شرط آخر ؟
العجوز : أجل .
المرأة ١ : يا لك من عجوز حضيفة العقل .
العجوز : لقد ذكرت لكم المبلغ الذي يتقاضاه يوميا حتى تتأكدن من قناعته حين تسمعن شرطه .
المرأة ٣ : ايه .. كم ؟
العجوز : مئة دينار فقط ..
المرأة ١ : فقط .. فقط .
العجوز : مع شرط آخر طفيف .
المرأة ٢ : ما هو ؟ هه .
العجوز : أن تؤمن له مأكله ومشربه وكسوته .
المرأة ١ : عن مأكله ومشربه ، فهذا أمر سهل . اما عن كسوته ...
العجوز : لتكن شهريا .
المرأة ٢ : لا ضير في ذلك . على الاقل من جهتي .
العجوز : لا تستكثرن عليه هذا الشرط ، فلا يغرب عن بالكن انه كان يتقاضى ألف دينار يوميا .
المرأة ١ : ثمة شك ساورني وانت تدلين بشروطه .. لا أفهم كيف يرضى بهذا الشرط اليسير وهو في غنى عنه ؟
العجوز : ان اللقمة مضمونة لخير من مائة تأتي بعد عسر شديد . (صمت) هل أعد صمتكن هذا رضى بالشرط ؟
النسوة الثلاث : (معا في صوت واحد) أجل ..
العجوز : أبلغه اذن قبولكن . (تخرج) .

المنظر السادس :

(العجوز والشاب)

العجوز : (تمسكه في ظهره) قم .. قم .
الشاب : انت ...
العجوز : استعد للعمل . هيا قم . (تخرج) .
الشاب : خرفت العجوز .. (يعود للنوم) .
العجوز : (حاملة طبلا . وبعض الثياب) خذ .. البس هذه الثياب .
الشاب : (ينظر الى الطبل) وهذا الطبل الكبير ..
العجوز : أداة العمل ... قم .
الشاب : لكني لا أحسن القرع على هذه الآلة :
العجوز (نافدة الصبر) اخرس . سأريك كيف تعمل . تأخذ الطبل) أربط لي الحزام . (يفعل ما أمرته به) انتبه الي جيدا .. (تقرع على الطبل بغير نظام ، وتنخرط في الرقص في منظر ساخر) .
الشاب : (ينفجر ضاحكا) كم تبدين جميلة يا عجوز !
العجوز : اخرس . خذ الآن ، ارتد هذه الثياب التنكرية حتى تبدو مثله .
الشاب : مثل من ؟ هه !
العجوز : مثل بوسعدية . (يرتدي الثياب التنكرية . تربط له حزام الطبل ..) اقرع الآن ..
الشاب : (يقرع على الطبل بصوت مزعج ، ومضحك) أما قلت لك اني لا أحسن ....
العجوز : اخرس .. سأذهب الآن وأرسل اليك الاطفال. (تخرج) .
الشاب : (لم يتوقف عن الرقص) عجوز مجنونة ... (يخرج الورقة النقدية) آه منك . (يخاطب الورقة النقدية) من أجلك أفعل كل شيء ولو طبالا . (يرقص ويغني) .

المنظر السابع :

(النسوة الثلاث . بعد شهر)

المرأة ١ : لقد تأزمت حالنا .. أما من مخرج ؟
المرأة ٢ : مخرج .. بعد ماذا ؟
المرأة ٣ : أي مخرج بعد أن جنّ أولادنا ؟
المرأة ١ : شهر ونحن في غفلة ..
المرأة ٢ : شهر من السقم الذي سرى فينا ..
(يدخل الاولاد وهم يرقصون ويغنون) .
المرأة ١ : هذا ابني مراد .. (تحتضنه لكنه يعزف عنها) انه لا يعرفني (تحاكي المرأتان ٢ و ٣) .
المرأة ٣ : اين العجوز .. اين ؟
(العجوز تخرج من احدى الزوايا)
العجوز : ها انذا .. ماذا تريدين سيدتي ؟
المرأة ٢ : (بعصبية) ماذا جرى لاولادنا ؟.. ماذا جرى ؟
العجوز : (تريد التخلص من المرأة لكنها لم تقدر) لم يجر لهم شيء .. انه الفرح .
المرأة ١ : الفرح ؟! الجنون تسمينه فرحا ؟
العجوز : الفرح مثل الجنون تماما ، كلاهما شيء واحد مع فارق طفيف . (الاطفال يرقصون ويغنون) انها نشوة الفرح !!
المرأة ٣ : ماذا اقول لزوجي ؟ سيطلقني ! سيطردني !
المرأة ٢ : ابني .. رشيد . (يصفعها الطفل) أتصفعني ؟ (تسدد له صفعة) افطن .. افطن . (يسقط على الارض ، وهو يرقص) . ابني .. ابني .. هلمّ لي (تمضي العجوز نحو الباب خارجة) .
المرأتان ١ و ٢ : قفي .. الى أين ايتها العجوز الخرفة ؟
المرأة ٢ : لن تفلتي من يدي لو حدث مكروه لابني .
(تعود العجوز)
العجوز : وما جريرتي أنا ؟ أنا مثلكن .
المرأة ١ : الى أين كنت ذاهبة ؟
العجوز : اليه ..
المرأة ١ : احضريه .. اليّ ..
المرأة ٢ : اسرعي .. اسرعي .. احضريه فورا .
(تخرج العجوز مهرولة) .
المرأة ٢ (تنهض ابنها من على الارض) قم يا ابني قم .
المرأة ١ : واكارثتاه ...
(يسمع قرع على طبل) .
المرأة ٣ : هو ! لقد جاء .. (تجري نحو الباب .. فتصادف دخول الشاب متنكرا في زي بوسعدية وهو يقرع على الطبل ويرقص) بو سعدية !!
(تعود القهقرى) .
الشاب : ها أنتم ههنا (يلتف به الاولاد ويرقصون) .
المرأة ٣ : ماذا فعلت لاولادنا ؟ هه ! قل . (لا يرد . يتمادى في الرقص) .

الرجل ١ : ما هذا ؟
المرأة ١ : تعال رابح . اسعفنا .. انقذنا من هذا المجنون.
الرجل ١ : ماذا تفعل هنا أيها الرجل المجنون ؟
(الشاب يضحك ويبقى مستمرا في الرقص) مجنون !
الرجل ٢ : (مبحلقا في الشاب والاولاد) ماذا أرى ؟
المرأة ٢ : مجنون .. مجنون ..
الرجل ٣ : (داخلا) وكيف سمحتم له بالدخول ؟ هه !
الرجل ١ : (يمسكه ويحاول اخراجه) انه دخل عنوة على النساء . سأقذف به الى الشارع (يسحبه) .
الرجل ٢ : انتظر .. انتظر . (يتقدم من الشاب . يتفرس فيه جيدا) رجل خطر بلا شك .
الرجل ٣ : انه الرجل بوسعدية ، ليس الا ..
الرجل ٢ : بل انه متنكر في زيه فقط .
الرجل ١ : ما العمل الآن ؟
الرجل ٢ : انا سأخبر رجال الامن عن هذا الرجل . أما أنت (للرجل ٣) لتأخذ الاولاد الى المستشفى.
الرجل ١ : وأنا ؟
الرجل ٢ : احرس هذا المحتال حتى أعود بالشرطة .
(يخرجون) .

المنظر الثامن :

(عين المكان السابق . الشاب مقيد ، الرجل في حراسته ، أما النسوة الثلاث فقد انخرطن في البكاء .)

الرجل ٢ : (يدخل بصحبة أحد رجال الشرطة) تفضل سيدي . (يدنو الشرطي من الشاب) .
الشرطي : وقعت أخيرا .. هه !
الرجل ١ : اتعرفه ؟
الشرطي : أجل انني أعرفه .. ويعرفني جيدا . طالما كانت الشوارع مسرحا لي وله .
الشاب : لم أفعل شيئا....
الشرطي : مهما يكن ، فأنت رجل خطر . لن تفلت هذه المرة .
الرجل ٢ : (للشرطي) أهو محتال يا سيدي ؟
الشرطي : انه ليس وحده ..
الرجل ١ : أيوجد مساعدين له ؟
الشرطي : كثيرون .. كأنهم يولدون ليل نهار .
(يدخل الرجل ٣) .
الرجل ١ : ما أخبارهم ؟
الرجل ٣ : هم في خطر ، أو بالاحرى يمرون بفترة عصيبة في حياتهم .
الرجل ٢ : ماذا كانت نتيجة فحصهم ؟

الرجل ٣ : النتائج الاولى تزعم انهم تناولوا شيئا مسمما.
الشرطي : قل مخدرا ..
الرجل ١ : مخدر ؟.. لست أفهم .
الشرطي : انه رجل يتعاطى المخدرات يا سيدي ..
المرأة ١ : خدعتنا العجوز ..
الرجل ١ : (يصفع زوجته) اخرسي ..
الشرطي : (ممسكا الرجل ١) اهـــدأ يا سيدي ..
(للمرأة) من هاته العجوز ؟
المرأة ٢ : (متدخلة ومجيبة عـــن السؤال) خادمتنـا يا سيدي ..
المرأة ٣ : أجل ..
الشرطي : من يعرف دارها ؟
(لا يرد أحد) .
الرجل ١ : (للنساء) أجبن عن السؤال .
(لا ترد واحدة منهن) .
الرجل ٣ : (مطلا من النافذة) لقد اتت العجوز .. انها عند الباب .
الشرطي : اختفوا جميعا . لا يبق سوى النسوة .. هيا.
(يختفي الجميع) .
(للنساء) استقبلنها كأن لم يكن شيء (يختفي) .
العجوز : (متفرسة في النســوة الثلاث) مالي أراكـن واجمات .. متبرمات ؟..
المرأة ١ : أولادنا ..
العجوز : ما بهم ؟ انهم بخير .
المرأة ٢ : بخير ؟ كيف علمت ؟
العجوز : أوه .. لقد كانت عملية مدبرة .
المرأة ٣ : ماذا تعنين ؟
العجوز : لقد طلب من أولادكن أن يتمارضوا حتى يختبر ثقتكن فيه .
المرأة ١ : فيغشنا ؟ يا لك من منافقة !
العجوز : ومتى كان الاختبار نفاقا ؟ (صمت) كأن لـم تعدن تثقن في ؟
المرأة ٣ : مجرد اختبار فقط كما تقولين ، والآن مـاذا تريدين ؟
العجوز : بوسعدية يبلغكم السلام و ...
المرأة ١ : لماذا السلام ؟ أويريد قضاء حاجة ؟
العجوز : انه مقدم على تنفيذ مشروع ، يقول انه حديقة لاطفالكن ..
المرأة ٢ : ايه ، وبعد الحديقة ؟
العجوز : اقتضت الحاجة طلب أجرة شهر ، ان رفضتن ذلك عددناها سلفة .
المرأة ١ : لكنه لم يطلب منا ذلك ..
المرأة ٣ : لقد جاء واعتذر لنا عن هذا المشروع .
العجوز : هو قال ذلك ؟ (تهم بالخروج) .
الشرطي : انتظري أيتها الحرباء ..

المنظر التاسع :

(يخرج الشرطي من المخبا مصحـــوبا بالرجـــال الثلاثة ، الشاب مقيد ..)

الشرطي : ها هوذا ابنك .. (بو سعدية) المزيف ..
الشاب : أيتها العجوز التي هي أمي . لقد وقعنا مـن فرط غباوتك !
العجوز : أنا بريئة .. لم أفعل شيئا .
الرجل ١ : وأولادنا الذين هم في المستشفى ؟
الشرطي : (يقيد العجوز وابنها) هيا معي أيها المنافقان.
(يخرج) .
(يبقى الرجال الثلاثة ومعهم نساؤهم الثلاث) .
الرجل ١ : (للمرأة ١) استعدي لاوصلك الى بيت ابيك.
الرجل ٢ : وأنت أيضا .. لن تمكثي ساعة أخرى فـي هذا البيت (لزوجه) .
الرجل ١ : هيا .. استعدي .
المرأة ٢ : أنا بريئة .. لم أفعـل شيئا أستحق عليـه الطرد
المرأة ١ : خدعت ..
(تبكيان) .
الرجل ٣ : وأنت (للمرأة ٣) هلا استعددت أنت ايضا ؟
المرأة ٣ : أنا ؟.. (تنخرط في البكاء والعويل) .
(يتأهب الرجال الثلاثة للخروج .. النســوة الثلاث يتعلقن بهم) .
الرجل ١ : نحن ذاهبون الى المستشفى .
الرجل ٢ : يعني هذا اننا حينما نعود نجد البيت شاغرا منكن ..
الرجل ٣ : لم يعد لكنّ مكان هنا أبدا ..
(يخرجون) .
(تبقى النسوة الثلاث . يبكين ..) .

(ستار)

قصة قصيرة

مذكرات جندي في ليلة واحدة

زهير العلاف

الساعة السادسة مساء :

حركة لا تنقطع .. أشكال آدمية غريبة لا تتوقف عن الضجيج .. لغط .. عجلات القطار تحك الارض بقسوة وعنف .. لغات عديدة لم أفهم منها شيئا ..

كانت الرحلة طويلة طويلة .. أحس بالتعب .. اتخيل انني صرخت كثيرا عندما أركبوني القطار .. لم أطلب منهم ذلك .. ولكنهم قرروا من دون أن يسألني أحد منهم عن رايي .. رموني هنا على احدى الارائك .. لم اكن اكثر من كيس أراد صاحبه أن يتخلص منه ..

العرق كان يتصبب من جبهتي .. أسلحتي كانت بعيده عني .. صرخت ، ضحكت ، اكلت .. ولكنني لم اع شيئا .. دوار شديد هو الشيء الوحيد الذي اتذكر الآن . اضاعت الرحلة ملامحي ، واجتثت لساني .. وسلبت كل ما أملك من أسلحة .

احس انني وحيد .. بل لا احس حتى بالوحدة في هذا القطار الواسع الرهيب .. ضحك لي بعضهم ، وضحك مني آخرون ، وثمة من لم يلتفت الي ، بل لم يخسر من أجلي بسمة واحدة .

الساعة السابعة :

ما زالت الملامح غامضة من حولي .. الصدمة يبدو انها كانت شديدة .. بكائي لم يعد يفلح في اثارة الشفقة لدى الآخرين.. ضجيج القطار ، ولغط الناس ، والحركة المستمرة لم تعد تلفت انتباهي.. بدات يداي تتحركان.. نظرت الى اصابعي فاحسست بحركتها للمرة الاولى .. ابتسمت لاول مرة من قلبي لانني بدات ادرك انني موجود .. أفرحني هذا الاكتشاف ، ولكنني عجزت عن التعبير عن فرحتي .. اقترب مني رجل لا أتذكر شكله : ابيض ، اسمر ، طويل ، قصير .. ولكنني ابتسمت له عندما ابتسم لي .. نظرت الى القطار الذي يجرجر عجلاته فهززت راسي .. ولكنني لم احاول أن أسال عن وجهة الطريق ..

الساعة الثامنة :

لا أتذكر شيئا .. حاولت أن أسترجع ما حدث في هذه الساعة ، ولكن الذاكرة ابتلعت كل ما أعرفه عنها.. أذكر انني كنت ـ وقتها ـ لا اميز الزمن .. ولا ادرك ان ثمة ساعة معلقة على الجدار .. تتحرك عقاربها برتابة واستمرار ... ولكن ما نفع معرفتي هذه ؟ اسال نفسي الآن لو كنت اعرف ماذا كنت سأفعل ؟ بعض أصحابي يتأسفون لتلك الساعة .. ولكنني لا اريد أن تتكرر من جديد .. كانت مملة وتافهة .. انظر الآن اليها بغباء

وبلادة .. فهي ليست بالنسبة اليّ اكثر من أي قطعة من أثاث هذا القطار ..

الساعة التاسعة :

بدأت افيق من غيبوبتي شيئا فشيئا .. ولكن الملامح لا تزال مهوشة ، والملامح لم تتضح جيدا .. كنت أرى الاشياء من حولي مكعبة ومربعة ومستطيلة ودائرية ... لم أكن أميز هذه الاشياء ... وانما كانت تبدو مختلطة حينا ، منفصلة حينا .. بيضاء حينا ورمادية حينا آخر ..

بدأت انظر حولي لاميز الاشياء المختلطة هذه .. رأيت عيونا كثيرة حولي ، لا تلتفت اليّ ولا الى غيري.. بل كلها كانت تسعى في ممرات طويلة تبدو لا نهاية لها.. تسعى باستمرار ، تتوقف لحظة لتدور حول نفسها ، ولكنها سرعان ما تعود الى سيرها من جديد ..

صوت القطار لا يتوقف هديره .. والاقدام تتشبث بعناد رغم كل المنعطفات .. أتذكر جيدا انني بدأت أتعود النظرة العنيدة ، عندما مددت يدي لأتلمس المقعد الخشبي ، فوجدته باردا وقاسيا ..

أحسست بشيء من الجوع ، صبرت ، وعندما بدأ يعوي شيء في داخلي ، بكيت . كنت أبكي وأنا أبحث حولي عمن سينجدني .. ولكن أحدا لم يلتفت اليّ .. عجبت فقررت أن أرفع صوتي أكثر . بكيت بمرارة .. ملأت القطار بكاء .. كان الجميع ينظرون اليّ ببلاهة .. يبتسمون بغباء – أو هكذا خيل اليّ على الاقل – لم أفهم ما حدث أول الامر .. ولكنني فهمت بعد ذلك انهم أطعموني عندما كنت ممددا على الكرسي .. كنت – في نظرهم – متعبا وضعيفا وأعزل .. لم يكونوا يطعمونني حبا بل رثاء ..

ما زالت الاقدام تسير في طريقها بتؤدة ونظام .. الاظافر طويلة ، والطرق وعرة ، والقطار لا يتوقف لحظة واحدة .. كانت نهاية الطريق تبدو لي غامضة ، ولكنها غير مهمة .. كنت افكر أحيانا أن : « لا نهاية لها » ..

الساعة العاشرة :

أفقت من الغيبوبة .. أحسست بصحو غريب يغزو رأسي .. سلاحي كان الى جانبي .. تحسسته جيدا .. أصوات غريبة كنت أسمعها .. لم أميزها جيدا ، كانت ثعالب حينا .. وذئابا حينا .. اقتربت من عينين الى جانبي .. تأملتهما .. كان يسكن فيهما رهبة .. نظرت الى أخريين فوجدت هما وأسى .. ثمة عيون كثيرة ولكن واحدة منها لم تبادلني بسمة حقيقية ..

وقفت على قدمي .. بدت الطريق شبه معبدة .. نظرت الى عينيّ فوجدتهما حافيتين .. انتعلت .. رحت أتدرب .. غرست في صدري وعينيّ أكياسا من الجد ورحت أذرع الطريق .. كنت وحدي أبذل كل هذا الجهد ، ماسحا عرقي ، فتعثرت أول الامر .. هيأت أسلحتي .. رحت أسير دائرا ، مستقيما ، صاعدا ، هابطا ، لم اتوقف لحظة واحدة .. كنت في شغل عن هدير القطار .. ولكنني كنت أسمع هديره في لحظات توقفي .. أرجع الى الخلف بذاكرتي ، أبحث عن الحصيلة فاحسّ بالغثيان .. انظر الى الجدران فأرى انها من الصفيح السميك .. كل شيء محكم .. والطريق طويلة .. والمعركة تحتاج الى سلاح محنك .. والى فارس لا تفل قوته ..

الساعة الحادية عشرة :

أنظر الى الخلف .. أحسّ انني قطعت جزءا لا بأس به من الطريق .. أنظر الى الامام فأحس باللانهاية المفجعة .. صخب القطار يشتد ويشتد .. عبوس العيون من حولي تثير الاشمئزاز والضحك .. بل البكاء .. الرياح تدخل من نوافذ لا تبين .. الاقدام تتوقف عن المسير .. الاجساد تتحرك بطريقة لولبية .. أقاوم .. احاول أن أحافظ على توازني .. كل شيء كان يسير الى الامام وباستمرار .. بدت الطريق أكثر وعورة .. قطع من الصوان تسد منافذ الطريق أحيانا . أحاول أن أقفز عليها ، فأفلح حينا ، وأتعثر حينا .. أمواج من المياه تغرق مواطىء القدمين .. ولكنني لا أقع دائما .. واذا وقعت أتشبث بالجدران الحديدية الملساء ..

ما زال الشعور بالغثيان هو احساسي الوحيد ، أسير في الدرب ، أضع كل أسلحتي فوق ظهري .. بدأت أبحث عن النهاية .. من دون أن أصل الى شيء . أقطف ورودا جبلية ، أجمعها باقات ، أرتبها ، ثم أزين بها صدري ورأسي كما يفعل الآخرون .. من دون أن أحسّ انني فعلت شيئا .. ومع هذا كله كثيرا ما تأتي الريح المجنونة لترمي هذه الورود .. لتنثرها هنا وهناك .. فأغرق في ضحك ممزوج بالبكاء .. ولكنني لا أتوقف بل أستمر في سيري وفي جمع باقات الزهور ...

الساعة الثانية عشرة :

أحسّ انني قطعت جزءا كبيرا من الطريق . احساسي به بدأ يتعمق .. كل شيء كان يخلف في شعورا بالمرارة والتفاهة والارهاق .. ولكن ما ذنبي انا ؟ والقطار ما زال يسير .. ويسير .

وهران

مؤتمر تاريخ الامة العربية

افتتح « مؤتمر تاريخ الامة العربية » يوم الاثنين في التاسع من نيسان الماضي في جامعة قار يونس بمدينة بنغازي بالجماهيرية العربية الليبية الشعبية الاشتراكية. وقد ألقى كلمة الجامعة الدكتور عبد الحفيظ الزليتني . ثم القى الدكتور حسين أمين « أمين عام اتحاد المؤرخين العرب » كلمة الامانة العامة لاتحاد المؤرخين العرب ، أشاد بها بهذه المبادرة من قبل جامعة قاريونس ، وأوضح مهام اتحاد المؤرخين العرب والتي حددها في ثماني نقاط . ثم تحدث عن مواقف التخاذل والاستسلام التي يمضي فيها حاكم مصر ، ووصف هذه المواقف بانها انفرادية مرتجلة وصفقة ذليلة خاسرة لا تعبر عن طموحات الامة العربية . واختتم حديثه قائلا : ان على المؤرخين العرب تقع مسؤولية صعبة ولكنها شريفة وخطيرة حيث انهم مكلفون بوضع الخطوط الرئيسية لكتابة تاريخ الامة العربية ودراسة الوضع الراهن .

كلمة امين التعليم

ثم القى بعد ذلك الدكتور محمد أحمد الشريف أمين اللجنة الشعبية العامة للتعليم والتربية كلمة قال فيها :

يسعدني أن أرحب بالاخوة العلماء الذين يشاركون في هذا المؤتمر على أرض الفاتح العظيم .

أيها الاخوة :

من الطبيعي جدا أن يعقد مثل هذا المؤتمر في رحاب هذه الجامعة ، ففي قسم التاريخ بهذه الجامعة درس الطالب الثائر معمر القذافي ، وفي هذه الجامعة تحدث قائد ثورة الفاتح بعد اعلان الثورة الشعبية عام ١٩٧٣ م للطلبة والاساتذة عندما كانوا يناقشون اعادة تنظيم المناهج وتثويرها .. تحدث ونادى بكل قوة بأن يكتب تاريخ الامة العربية على أساس الوضوح والموضوعية وعلى أساس الامة العربية الواحدة . ثم تلت ذلك مؤتمرات كثيرة شارك فيها الاساتذة والطلاب وكان الجميع في كل جامعاتنا ينطلقون في ثورة ثقافية تركز على تاريخ واحد أصيل واضح لهذه الامة العربية . من هذا المنطلق كان ذلك التأكيد الكبير لتاسيس اتحاد المؤرخين العرب الذي يعتمد في نظرنا حدا أدنى في سبيل تحقيق خطوة على طريق طموحاتنا من أجل ثوره ثقافية رائدة .

أيها الاخوة :

يعقد هذا المؤتمر للبحث في موضوعين . وهذان الموضوعان لهما أهميتهما على مستقبل الامة ، ونحن نعيش في أيام هذا المؤتمر مع علماء ومؤرخين لهم تجارب وبحوث رائده في مجالات التاريخ لا بد لنا من أن نقدر كل الجهود التي سوف يديرونها جميعا من أجل توضيح جوانب هذين الموضوعين الهامين .

دراسة الوضع الراهن العربي لا بد أن يعمل على محاولة تغييره الى الافضل ، وتاريخ هذه الامة تاريخ مجيد لتفرده بين الحضارة ، وقد حاول الكثيرون أن يشوهوه بسوء نية من أعداء الامة من خارجها ، وأحيانا بحسن نية وسذاجة من بين بعض أبناء هذه الامة ، ولم يسجل التاريخ في مجال البحث العلمي مغالطات كبرى تعرض لها فكر وحضارة الامم مثل ما تعرض له تاريخ هذه الامة من قبل مؤسسات تدعي الى اليوم بأنها علمية وتبرز الى اليوم في بلاد يقال انها متقدمة . حتى الانسان المحايد يستطيع أن يرى وأن يتعجب وبأسلوب علمي من هذه الظاهرة اللاانسانية التي أوجدت ذلك الحشد الكبير ـ أية أمة وأي تاريخ ـ تاريخ عريق في مثله الانسانية .. عريق في صفحاته المشرقة بالمحبة والعدل والمساواة ، تاريخ أفسح مجالا للانسان الفرد وانطلقت فيه الجماهير المؤمنة بربها تصنع الخير في كل أرجاء الارض لتؤكد احترام الانسان بصرف النظر عن كل ظروفه الاجتماعية والجغرافية .

أقول ان الباحث العلمي المحايد لا بد وأن يتعجب من هذه الظاهرة اللاانسانية والتي تمثل حرصا شديدا

من مؤسسات كثيرة تظهر في كثير من البلاد من حول الوطن ومن نفس الوطن لتسير على طريق التشكيك في مقدرة الامة وتشويه تاريخها . وتجد هذه الافكار صدى عميقا عند الكثيرين الذين لم يدركوا بعد بأن أهواء وأغراضا غير علمية توجد عند مدعي العلم وكثير من دعاة المعرفة بالمؤسسات العلمية في أنحاء العالم ، فهم مثلا سيقولون للذين يقولون بدراسة الوضع الراهن من المؤرخين ، لا تفعلوا ذلك لانها أحداث معاصرة لم تدخل التاريخ واتركوها حتى تصبح تاريخا . وعندما يريدون كتابة تاريخ الامة .. سيقولون لكم انكم تفقدون المراجع والكتب والمخطوطات ولذلك لا تستطيعون ذلك .. هذه مغالطات يعرفها دارس المنطق .. ان البحث العلمي وما يصحبه من موضوعية أمر يختلف باختلاف موضوعات هذا البحث . فالبحث العلمي في مجال العلوم الانسانية يختلف بطريقة كبيرة عن البحث في مجال العلوم الفيزيائية .. هم سوف يقولون لنا بأن الاسلوب العلمي لتاريخ الامة العربية ليس عظيما ولا توجد فيه بطولات كما قرأنا في التاريخ .. لماذا ؟ لانهم يريدون أن ننقص من امرنا ونبتعد عن المثل العليا التي استشهد في سبيلها العشرات والمئات من افراد هذه الامة .. يريدون بأن يشعرونا بأن ما نعرفه من تاريخ لا وقت له .

لماذا كل هذا الحديث ؟ لان التاريخ أمر خطير ، فالانسان في تعريفه هو تاريخ يمشي على قدميه .. ولن يستطيع أن يدرك الى أين يسير ، لذلك ومن هنا جاءت أهمية كتابة تاريخ هذه الامة وتنقيح هذا التاريخ من كل الشوائب التي وضعها المستشرقون وعلماء الانثربولوجيا.

نحن لا نستطيع ان نتأخر .. لاننا اذا ما تأخرنا يوما سوف يكتبون تاريخنا ، وانتم تعرفون المؤسسات الموجودة في الوطن العربي التي تكتب تاريخ هذه الاجزاء . وهي بالنسبة لنا نقيمها على أساس انها مشكورة ، نرحب بها اذا ما كانت تكتبه في اطار تاريخ قومي واحد ، أما الذي نراه فهي مؤسسات تكتب أجزاء من تاريخ الوطن العربي تضع فيه الاسس لمثل اقليمية .

هناك مؤسسات خارج الوطن العربي يصرف عليها بكرم من أجل اعادة كتابة تاريخ الامة العربية وحشوه بكثير من المفهومات وبطريقة ذكية سوف تشوش علينا عقولنا اذا لم نقم بثورة ثقافية .

واليكم مثالا واحدا من كتاب سوف يكون له خطره هو (الهاجرين) من بريطانيا . في الاعداد الثلاثة الماضية سررت كثيرا ان امانة اتحاد المؤرخين العرب كان لها علم بهذا الكتاب ووزعت منشورا تنبه فيه العرب والحكومات الى خطر هذا الكتاب . وارجو أن يتوفر لنا من الباحثين من يستطيعون بطريقة علمية أن يحيدوا كل الشكوك وكل الاخطار الزاخر بها هذا الكتاب ، لان الكتاب وضع برغم من انه مؤلف من شخصية رصينة لكنه يقول بطريقة مغلفة (بأن العرب ليس لهم تاريخ وان اليهود هم الذين أنشأوا الاسلام) . كتب كهذه لا توضع اعتباطا لكنها تمهد لاخطار كثيرة سوف تظهر بين كثيرين من ابناء هذه الامة . ويكفي أن نعرف بأن هذا الكتاب هو تمهيد لخطوط استسلامية سارت فيها مصر .. ونأمل ان لا تسير فيها الدول العربية الاخرى .

لا أريد ان أقدم بحثا ولكنني أريد أن اشير الى ملاحظتين هامتين :

(١) عبارة الاسلوب العلمي الموضوعي الذي يجب أن نتوخاه في كتابة التاريخ هذا .. فهذا الاسلوب لا بد أن يدرس بعناية وتوضح المبادىء والاسس التي يجب أن يلتزم بها الجميع في اعادة كتابة هذا التاريخ. فالموضوعية هي ان نعرف بأن الجماهير هي البداية وهي النهاية في نظرنا في تاريخ هذه الامة ، ومن الموضوعية أن يبتعد العلماء عن اي نظرة لاية سلطة حكومية ولاية عائلة حاكمة ولاي حزب حاكم ولاي طبقة حاكمة ، وأن لا يوضع في الاعتبار الا الجماهير العريضة ، وفي الجماهير تكمن الحرية التي هي الاساس في هذا البحث الذي يشد ماضي الامة ومستقبلها .

(٢) دراسة الوضع العربي الراهن ، ولعل البعض يتساءل : ما هي المعارف التي يجب أن تراعى وتبرز في هذا الوضع الراهن ؟ نحن في الجماهيرية لم ولن نقول في يوم من الايام عن أي شيء بأنه غير جدير بالدراسة والبحث.. كل الانشطة والظروف الاجتماعية والسياسية التي مرت بها الامة في هذا العصر جديرة بالبحث العلمي من طرف العلماء العرب ولكنها دراسة نقدية لا تجامل الا الحق ولا تنظر الا بالعين الناقدة ، وهي محاولة لم تجرب الا على فلسطين ، فهي تمثل في حياتنا نقطة الالتقاء في تجسيد تلك المعاناة التي حاول فيها الانسان العربي أن يتخلص من قيود الاستعمار والتبعية والتخلف .

وقضية فلسطين اليوم تعرضت لاخطر تعرض . لم نعد نشعر بالخطر من استغلال الارض واستعمارها .. لكننا نواجه مشكلة تطويع الانسان العربي من أجل القبول بالاستعمار الاستيطاني ، وهي محاولة لم تجرب الا على الانسان العربي ، والتصدي لها يكون بوعي . واذا ما عدنا الى الماضي القريب فاننا نجد ان ثورة الفاتح العظيمة قد نبهت وخلال أيام حرب اكتوبر نفسها الى خطورة المرحلة التي تقدم عليها هذه الامة . وتأتي الايام لتوضح بأن ما نبهت اليه ثورة الفاتح هو بكل أسف ما انتهت عليه أمة العرب ، كما أشار أمين الاتحاد الى هذه المعاهدة التي وقعها فرد واحد . وعلى الرغم من هذه المواقف لا بد ان نشير الى انه من بين الخطوات الاساسية في مجال التصدي لما يكتنف قضية فلسطين لا بد لنا أن نشير لجهود أخرى قامت بها بعض الدول العربية بعقد

اول مؤتمر للصمود والتصدي في طرابلس لاجهاض المبادرة التي قام بها حاكم مصر . ولعل المؤتمرات العربية التي عقدت بعد ذلك تعتبر انطلاقا على الطريق الذي صنعه مؤتمر الصمود والتصدي .

واذا حاولنا أن ننظر الى ما يزخر به الوطن العربي من أحداث جديرة باهتماماتنا فلا بد لنا أن نعود الى عام ١٩٧٧ م ، حيث ظهر في الوطن العربي أول جماهيرية في التاريخ استطاعت فيها جماهير الشعب العربي الليبي بقيادة ثورة الفاتح العظيمة أن تكون جماهيرية تكون فيها السلطة كل السلطة للشعب ، بعيدا عن الحزب الواحد والاحزاب المؤتلفة والامبراطورية والجمهورية الرئاسية ... هذه ظاهرة جديرة بعناية الاخوة علماء تاريخ العرب ، لانه من خلال هذا الحدث الكبير يمكنهم التعرف على المشكلات السياسية المستعصية التي توجد في الوطن العربي في هذا العصر .

القرارات والتوصيات

انطلاقا من أهدافنا القومية وايمانا منا بأهمية تاريخنا انعقد مؤتمر تاريخ الامة العربية في جامعة قاريونس للفترة من ٨ ـ ١٢ نيسان (ابريل) ١٩٧٩ لمناقشة ودراسة الموضوعين التاليين :

* الوضع العربي الراهن .
* كتابة تاريخ الامة العربية .

واتخذ المؤتمر القرارات والتوصيات التالية :

(١) توجيه الامتنان والشكر الى الاخ العقيد معمر القذافي قائد ثورة الفاتح من سبتمبر العظيمة على مواقفه الوطنية الرائعة ودعمه للمؤرخين العرب .

(٢) يحيي المؤتمر دول الصمود العربية ويؤيد نضالها ضد المحاولات الاستسلامية والامبريالية العالمية .

(٣) يدين المؤتمر بشدة الاتفاقية الاستسلامية الساداتية الصهيونية ويطالب بتطبيق الحد الاقصى من العقوبات التي أقرها مؤتمر القمة في بغداد ضد كل من مصر واسرائيل وأميركا .

(٤) يدعم المؤتمر نضالات الجماهير العربية في فلسطين المحتلة بقيادة منظمة التحرير الفلسطينية الممثل الوحيد والشرعي للشعب الفلسطيني ويشيد ببطولاتها الرائعة .

(٥) يبارك المؤتمر الخطوات الوحدوية بين شطري اليمن وبين القطرين الشقيقين العراق وسوريا .

(٦) يدعو المؤتمر الاقطار العربية الى دعم دول المواجهة ويحيي الحركة الوطنية في لبنان في نضالها من أجل وحدته وعروبته .

(٧) يدعو المؤتمر الجهات المعنية في الاقطار العربية الاهتمام بدعم الاعلام العربي في العالم الخارجي لتوضيح قضايانا المصيرية .

(٨) اقرار تنفيذ اقتراح أمانة اتحاد المؤرخين العرب بكتابة تاريخ الامة العربية ، ويتولى الاتحاد الاشراف الكامل على تنفيذه .

(٩) قيام اتحاد المؤرخين العرب بتكليف الباحثين والمؤرخين العرب من المعروفين بمنطلقاتهم القومية السليمة وكفاءتهم العلمية بكتابة المواضيع التاريخية .

(١٠) تقوم الامانة العامة للاتحاد باجراء الاتصالات مع الحكومات والمؤسسات الثقافية العربية لتأمين التمويل اللازم لانجاز هذا المشروع .

(١١) يقوم الاتحاد بتشكيل لجنة تحضيرية من المؤرخين العرب لوضع الهيكل العام للمشروع .

(١٢) يقوم الاتحاد بتوفير الوثائق والمصادر الضرورية التي تعين الباحثين العرب في كتابة تاريخ الامة العربية .

(١٣) تكلف الامانة العامة للاتحاد بتوجيه نداء الى الوزارات المختصة في الوطن العربي للاهتمام بانشاء مراكز ثقافية في مختلف أنحاء العالم تعنى بالتراث العربي والتعريف به .

(١٤) يوصي المؤتمر اتحاد المؤرخين العرب بالسعي الى اصدار موسوعة عربية اسلامية وأن ينسق مع الجهات المعنية بهذا الموضوع .

(١٥) يوصي المؤتمر الجامعات العربية بضرورة الاهتمام بتاريخ افريقيا .

(١٦) نظرا للاعمال الجليلة التي قام ويقوم بها الاستاذ الدكتور حسين أمين ، الامين العام لاتحاد المؤرخين العرب ، يرفض المؤتمر بالاجماع طلبه بالتخلي عن مهمته وينتخبه مع أعضاء المكتب الدائم بالاستمرار للدورة القادمة وفق نظام الاتحاد .

(١٧) يشكر المؤتمر جامعة قاريونس على كريم ضيافتها وحسن تنظيمها لهذا المؤتمر .

* *

هذا وقد خصصت « الآداب » الصفحات التالية من هذا العدد لأهم الابحاث والورقات التي قدمت الى المؤتمر :

مفاهيم التاريخ في المرحلة القومية المعاصرة

د. زاهية قدورة

لا نكون مبالغين اذا ذهبنا الى القول ان كل ما يكتب اليوم في بلادنا يدخل بشكل أو بآخر في نطاق الكتابة التاريخية . ذلك ان المنطلق الرئيسي في الفكر العربي المعاصر هو منذ سنوات عدة : الصلة بين حاضرنا وماضينا ، ومحاولة رسم صورة لما ينبغي أن يكون عليه مستقبلنا القريب . وطبيعي أن يلعب الموقف الحاضر دورا رئيسيا في النظرة الى الماضي ، ذلك ان الضرورات اليومية والوطنية تواجه الفرد العربي باشكاليات ومصاعب تدفع به بشكل او بآخر الى الاتكاء على الماضي الافضل التماسا للعزاء عن احباطات الحاضر ، أو التماسا لاسباب الفشل في الماضي ، وأخيرا توجهها للفهم الموضوعي للظروف كلها بما فيها من ايجابيات يمكن أن تكون مفيدة في مجال استمرارية الامة العربية وعمق حجمها التاريخي وامكانياتها المستقبلية .

وأود منذ البداية أن أقول ان الموقف الثالث هو الاكثر اثمارا في واقعنا الراهن ، وهو في الوقت نفسه الاقل ظلما للحقيقة التاريخية . ولا شك ان كلا من الموقفين الاول والثاني يتجاهل أمرا أساسيا هو القيمة الذاتية للتراث العربي بغض النظر عن تدخله في الموقف الحاضر أو عدمه . ثم ان التراث العربي (١) الذي يجري استخدامه لصالح هذه النزعة أو تلك يجري قبل ذلك تطويعه وتقويله هذا الامر أو ذاك ، وهكذا فان اللجوء الى التراث العربي سلبا أو ايجابا هو لجوء الى صورة تاريخية متكونة فى أذهان هؤلاء المستفيدين ، تتجاهل الحقيقة التاريخية وتتشبث بصورة تاريخية تعتبرها مفيدة لا متجاوزة القيمة الذاتية للتراث في الوقت الذي لا تتجاوز فيه أيضا حقائق التراث التاريخية .

ان التسجيل النظري القديم الذي قام به مؤرخونا للاحداث السابقة لهم أو المعاصرة قاموا به في ظل ظروف معينة سياسية أو اقتصادية واجتماعية . وما ينطبق على الكتابة التاريخية ، ينطبق أيضا على سائر مناحي النشاط النظري العربي في مختلف الفنون والتخصصات ، وهكذا فاننا عندما ننظر الى الانتاج النظري حول حدث من الاحداث التاريخية علينا أن نضع في اعتبارنا أمورا أربعة : الحدث نفسه ، والارضية السياسية والاجتماعية والاقتصادية والدينية للحدث ، ثم الانتاج النظري حول الحدث ، والظروف التي تم فيها الانتاج النظري في هذا الحدث . ومن الحق أن يقال ان بعض هذه الشروط تتحقق على الوجه الاكمل في كتابات العديد من المستشرقين ، ورجال المادية التاريخية ، والتقليديين ، لكن تم في أكثر الاحيان تجاهل متعمد أو غير متعمد لعدة أمور اضافية تتصل بالمرحلة الراهنة هي : شخصية الكاتب المعاصر وأبعادها الايديولوجية ، وجوانب الموقف الراهن الذي يتم فيه الانتاج عن الماضي ، ثم الوثائق المتوفرة عن الحدث الماضي لدى الكاتب .

والواقع ان هذه الشروط المضافة هي التي تشكل المنزلقات الرئيسية بالنسبة للمعاصرين في الكتابة التاريخية عربا كانوا أم غير عرب . وعلى سبيل المثال فانه لا اعتراض لنا على دراسة ثورة الزنج من جانب مؤرخين كثيرين (٢) رغم ما في هذا الاهتمام من اصطناع احيانا ، لكن لهذا الاصطناع أسبابه التي توضح ما نعنيه بمنزلق استخدام التاريخ لاهداف سياسية واجتماعية حاضرة . فالليبراليون والمحافظون من المؤرخين توصلوا الى نتيجة مفادها ان ثورة الزنج كانت تآمرا صريحا على الدولة الاسلامية لصالح أهداف سرية معادية للاسلام والمسلمين ، هذا فى حين أكد الليبراليون على ان الوسيلة القمعية التى استخدمت ضد الثورة لم تكن هي الحل الامثل . بينما ذهب اليساريون على اختلاف مشاربهم الى محاولة تفسيرها في نطاق « نمط الانتاج الآسيوي » (٣) باعتبارها ارهاصا بنهاية مرحلة المجتمع العبودي أو حتى بدايته ، مشددين على الطابع القمعي والجائر للدولة الاسلامية ونظام الخلافة .

وعندما نعلم ان هؤلاء جميعا استندوا (أو هكذا يفترض) الى تقرير رئيسي عن القضية ورد عند المؤرخ المعروف محمد بن جرير الطبري (٣١٠ هـ) (٤) ندرك ان اختلاف التفسيرات للثورة المذكورة لا يعود الى اختلاف الوثائق المستخدمة بل الى اختلاف المنهج المستخدم

والمصلحة السياسية للكاتب عن ذلك. وما يقال عن « ثورة الزنج » يقال أيضا عن تمرد « بابك الخرمي » الذي رأى فيه أحدهم (٥) انتفاضة وطنية للشعب الاذربيجاني ضد الاستعمار العربي الاسلامي . بينما رأى فيه آخر ناصرا من جانب فئة صغيرة شريرة على العرب والمسلمين (٦) . وهناك تفسيرات معاصرة للتاريخ العربي الاسلامي تشمل كل ما هو تاريخي وهام في ماضينا مثل قيام نظام الخلافة (٧) ومقتل عثمان والصراع بين علي ومعاوية وعلي وعائشة (٨) ، وقيام الدولة العباسية (٩) ، وظهور الدويلات ، والصراع القوي بين المعتزلة والاشاعرة ، والشيعة والسنة ، والنضال ضد الغزو الصليبي والمغولي ، ثم قيام الدولة العثمانية ، والعلاقة بين العرب والترك ، والعلاقة بين العرب والغرب. واشكاليات العلاقات الحديثة والمعاصرة مع الكتلتين .

ومع ان مقولتنا الاولى التي تدين الاتجاهين : التقديسي السلبي أو الذرائعي ، تعتبر تبسيطا أوليا لما يجري على ساحة الكتابة التاريخية ، لكن ذلك لا بد منه في الواقع مهما تجنبنا التبسيط ، لان الاتجاهات السائدة في الكتابة التاريخية عن ماضينا تنحل الى اتجاهين رئيسيين فعلا هما المذكوران سابقا. فالمتدينون والمحافظون يقدسون الماضي بكل ما فيه سعيا نحو عزائية صوفية هادئة أو املا في اعادة التاريخ حيا في واقعهم المعاصر . ولا ريب ان حديثهم عن عمر بن الخطاب أو عمر بن عبد العزيز ليس أكثر من « صورة تاريخية » صلتها بالواقع أو الحدث التاريخي ضعيفة . وبالاضافة الى ذلك فان هذه النزعة تتضمن تسطيحا للتاريخ وتحويلا له الى مجموعة من الاحداث المنعزلة التي يصلها خط النور الالهي التاريخي ، وتختفي فيها السمات الشخصية للافراد ، وخصوصيات المواقف التاريخية المختلفة . ولو ذهبنا نقرأ ما كتبه محمد الخضري (١٠) وحتى عبد الحميد العبادي (١١) ومحمد حسين هيكل (١٢) عن عمر بن الخطاب وعمر بن عبد العزيز لما استطعنا التمييز بينهما لو حذفت العناوين .

ورغم ان أكثر الذين يكتبون اليوم عن تاريخنا ويقومون بالتدريس في جامعاتنا خريجو جامعات غربية متقدمة ، الا انهم رغم ذلك ـ أو من أجل ذلك ـ ما يزالون ـ اذا تجاوزنا الشكل الظاهر ـ يدورون في قالب المقولات التقليدية الناتجة عن نظرة متخلفة الى الكتابة التاريخية ماهية ووظيفية واساليب . حتى أولئك الذين يدينون التراث بشكل أو بآخر لا يتخطون الاسلوب الهجائي الذي لا يقوم على معطيات موجودة تاريخيا بقدر ما يقوم على صورة ذهنية عن الماضي والحاضر والمستقبل تستمد عناصرها من نوازع شخصية أو فهم خاطىء لقضية العلاقة بين حاضر الامة وماضيها .

ولكي يكون الامر واضحا تماما سنتعرض هنا لمنهجين ما يزالان يسودان الكتابة التاريخية عندنا ، بل ان احدهما ساهم في نشأة تصورات معينة لدينا نحن ولدى الدارسين عن التاريخ العربي كله . المنهج الاول هو ما يمكن تسميته بمنهج المستشرقين ، والمنهج الثاني هو منهج الماديين التاريخيين الذي كثر الانتاج في نطاقه في السنوات الاخيرة .

وقد نكون غير دقيقين اذا اعتبرنا « المستشرقين » فئة واحدة ذات مصالح واحدة واتباع منهج واحد (١٣) . لكن ما لا شك فيه ان الدوافع الاولى للاستشراق القديم في أوروبا واحدة . فكما ذكر المؤرخ والمستشرق الالماني « فك » ، كانت البدايات الاولى للاستشراق مع ازدياد الاهتمام الاوروبي بالشرق (١٤) . وبالتالي زيادة المصالح الغربية فيه . وهكذا كانت مهمة المستشرقين الاوائل جمع أكبر قدر من المعلومات عن مواطن المصلحة في الشرق سعيا وراء تنمية هذه المصالح ورعايتها . وفي هذا السياق جاء اسهام المستشرقين البريطانيين في استعمار الهند. والهولنديين في استعمار اندونيسيا (١٥) .. لكن مصالح الدول الاوروبية في الشرق لم تكن متوازية أو متماثلة . كما ان الصراعات فيما بينها كانت تحدث تفاوتا في الادوار ، لذلك فقد كان موقف المستشرقين الالمان أقل مباشرة في علاقاتهم بالدولة العثمانية ، اذ ان الدولة الالمانية الجديدة التي انشئت عام ١٨٧٠ م كانت تريد عبر السلطنة أن تضرب المصالح الانكليزية والفرنسية في الشرق . بالاضافة الى ذلك دخلت اعتبارات دينية في الموضوع لم ترتبط دائما بمشروعات سياسية محددة . فقد اهتم دارسو العهد القديم من الالمان والاميركان بالتعرف على الديار المقدسة والادب العربي سعيا نحو فهم أدق للانجيل بقسميه . هذا في الوقت الذي كان فيه دوتي الرحالة الانكليزي (١٧) وهاليفي الفرنسي (١٨) ، يمهدان لدخول بريطاني وفرنسي الى اطراف الجزيرة العربية من وراء ظهر الدولة العثمانية .

وسار الامران بشكل متواز ، بل كانا يختلطان في كثير من الاحيان كما في شخصية ماسينيون الفرنسي (١٩) وهورغرونيه الهولندي (٢٠) وبيستون الانكليزي (٢١) وبيكر الالماني (٢٢) . وانفرد الالمان من بين المستشرقين تقريبا بالاقبال على نشر كتب التراث العربية الضخمة، فقد نشر دي غوبه (٢٣) وفستنفلد (٢٤) ونولدكه (٢٥) وفلهاوزن (٢٦) نصوصا ودراسات كثيرة اضاءت نواح في تاريخنا وفكرنا كانت ما تزال في زوايا الغموض والنسيان . لكن بيكر الالماني الذي كان بين أول المهتمين بالنظام الاداري للدولة العربية الاسلامية والخلفيات الاقتصادية والاجتماعية للنظام السياسي كان بين المخططين للمصالح الالمانية في الشرق ، ثم صار وزيرا للثقافة والانباء بعد الحرب الاولى (٢٧) . وقد

أنهت الحرب الاولى المصالح الالمانية في الشرق فأعادت الاستشراق الالماني الـــى منطلقاته الاولى ذات الطابع الاكاديمي البحت ، هذا اذا تجاوزنا مؤقتا محدوديــة آفاق المنهج الفيلولوجي الذي كـان مسيطرا على هـذا الاستشراق من ناحيــة ثم اضطرار بعض المستشرقين الالمان الى مجاراة النظام الفاشي وأفكاره عن الشرق في فترة الحكم النازي بألمانيا (٢٨) .

لكن في الوقت الذي كان فيـه الاستشراق الالماني يعيد البحث عن نفسه بعد ضربة الحرب الاولـى كـان الاستشراق الاميركي يتقدم وينمو مـع مصالح الشركات الاميركية في الشرق ، ومع فرار مستشرقين المان كبار من أصل يهودي الى الولايات المتحدة عند صعود النازي الى سدة السلطة . ويمكننا كتاب الاستاذ ادوار سعيد الاخير من تتبع مراحل الاستشراق المذكور واتجاهاتـه الحاضرة خصوصا بعد قيام اسرائيل في وطننا العربي واشتداد ساعد الحركة الصهيونية في الغرب والولايات المتحدة والشرق الاوسط .

والواقع انـه فيما يتصل بالمستشرقين الفرنسيين والانكليز (وكثير منهم ذو أصول يهودية) أضيفت الـى ازدواجية شخصياتهم (كأكاديميين ومتعاونين معالانظمة والقضايا الشرقية) أبعاد جديدة تتضمن ولاء لاسرائيل أيضا أو لحركة الصهيونية على الاقل . وتبرز في هـذا النطـاق شخصيات شاخت وغرينباوم وغويتاين فـي الولايات المتحدة ، ورودنسون في فرنسا ، وبرنارد لويس في بريطانيا . فقد انعكست صهيونية هؤلاء جميعا ـ وقد سادوا الاستشراق في الولايات المتحدة وبريطانيا حتـى الستينات ـ على أبحاثهم حتى في النطـاق التاريخي البحت . وقد حـاول كلّ من العروي وغران وادوار سعيد تحليل ظاهرة غرينباوم ، في حين حظيت كتابات برنارد لويس بدراسة دقيقة من جانب ادوار سعيد في نطاق عمله الضخم عن الاستشراق .

والآن ، ماذا عن منهج أو مناهج المستشرقين هؤلاء ؟ في مجـال الاستشراق الالماني سيطر المنهج الفيلولوجي الذي يقوم على تشريح دقيق للواقعة التاريخية في كافة الجوانب . لكن الواقعة التاريخية تبحث في شكل منعزل عن تتابع الاحداث أو عـن السياق البيئي (٢٩) . فاذا جرى البحث في أسباب ظاهرة من الظواهر في نطـاق التاريخ الاسلامي فان مقارنات خادعة ذات طبيعة لغويـة لفظية بحتة كانت تعقد للتدليل على الاصول غير العربية لهذا الامر أو لذاك . ومع ان ذلك يمكن اعادته جزئيا الى قصور المنهج الفيلولوجي رغم دقته الظاهرة فلا شك ان الايديولوجيات العنصرية والحضارية التي انتشرت فـي أوروبا أواخر القرن التاسع عشر تركت آثارا «واضحة» في دراسات المستشرقين ، هذا بالاضافة الى طبيعـة ثقافتهم في أوروبا الامبريالية الصاعدة ، واهتماماتهم التي لا تكاد تنتهي بالعهد القـديم بحكم بروتستانتيتهم المتشددة .

أما على الجانب الآخر فقد ركز مستشرقو فرنسا وانكلترا ثم أميركا دراساتهم في مجالين : مجال جمـع المعلومات والرحلات في الاقطـار الشرقية ، والاهتمام بالابحاث التاريخية ذات المغزى الحضاري الشامل . وفي هذين النطاقين كان يجري القاء الضوء على ظواهر جانبية وتكبيرها وتجسيمها بحيث تتراجـــع أمامها المجالات الاخرى جميعا ، وذلك مثل التصوف والاصول اليونانية للفلسفة العربيــة ، ثم التخلف القـاتل للمسلميـن الشرقيين (٣٠) . في هـذه الناحية حدثت الصدامات بينهم وبين الافغاني وعبده ورشيد رضا (٣١) دون أن يثمر النقاش شيئا ايجابيا ، لان المستشرقين هؤلاء لـم يكونوا يكتبون رأيا علميا مطروحا للنقاش بل يشاركون في رسم توجهات دولهم تجاه الشرق العربـي والاسلامي . وتتضح فضيحة هـــذا الاتجاه في ذراه عند غرينباوم ولويس حيث تجري مداورات ومغالطات طويلة ليقال في النهاية ان الاسلام رجعي ومتخلف بطبيعته ، وان تخلف الشرق راجع اليه والى عدم قبوله بالتالي للحضـــارة الغربية ، وهكذا فتخلفه أبدي وآمال التقـدم ضعيفـة بل معدومة (*) .

ولا يخلو الامر من بعض ذوي النوايا الحسنة مـن الغربيين غير الاكاديميين الـــذين يتجاوزون تدقيـق الفيلولوجيين ويدينـــون لاعلمية مستشرقي الصهاينـة والمركزية الاوروبية ، لكن هؤلاء يعودون بدورهم للوقـوع فـــي أسر تقريظية مسرفة تفقـــد ايجابيتهم قيمتهـا وتاريخيتها .

ان تصحيح العلاقة بين الشرق والغرب هو الشرط الضروري والاول لبروز استشراق أكثر موضوعية ، وما لم يحدث ذلك فان جهود بعض عمالقـــة المستشرقيـن الموضوعيين ستبقى فردية ومشوبة بالمخاطر .

قلنا ان الاتجاه المادي التاريخي في الكتابة التراثية عندنا لقي أرضية واسعة خلال السنوات الاخيرة ، ورغم السذاجة الظاهرة التي برزت في أعمال من هذا الاتجاه مثل « اليمين واليسار في الاسلام » لاحمد عباس صالح ، و « ابن خلدون : رجل في القاهرة » لرشدي صالـح ، لكن مزيدا من الدارسين العرب يتجه تدريجيا في اتجاه تفسيرات مادية للتراث . ايجابية هذا الاتجاه تكمن في مقابل لاتاريخية الاتجاه المتراجع ، كما تكمن في محاولته فهم الحدث من كافة الجوانب بشكل جزئـي ودقيق ، هذا وان كان التركيز ينصب على النواحي الاقتصاديـة في الغالب . وهكذا فان ثورة كثـورة صاحب الزنج ،

(*) قارن بدراسات العروي عن غرينباوم ودراسات ادوار سعيد عن برنارد لويس .

وتمردا كتمرد المرجئة في خراسان ؛ لا بظلان ظاهرتين غامضتين معلقتين بالمذهب الديني لهذا الرجل او ذاك . اننا نعلم ان المرجئة (٣٣) الذين كانوا حزبا سياسيا دينيا انما انتصروا للاسلام في تمردهم لا لانه دين فقط بل لدعوته الى المساواة بين المسلمين سياسيا واجتماعيا واقتصاديا ، ولانه يرفع بالتالي الاضطهاد عن الموالي الذين دخلوا في الاسلام وتربوا في أحضانه . فاذا علمنا بالاضافة الى ذلك ان مادة هذا التمرد كانوا من العرب الذين عاشوا في خراسان وامتزجوا بالسكان المحليين أمكننا ان نفهم خلفية الحركة العباسية التي قامت على نفس الاسس ، أسس التحالف بين العرب المبتعدين عن القرار السياسي والرفاه الاقتصادي في خراسان ، والفرس من الفلاحين ومثقفي الموالي ممن تعربوا منذ فترة (٣٤) .

ما دام الامر محصورا في فهم حركة ما في نطاق أصولها السياسية والاجتماعية . لا نلحظ قصورا واضحا في تبين هذا الامر او ذاك من قبل الماديين التاريخيين ، هذا اذا تجاوزنا تغافلهم عن دور الايديولوجية الدينية في جانبها الايجابي في العصور الوسطى الاسلامية .

لكن القضية لا تبقى على نفس المستوى من الوضوح والدقة عندما يحاول المستشرق الماركسي أو المتمركس العربي أن يقدم دراسة تغطي مساحة واسعة زمنيا . هنا يتدخل التزامه الفكري فيفرض عليه التحرك في نطاق « نمط الانتاج الآسيوي » (٣٥) ونطاق مراحل التطور الاجتماعي المعروفة عند الماديين الجدليين . بل اننا نستطيع المضي أبعد من ذلك لنقول ان اكثر الدراسات التي جرت حتى الآن من منطلق المادية التاريخية في رأينا كانت تهدف الى اثبات صدق الاشكال الايديولوجية الماركسية أكثر مما كانت تريد انماء علاقتنا بتاريخنا والاسهام في فهم مضامينه بشكل أكثر علمية وموضوعية . ونحن نملك على ذلك أكثر من دليل ، فلماذا هذا الاهتمام بالبابكية والخرمية وثورة الزنج والقرامطة ؟ لقد ظل هؤلاء جميعا أقليات معزولة بينما بقيت جماهير الاكثرية بعيدة عن أفكار هؤلاء وأسباب سخطهم وتمردهم . هذه الاكثرية هي التي صنعت التاريخ وما تزال . ولقد كان لها مثقفوها ولها تمرداتها وثوراتها ولها أفراحها وأحزانها ، ولها تناقضاتها الداخلية ، فأين هو الجهد المصبوب لفهم ذلك كله ؟ بدلا من هذا تجري الكتابة طوال الوقت عن ثورة صاحب الزنج للقول في النهاية أن هذه الثورة كانت بداية لمرحلة المجتمع العبودي أو نهاية له وبداية للمجتمع الاقطاعي . انه لما له دلالته أن يكون أول من كتب عن الحركات الشعبية في بغداد (حركات الاكثرية) ليس ماركسيا (٣٦) بل مستشرق فرنسي يعتبر معتدلاً نسبيا في الظاهر .

وواضح ما لهذا الاتجاه التبشيري من سيئات في مجال كتابة التاريخ . ذلك انه عندما يريد أحدنا أن يدلل على فكرة واضحة مسبقة في ذهنه فان الواقعة التاريخية لا تريحه بل تزعجه ، الا اذا دار حولها أو فسرها تفسيرا قسريا بما يتفق وهدفه . لكن القضية لا تبقى في هذه الحدود . فكثير من الكتاب في هذا الاتجاه لا يريدون تدليلا تاريخيا على صحة النظرية الماركسية وشمولها فقط . بل يريدون خدمة أهداف سياسية واجتماعية حاضرة . كثيرا ما نسمع القائلين : « علينا أن لا ندع تاريخنا في يد الرجعيين واليمينيين التقليديين » . ونسمع أيضا : « دراستنا التراث تستهدف الحاضر ، تستهدف النضال اليومي للحركة التحررية العربية » . ولو كان ذلك يعني محاولة فهم جذور المشاكل المعاصرة في وطننا العربي من خلال دراسة تاريخية لها لكان أمرا مشروعا ، لكن القارىء للدراسات من هذا النوع يلاحظ هذا الاتجاه الى التأكيد على تفسير الحاضر بالحاضر ، واستخدام الماضي لتبرير الحاضر أو ادانته أو الاستتار به .

وتتفرع على ذلك عيوب شكلية ومنهجية وفردية تجعل من هذا الاتجاه في تفسير التاريخ العربي الاسلامي سلبيا في مجمله . فمعظم الذين يمارسون هذا المنهج حتى الآن لا يعرفون الماركسية جيدا أو لا يعرفون التراث جيدا أو هما معا . والا فما معنى تسمية البابكية ثورة من جانب « الشعب » الاذربيجاني على الخلافة الجائرة ؟ وهل كان هناك بالمقاييس الماركسية شعب أذربيجاني بالمعنى المعروف للشعب ؟ ثم ما معنى القول ان الفارابي كان ثوريا ولصالح المسحوقين ؟ وما معنى القول ان تاريخ الامم والملوك و « كتاب الاموال » مجهول المؤلف ؟ ان كثيرا من هذه الدراسات تفتقر الى أبسط الادوات المنهجية .. أوليات معرفة الموضوع الذي يكتب عنه الباحث .

وعلى محاولة تعميم النظرية الماركسية تتفرع عيوب منهجية متضامنة (٣٧) ، وهي حرق المراحل ودراسة التراث العربي كله مرحلة واحدة . رغم عدم توفر الادوات المنهجية ، وخروج ذلك على طاقة الفرد بل الجماعات في هذه المرحلة ، لكن هموما جانبية مثل اثبات النظرية وقطع الطريق على التقليديين والمستشرقين هي التي تفرض مثل هذا النهج .

لقد درسنا نموذجين من نماذج دراسة الفكر العربي التاريخي واعتبرناهما غير علميين رغم اختلافهما في الجوهر . لكن : ما هو البديل ؟ لقد أصبح النهج التقليدي عاجزا ، كما ان النهج الاستشراقي والتفسير المادي للتاريخ لم يقدما حتى الآن الا نماذج سلبية . في ظل هذين الاعتبارين ، وظل ظروف المرحلة القومية المعاصرة ، لا ندعي اننا نملك تصورا متكاملا ، لكننا نملك

معالم رئيسية نابعة من التوجه النقدي النهجين الآخرين، ومن الادراك العميق لطبيعة المرحلة الراهنة .

أتقدم بالاقتراحات التالية :

١ ـ الانطلاق من موضوعية الحقيقة التاريخية والتحدث التاريخي ، ومحاورة تاريخنا هذا ، لان ذلك في تصوري يشكل جوهر العلاقة بيننا وبين تراثنا .

ويتضمن هذا المبدأ اصغاء تاما لنداءات الوثائق التاريخية ودراستها في نطاق عصرها ، وظروفها ، ونشأتها ، وموقعها الاجتماعي والسياسي والتاريخي ، لينصب ذلك كله في النهاية في خدمة موضوعية الحقيقة التاريخية والقاء الاضواء عليها ، لا لشيء الا لان الحياة المعاصرة العربية السوية في تلك التي تقوم على أساس حقائق تاريخية لا صور وأوهام ايديولوجية تلبس لباس التاريخ .

٢ ـ الانطلاق من عدم وجود انقطاع في حياة الامة العربية الاسلامية من الناحية التاريخية ، ومن الضروري دراسة التاريخ كوحدة متماسكة بجوانبه المتعددة : سياسية وادارية واجتماعية واقتصادية وفكرية في آن واحد لكل فترة من الفترات ، على أن تكون هذه الدراسة شاملة جميع طبقات الشعب ، ونمط حياتهم ودورهم في المجتمع .

اذ ان هناك جوانب كثيرة من تاريخنا لم تستكمل بعد . ولم تكشف الحقيقة عنها .

هذا بالاضافة الى ضرورة دراسة تاريخ الغرب . والمقارنة بينه وبين تاريخنا العربي .

٣ ـ الاهتمام بدراسة الحضارة العربية في جميع مجالاتها وانجازاتها لا التركيز على الناحية السياسية ، فذلك يفقد التاريخ العربي جوهره ، ويعطل دوره . اذ ان الحضارة العربية الاسلامية التي لها سمات الحضارة الشاملة المتكاملة والتي ما تزال مستمرة حتى اليوم في محيطنا تملك منطقها الخاص ، وقيمتها الذاتية في المرتكزات الفكرية ، وفي فهم العالم وفي التعامل معه . ولكي يمكن استيعاب مداولات هذه الحضارة ، ومستنداتها وروحها ، لا بد من الانطلاق من منطقها الخاص والداخلي ، وذلك يجنبنا مخاطر اللجوء الى مفاهيم ومنطلقات من خارج نطاق الحضارة التي ندرسها . ويجنبنا بالتالي الوقوع في اخطاء بعض المستشرقين والماديين التاريخيين .

وعلينا هنا أيضا أن نبين للعالم دور الحضارة العربية في تطور الحضارة الانسانية . وهذا ضروري بالنسبة لتعاملنا مع الغرب .

٤ ـ وعلينا أن نبرز أو نركز على المقومات والاتجاهات القومية والوحدوية بالذات ، فالموضوعية والنزاهة لا يتنافيان أبدا مع قومية التاريخ ، لكن يحتاجان الى عقول عربية تتسم بالعلم والتجرد والصبر والدقة ، وقلوب عربية تمتاز برهافة الحس ، وصفاء الاتجاهات ، تلتمس جذور الحقيقة والنظر الى أبعادها ، ثم التركيز على مقومات القومية العربية ، وعناصر الوحدة ، لان القومية والوحدة هما الاطار الوطني الذي يصهر أبناء الامة على مختلف طوائفهم ومذاهبهم في بوتقة واحدة فلا يعود هناك من مجال فيه للعنصرية والطائفية .

ولو فعلنا ذلك لوفرنا على أنفسنا اثارة الدعوات المشبوهة المزيفة ومخاطر التجزئة والطائفية والاقليمية، والعنصرية ، والانعزالية ، والتعددية ، وتحركات الاقليات .. كما يجري الآن في لبنان مثلا .

٥ ـ كما علينا أن ندرس بعمق وتحليل العوامل الاجتماعية والفكرية والنفسية والاقتصادية والسياسية التي دفعت الى التجزئة وتمزيق كيان الامة ، ولا نغفل انه كان للاستعمار اليد الاولى ، والطولى ، في ذلك . وقد فعل ذلك في صور وأساليب مختلفة ، تجارية ، واقتصادية ، وثقافية ، ودينية ، ثم في حملات وحروب استعمارية سافرة ، وفي تحالفات ومعاهدات مشبوهة .

٦ ـ أقترح اقامة مؤتمر عام ١٩٨٠ ، اذا أمكن ، أو عام ١٩٨١ ، على الاكثر . يكون موضوعه « الوطن العربي بين الوحدة والتجزئة » ، فيدرس مقومات الوحدة وايجابياتها ، وما تعود به على الامة والوطن ، كما يدرس مخاطر التجزئة وأسبابها ، وما أدت وما يمكن أن تؤدي اليه بعد ، المزيد من الانعكاسات السلبية على الوطن العربي .

واشدد هنا أن تكون هذه الدراسات ، مبنية على أبحاث موثقة رصينة وجدية ، وعلمية .

٧ ـ اختيار لجنة عربية عليا ، معترف بها رسميا . وممولة من الدول العربية ، تكون مهمتها انشاء « مركز التراث العربي » أو « مؤسسة التراث العربي » . تقوم بوضع برنامج عمل ، عبر لجان متخصصة ، فنية . ادارية ، ومالية ، ثم تقيم الحلقات والندوات لدراسة هذا البرنامج . ثم العمل على تنفيذ « كتابة تاريخ الامة العربية » .

الهوامش

١ ـ قارن بعدد فبراير من مجلة الطريق اللبنانية (١٩٧٩) حيث برز الدكتور احسان هذا المعنى بوضوح .

٢ ـ منهج بندلي جوزي وبوبوفتش وفيصل السامر وأحمد علبي ونزيه أبو نضال .

٣ ـ قارن بمحاولتي جوزي وعلبي على سبيل المثال .

٤ ـ تاريخ الامم والملوك (ط. لايدن ـ دي غويه) ٤ / ٨١٦ ـ ٨٥٦ .

٥ ـ حسين قاسم العزيز في « البابكية » (١٩٧١) .

٦ ـ د. فاروق عمر في مجلة « آفاق عربية » العراقية (تموز ١٩٧٧) .
٧ ـ أحمد عباس صالح : اليمين واليسار في الاسلام ، ٢٦ ، (مؤسسة الدراسات ١٩٧١) .
٨ ـ نبيه عاقل : الامويون ، ٤٨ ، (دمشق ١٩٦٨) .
٩ ـ « قيام الدولة العباسية » (بالالمانية ، ١٩٧٠) ١٧ ـ ٢٨ .
١٠ ـ الخلفاء الراشدون (١٩٤٦) .
١١ ـ الخلافة الراشدة (١٩٣٨) .
١٢ ـ حياة محمد ، حياة أبي بكر ، الفاروق .
١٣ ـ قارن بيوهان فك : الدراسات العربية في أوروبا (بالالمانية) ١٦ ـ ١٩ .
١٤ ـ الدراسات العربية ٨ ـ ٩ .
١٥ ـ قيصر مخول : الاسلام في اندونيسيا ، ٩٨ (الرائد العربي ، ١٩٦٩) .
١٦ ـ أولمان : دراسة العهد القديم من جانب المستشرقين (بالالمانية) ١ / ٦٧ (١٩٧٢) .
١٧ ـ قارن برحلته (مقدمة) ٦ ـ ٩ .
١٨ ـ فيسمان : اكتشاف الجزيرة (بالانكليزية) ٤٧ ـ ٤٩ (١٩٦٥) .
١٩ ـ قارن عنه مالك بن نبي في مذكرات شاهد القرن، ٩٨ (١٩٦٤) .
٢٠ ـ قارن عنه : الدراسات العربية لـ « فك » ، ٢٢٧ ـ ٢٢٨ .
٢١ ـ قارن عنه المستشرقون لعقيقي ، ٢١٦ .
٢٢ ـ قارن عنه مجلة فكر وفن (م ٩ ، ١٩٦٤) .
٢٣ ـ قارن بالدراسات العربية في المانيا لبارت (ترجمة مصطفى ماهر) ٤٧ ـ ٥٠ .
٢٤ ـ الدراسات العربية لفك ، ٣٦ ـ ٣٨ .
٢٥ ـ مجلة جمعية المستشرقين الالمان / م ٤٦ (١٩٢٥) ، ٨٧ ـ ٩٩ .
٢٦ ـ مجلة جمعية المستشرقين الالمان / م ٤٨ (١٩٢٧) ، ٣٦ ـ ٣٩ .
٢٢ ـ قارن هامش رقم ٢٢ .
٢٨ ـ عن المستشرقين الالمان والنازي قارن ، هولدر ، المستشرقون الالمان (بالالمانية) ٨٨ ـ ٩١ .
٢٩ ـ قارن بنقد المستشرق الشاب ثبت لمناهج المستشرقين الالمان في « الاستشراق ، مفاهيمه وحدوده » (بالانكليزية) ، ١٨ ـ ٥٧ .
٣٠ ـ قارن بـ « الاستشراق » لادوار سعيد (١٩٧٧) ، ٤٦ ـ ٥٧ .
٣١ ـ د. فهمي جدعان : أسس التقدم عن مفكري عصر النهضة (١٩٧٩) ص ٢١١ ـ ٢٤٧ .
٣٢ ـ مثل جوستاف لوبون وزيجريد هونكه .
٣٣ ـ قارن عنهم دائرة المعارف الاسلامية (الطبعة الثانية) ، مادة « ارجاء » .
٣٤ ـ قارن بدراسة فاروق عمر عن « طبيعة الدعوة العباسية » .
٣٥ ـ قارن بمحاولات تجدد في هذا النطاق ، الدراسات التي ترجمها جورج طرابيشي بعنوان « نمط الانتاج الاسيوي » .
٣٦ ـ هو كلود كاهن .
٣٧ ـ في « من التراث الى الثورة » و « النزعات المادية » .

تاريخ لأصالة امتنا ...

د. توفيق اليوزبكي

يعتبر الوطن العربي اول موطن للحياة والحضارة وميدان أنشط العمليات الاجتماعية حيث شهدت أرضه تفاعلا متواصلا بين الانسان والبيئة أدى الى ان يتكون بيئيا وفق سمات خاصة طبعت سكانه وتطورهم التاريخي ونشاطهم الحضاري . ولعل ابرزها طابع التنوع والوحده . لقد عبر سكان هذا الوطن عن حيويتهم التاريخيه بقفزات حضاريه متتالية اتسمت بالتواصل وبأن المتحقق منها يقود الى تحقق آخر على يد جيل جديد .

لقد امتزج النشاط الحضاري لسكان الوطن العربي بالمعتقدات الروحية ، فادى لان تكون عملية النضج الفلسفي والمحتوى الاجتماعي للتطور شيئا واحدا يشكل اضافة حضارية لا تتوقف عند حدود التامل ، فأصبحت هذه الازمة ، اضافه الى حيوية الفعل الحضاري ، تمتاز بخلق العقائد والتي كان آخر مراحلها المتحققة الاسلام .

غير ان هذا الوطن أصبح موضع صراع ، وشهد عمليات غزو واحتلال أدت الى تعطيل قدراته وافراغ تاريخه من جوهره واعادة ترتيب أوضاعه من خلال فلسفة التجزئة بحيث يصبح له دافع جديد غير واقعه الحقيقي .

لذلك يجدر في اية دراسة لتاريخ الامة العربية أن تتجه بشكل مغاير لكل الجهود المطروحة الآن في ميدان البحث التاريخي . لتقوم باعادة كشف تاريخ الامة بشكل يميز بين مرحلتين : مرحلة عبرت فيها الامة عن ارادتها وعاشت ذاتها المعطاءة الانسانية ، وبين مرحلة فرضت فيها على الامة ذات أخرى تختلف عنها وتناقضها، مرتكزة الى ارادة خارجية استخدمت كل صيغ المجابهة والتزييف والطمس والتخريب الثقافي والحضاري . كتابة تاريخية تكشف للامة أصالتها التاريخية وتعبئها في استيعاب روح العصر الحاضر بما يعنيه من تقدم علمي وازدهار ايديولوجي . ان هذه الكتابة في استلهامها (الاصالة) واستيعابها (المعاصرة) تعبر فقط عن الفهم الايديولوجي لحركة الثورة العربية فهما قوميا اشتراكيا ثوريا يطرح المجابهة الحضارية بمفهومها الشامل وتبرز المصادر الاساسية للخصوصية القومية (خاصية الوطن) و (خاصية الامة) و (خاصية الحركة التاريخية) .

ولعل أبرز المشاكل التي تواجهها كتابة التاريخ العربي ان الشائع من المعرفة التاريخية يعبر عن كل المواقف الا الموقف الخاص بالامة ، فقد تصدى لكتابته يوما ما المستشرقون . ورغم كل ما يقال عن طبيعة جهودهم فان مجرد بدئها مع حملة التبشير بالاحتلال الاوروبي يجعل تلك الجهود تبث مناخا غير عربي وتطلعات غير عربية . ثم تصدى مفكرون ومؤرخون

آخرون لكتابة التاريخ العربي منطلقين من اعتناق فكري وسياسي لا ينظر الى الامة نظرة داخلية نابعة من مخاضها. فاضحت جهوده هي الاخرى تبشيرية لمذهب يسعى لتجذير موقعه . أما الكتاب العرب فانهم بدأوا من حيث انتهى كلا الطرفين . فاصبحت استنتاجات أولئك الدارسين الاول مسلمات لديهم أبعدتهم أكثر عن تطور تاريخهم وعن اتجاه الفكرة التاريخية للامة . من هنا تصبح أية كتابة للتاريخ مشروطة باستكشاف التاريخ العربي والعودة الى منابعه الاساسية ودراستها واعادة تقييمها ، محكومة بالوعي و (بالاصالة) و (المعاصرة) . مدركة انها تتجه الى التاريخ توجه الامة المتحفزة . ويبلغ هذا الادراك نضجه التام في تحديد موقفه من حقبتين (الماضي) و (الحاضر) وصولا الى المستقبل .

ولا بد من تحديد بعض الاسس التي يمكن اعتمادها في كتابة تاريخ الامة العربية وهي :

١ ـ تحديد الفلسفة التي يمكن الاتكاء عليها في اعادة كتابة التاريخ . وتنحصر هذه الفلسفة في حدود تراث الامة الفكري والحضاري .

٢ ـ التأكيد على أن تاريخ الامة العربية لا ينحصر في تشكيل لجان مهمتها توزع المفردات ، وكأن المسألة انتهت . لان القضية لا تقف عند هذه الحدود بل تتعداها الى الالتزام بمنهج تاريخي محدد ضمن اطار تبرز فيه مكانة الامة ودورها في الحضارة الانسانية .

٣ ـ تغذية ورقة العمل بأبعاد جديدة . بحيث تشكل ورقة عمل قومية ، ثم تتسع لتستوعب أبعادها في مؤتمر عالمي .

٤ ـ ان ورقة عمل تاريخ الامة العربية يجب أن تستهدف ابراز كل المحاولات في مجالات المنهج وما يتعلق به ، والدعوة الى استقطاب جميع المهتمين من مستشرقين وعرب في هذا المجال .. اشارة الى التأكيد على ترسيخ اهتمام الجامعات العربية ، ودورها في هذه المحاولة .

٥ ـ الكتابة وفق منظور ورقة العمل الجديدة ، بحيث لا تطرح وتسود نظرات سائبة ، أو بمعنى آخر (المقولات) الضيقة التي ينظر من خلالها للحدث التاريخي .

٦ ـ ابراز القوى الفاعلة والمحركة في الحدث التاريخي . فقد سار في معالجات الاحداث التاريخية في التاريخ الاسلامي على كشف دور البطل . أي الخليفة هو المحرك للتاريخ .. مما أدى الى سيادة هذه النظرة التعسفية ، التي تغفل العناصر المحركة والتي تتحدد في (الامة) أو القوى الشعبية .

٧ ـ التأكيد على ابراز عوامل التخلف والاعاقة ، الى جانب عوامل الازدهار ؛ أي عملية الكشف المتقدم الذي ساد . وللانحسار الذي شاع .

٨ ـ التأكيد على ان التاريخ العربي انطبع بميزتين هما : مرحلة العطاء الحضاري ؛ ومرحلة الانكسار .. ومرحلة العطاء واضحة وتكشف عن ذاتها للعدو والصديق . غير ان الغموض يسود في تناول مرحلة الانكسار .. فالانكسار أو الانحسار قد تختاره الامة نتيجة للهجمة الشرسة من قوى استهدفتها ؛ وبالتالي يصبح الانحسار قدر الامة . تختاره وعاء وقتيا . تحافظ عن طريقه على البذور الحياتية للامة .

٩ ـ التأكيد على تحديد جهاز لغوي تاريخي، يميز بمفاهيمه وصيغه المحددة المعاني . لان دقة هذا الجهاز تؤدي الى دقة الكتابة التاريخية .

١٠ ـ ابراز (أثر) طبيعة . وظروف الوطن العربي في تحديد سمات حضارة الانسان في التاريخ القديم ، وابراز الهوية العربية في التاريخ العربي الاسلامي والحديث .

١١ ـ الاشارة الى ان المصادر التاريخية التي تناولت تاريخنا العربي قد سجلت الحوادث من زاوية خاصة .. وبالتالي يجب التسلح بنظرة فاحصة في الانتقاء وفي اشتقاق حقائق جديدة من المقدمات التي طرحها المؤرخ .. والتي حاول أن يخفيها لسبب أو لآخر .

١٢ ـ التأكيد والحرص على وحدة الشخصية العربية في خضم الصراع في عالمنا الراهن ؛ ومن أجل رفض كل (تغريب) للهوية العربية وتحديد سماتها الخاصة بها ؛ في أتون الصراع الهائل الذي تحدد في التقدم العلمي وسيادة التيارات الفكرية المعاصرة .

د. توفيق سلطان اليوزبكي

عميد كلية الآداب بجامعة الموصل

خطوط اساسية في كتابة تاريخ الامة العربية

د. نور الدين حاطوم

أمتنا العربية الخالدة على الزمان لم تخرج من العدم . ظهرت على مسرح التاريخ وتبوأت مكانها بين الامم . واستطاعت ان تفيد من تجاربها ومن مآتي الامم التي سبقتها . وان تقدم للانسانية رسالة الاسلام . وتنفح فيها روح التحرر ، وأن تنجز بدورها حضارتها المعروفه باسم « الحضارة العربية الاسلامية » . وأن تمتد بهذه الحضارة على جزء كبير من قارات العالم القديم .

وبالرغم من الظروف القاسية التي مرت بها امتنا العربيه خلال تاريخها الطويل ، فقد قاومت عوادي الزمن، وما زالت تقاوم الغزاة والفاتحين والمستعمرين من كل جنس . واليوم تقف أمام أعظم التحديات . وتريد ان تزيل التخلف الذي لحق بها ، وأن تساير الركب الحضاري الحديث . ان أمة لها الكثير من ماضيها المجيد . وروحها الوثابة . وقوة نضالها . لا يمكن أن تستكين أو ترضى عن حاضرها المجزا الاليم . بل تريد ان تقتحم العقبات وتؤمن لأبنائها العيش الكريم . والمستقبل الافضل على ارضهم ، وان تعاود سيرتها الاولى وتسترد مكانتها بين الامم المتحضرة .

في اطار هذا المفهوم نرى أن ننطلق في كتابة تاريخ امتنا العربية . وما من شك في ان التاريخ العربي زاخر بالمؤلفات التي تناولته من جوانب عدة . ومن وجهات نظر عربية وأجنبية . حسب اجتهاد المؤلفين ودرجة ثقافتهم ووجدانهم . ولكن بالرغم من كثرة المؤلفات ، ما زالت هناك نواح من تاريخنا تحتاج الى عناية واهتمام وانارة . لتنكشف لنا على حقيقتها . جهد المستطاع . بعد أن سادها الغموض . أو فسرت تفسيرا ناقصا أو خاطئا . او اتخذت على انها حقائق مسلم بها ، أو اغفلت واهمل شانها .

والآن . وبعد أن كثر في بلادنا العربية . المؤرخون العرب الذين تثقفوا ثقافات عالية ، وانتجوا آثارا علمية رفيعة . أصبح بالامكان الاعتماد على انفسنا وتأليف مجموعة جديدة جامعة لتاريخ أمتنا العربية . على ضوء المنهج العلمي للتاريخ . وبشكل أفضل مما في السابق .

ونرى لتاليف هذه المجموعة التاريخية العربية الكبرى عرض هذه الخطوط الاساسية :

١ — ان كتابة التاريخ العربي بأسلوب علمي وروح موضوعية تقتضي منا الحياد في النظرة بدون فكرة خلفية أو مسبقة . أي دون تصور ان أمتنا خير أمة أخرجت للناس . بل أمة . كسائر الامم . لها ما لها وعليها ما عليها . وتتوق الى الافضل دوما . ولذا نرى أن يكتب تاريخ أمتنا بعيدا عن الاهواء المختلفه او العواطف المتباينة والتعصب او التدميم . والتمسك بالتفسيرات التقليدية السابقة . واذا كان موضوع التاريخ بعث الماضي . فيجب أن يبعث هذا الماضي على حقيقته كما حدث . بقدر ما نستطيع . لا أن نتصور انه كان كما نريد أن يكون .

٢ — ان التاريخ الذي نريد كتابته يجب ان يضم مؤلفات تاريخية تركيبية تتناول جميع عصور التاريخ العربي منذ العصور القديمة حتى العصر الحاضر .

٣ — أن يتناول هذا التاريخ الامه العربيه والجماهير العربية . اي المجتمع العربي في شتى أدواره وأمصاره وفي حياته اليوميه وعلى امتدادها التاريخي في السابق.

٤ — ان يكتب تاريخنا ليكون تاريخ حضارة المجتمع العربي على مر العصور . وان يعالج تاريخ هذه الحضارة مختلف النواحي : السياسيه والاجتماعية والفكرية والاقتصاديه والفنيه دون اهمال واحده منها ، والا يكون هذا التاريخ تاريخ سلالات او خلفاء او ملوك أو سلاطين او حكام . اي الالحاح على المجتمع ككل لا على ناحية خاصة بالذات واهمال النواحي الاخرى . وبيان ما قدمه الفكر العربي من مآثر نظرية وعملية ، وما أحدث من تطور في المجتمع القائم بالنسبة الى المجتمع الذي سبقه . اي ان نبين ان المجتمع العربي ككل يتطور بتسلسل مستمر بالرغم من انقطاع بعض حلقاته في بعض الاحيان، مع ذكر أوجه هذا التطور من ايجابية وسلبية .

٥ — ان المجتمع العربي . بالرغم من امتداد سطحه الجغرافي وتجزئته السياسية . كان وثيق الاتصال على صعيد الامة العربية والانسان العربي ، وأن يؤلف وحدة حضارية متميزة .

٦ — ان أمتنا العربية حية باقية على الزمان . مناضلة دوما في الدفاع عن نفسها وعن قيمها السامية ومقدساتها ومثلها العليا وهويتها الشخصية العربية . على الرغم من الغزو والاحتلال والاستعمار وتعاقب الامم الفاتحة .

٧ ـ لا طفره في التـــاريخ . بل تواصل وتداخل وتواشج بين عنصر قديم سائد وعنصر جديد يمدّه نسغ قوي فيحدث فيه التغيير . ومن هنا لا يمكن ان نتصور ان عصرا من العصور العربيه كان ظلاما . ثم تــلاه عصر كله نور واشراق . ولذا يقتضينا البحث عـــن مختلف العوامل التي اثرت في المجتمع الاسبق فاحدثت فيــه التغيير وصيرت منــه مجتمعا جــديدا دون الاكتفــاء بعامل واحد .

٨ ـ في التاريخ العربي الاسلامي كثير من الاحداث التي عالجها المؤرخون معالجه ناقصه او فسروها تفسيرا ضيقا او سريعا او عاطفيـــا أو مغرضا . وأن من حـق المؤرخين المحدثين وواجبهم ان يطبقوا قـــواعد النقد العلمي النزيه على هذه الاحداث ، وان يجدوا لها تفسيرا علميا منطقيا معقولا ومقبولا .

٩ ـ ان الحوادث التي مر بها العرب فرضت نفسها فكونت لتاريخهم ادوارا . شانهم في ذلك شان سائــر الامم . مثل : عصر ما قبل الاســلام أو تاريخ العرب القديم . عصر الرسالة . عصر الخلافة الراشدة ، العصر الاموي . العصر العباسي ... الخ .

ومن هنا يمكن ان يعالج التاريخ العربي تبعا لهــذه الادوار . مع الاخذ بالملاحظات السابقة ، أو أن يعــالج على قرون . اسوة بالمجموعات التاريخية التي أصدرتهــا الجامعات الاجنبية مثـــل : « مجموعة كمبردج » او « الشعوب والحضارات » أو « التاريخ العام » وغيرها . او أن تعين عهود السيادة والنفوذ في التاريخ العربي ، وتتخذ نقاط انطلاق لتقسيم التاريخ العربي الى أدوار . ونذكر على سبيل المثال :

(ا) العصر العربي : ويتضمـــن تاريخ العرب قبــل الاسلام . عصر الرسالة ، الخلفــاء الراشــدون ، العصر الاموي .

(ب) عصر اللقاء والتفاعل الحضاري الذي يجمع بيــن التقاليد العربية والتراث الاجنبي .

(ج) العصر التركي ـ المغولي .

(د) العصر الاستعماري والنهضة العربية حتى نهايــة الحرب العالمية الثانية .

(هـ) حاضر الامة العربية منذ ١٩٤٥ .

١٠ ـ الا يكون التاريخ العربي في فراغ ، بل يجب ربطه بتاريخ الامم المجاورة والمعاصرة شرقيــة وغربية ، وبما فيه من أخذ وعطاء ، ومزج حضاري .

١١ ـ أن يتفق في المؤتمر علــى تأريخ الحــوادث بالتاريخ الهجري ، أو الميلادي ، أو بكليهما معا .

١٢ ـ أن يتفق في المؤتمر على حجم وعدد صفحات وقطع وعدد الاجزاء التي تحتوي التاريخ العربي بأبعــاده الزمانية والمكانية ، اي الجغرافية . وأن تعين الموضوعات التي يجب معالجتها وأن توزع على أجزاء هذه المجموعة التاريخية .

١٣ ـ أن يحصى عدد المؤرخين في العالم العربي، وأن توزع عليهم الموضوعات التاريخية حسب تخصصهم وبعد متساورتهم ومعرفة رغبانهم . ويمكن أن يشتــرك في تاليف الجزء اكثر من مؤلف واحد .

١٤ ـ المجموعة التاريخية العربية التي نريدها، هي مجموعة تاريخية متسلسلة تاريخيا لنبيين مراحل التطور العربي والوصول به الى العصر الحاضر .

١٥ ـ هذه المجموعة التاريخية نريدها كتبا يدويــة يتداولها طلاب الجامعات العربية لتعرفهم بتاريخ أمتهم على حقيقته ما امكن بما فيه من مواطن القوة ومواطــن الضعف . ولتكون لهم موجها علميا يرشدهم في الاقدام على العمل والبحث التاريخي برغبــة وشغف ، وتحبب اليهم دراسه التاريخ العـــربي والرجوع الى الامهـــات والمصادر الاولى التي استقـــى منها المؤلفون مادتهم التاريخيه . كما تحبب الــى القارىء العربي المستنير دراسة تاريخ أمته .

١٦ ـ ان يترك للمؤلف او للمؤلفي جزء من المجموعــه مهلة للانجاز تتراوح بين سنتين وثلاث سنوات .

١٧ ـ ان تصدر المجموعة بلوحة جغرافية لتــاريخ الوطن العربي وامتداده عبر الاجيال وموقعه وأهميتــه وموارده البشرية والاقتصادية وامكانياته الخ ... ولا بد لذلك من تشكيل لجنة جغرافية خاصة تتالف من عضوين أو ثلاثة أعضاء لوضع هذه اللوحة الجغرافية ـ التاريخية .

١٨ ـ أن تلي اللوحة الجغرافية السابقة لوحــة اخرى تاريخية تؤلفها لجنة من عضوين أو ثلاثة أعضاء ، وتوضح فيها مراحل التاريخ العربي وما أنجزه الانسان العربي من مآثر وأعمال في خــدمة الحضارة الانسانية لتبين ان الوجود العربي لم يكن عبئا في يوم من الايام . وان شرف انتماء العربي الى الامة العربية يرجع الــى ما قدمته هده الامة للانسانية من قيم رفيعة وأعمــال خالــدة .

١٩ ـ ان تختتم المجموعة التاريخية بخاتمة مطولة نسبيا ترصد وتقيم التاريخ العربي على ضوء الدراسات التي أجريت في أجزاء المجموعة لتجعل من هذا التاريخ رصيدا عربيا زاخرا وقوة دفع للامة العربية وتطلعاتهــا وسعيها لبناء المستقبل العربي الافضـــل بالرغم مــن التحديات وعوامل الاستنزاف والافناء .

ولوضع هذه الخاتمة تؤلف لجنة خاصة أيضا .

٢٠ ـ تأليف لجنة من عـــدة أعضاء من مختلف التخصصات التاريخية العربية مسؤولة عن متابعة العمل حسب قرارات وتوصيات المؤتمر .

٢١ ـ تعيين الجهة الممولة للمشروع .

٢٢ ـ تحديد مكافأة تشجيعية مجزية وكريمــة المؤلفين .

د. نور الدين حاطوم

قسم التاريخ بجامعــة الكويت

نظرات حول اعادة كتابة تاريخنا

د. أحمد جودة

ان النكبات التي تصيب الامم في التاريخ الانساني كانت دائما حافزا وباعثا الى التفكير في الماضي وفي المصير ومثيرا لكثير من دارسي التاريخ لاعادة النظر في تفسير التاريخ وتحليله لحقبه معينة أو شعب معين .

وعليه فان واقعنا العربي الاليم في الربع الاخير من القرن العشرين وما اصابتنا من ويلات ونكبات منذ مطلع هذا القرن ان لم يكن منذ اواخر القرن السابق يفرض علينا هذا الواقع مجابهة جديده وصريحة لماضينا القومي وربما للتاريخ الانساني بشكل عام . مجابهة تتناسب ومطالب هذه المرحلة التاريخية الهامة .

واننا لجديرون ان نبذل اقصى ما في جهدنا لنسبر اغوار هذا الواقع العربي . وسيدفعنا هذا الجهد الى ادراك افضل وادق لانفسنا وواقعنا . سواء بالنسبة لماضينا الذي يجب ان نتخذ منه قوة دفع في مسيرتنا . وكذلك مصيرنا الذي نتطلع اليه وندفع نحوه لكي نعي حقيقة هذا وذاك ونعمل ما في أستطاعتنا للتحكم في خط سيرنا وبالتالي في المصير الذي نندفع صوبه بدلا من ان نكون له محكومين مسيرين .

وفي هذه الانتفاضة القومية يجب ان يكون الوعي التاريخي مصدر قوة لا مبعث هزات عابره وعاملا من عوامل الانتاج والبناء والخلق والابداع . ولكن لكي يتحقق كل هذا يجب ان يكون وعينا التاريخي وعيا متفحصا ومستنيرا .

كثير من الافراد بل ومن الشعوب ما تقع فريسة افهم خاطىء مغلوط للتاريخ . اذ يتبادر الى الذهن مباشرة وبسرعة وبشكل غريزي بأن التاريخ هو الماضي ، وعليه يظل ذلك الفرد أو الشعب حبيس الماضي ورهينته .

والواقع الصحيح ان التاريخ عبارة عن جسر يربط الماضي بالحاضر وينير الطريق الى المستقبل . وهو ليس مجرد دليل على طريق المستقبل انما هو فاعل لذلك المستقبل . أي ان تصورنا لماضينا يجب أن يشكل طموحاتنا للاجيال المقبله . كما ان معرفتنا التاريخية هذه يجب أن تكون سلاحا نتسلح به لمجابهة الاخطار التي تحدق بنا ولشق طريقنا في الحياة لتحقيق حياة أفضل ومستقبل زاهر .

نخلص من هذا الى ان التاريخ صانع للشعوب ، ولكن لهذه الشعوب في الوقت نفسه الاهمية نفسها في كونها باعثا وملهما مستمرا . اذ يشعر كل مواطن بشرف المشاركة في تاريخه وتاريخ أجداده وأسلافه .

الانسان تاريخي بجوهره ، وكل انسان مرتبط بماضيه . فلا انسان بلا تاريخ . ولا تاريخ بلا انسان . فهو ينتشىء الحياة ويصنع التاريخ .

واذا اتفقنا على هذا الارتباط بين الانسان والماضي (التاريخ) فيجب ان نسعى لادراك الماضي ونستجلي حقيقته ونتخذ موقفا سليما منه ، ونربطه ربط فعل وانتاج بالحاضر الذي نعاني مشكلاته وبالمستقبل الذي نعمل على تشييده .

ان فكرة اعادة كتابة تاريخ الامة العربية ليست شيئا فريدا وخاصا بالعرب ؛ فكثير من الامم والشعوب قامت به عبر العصور ؛ فالمانيا النازيه وايطاليا الفاشية وكذلك الاتحاد السوفياني ؛ كلها قامت باعادة كتابة ليس تاريخ بلادها وحسب بل تاريخ غيرها من الشعوب أيضا .

ومع أن التاريخ المكتوب بروح علمية وموضوعية رفيعة يحمل بين طياته عناصر الاستمرار وربما الديمومة ، الا ان هناك شعورا لدى كل جيل برغبته في أعادة كتابة التاريخ . فالمنظار الذي ننظر من خلاله الى الماضي يجب أن يعدل أو يعاد تعديله من جيل الى آخر ، لان ما تراءى صحيحا وحكمة لاجدادنا كثيرا ما يظهر غير ذلك لنا ، وما كان كئيبا محزنا لجيل معين يظهر ساذجا مبتذلا للجيل التالي .

لكن يجب ان يظل ماثلا امامنا انه ليس من شأن المؤرخ أن ينظر الى الماضي من خلال معايير الحاضر ، لان الانسانية ليست شكلا ولا طابعا ولا نمطا واحدا — فلكل عصر ولكل أمة طابع فريد لا يتكرر .

واذا اتفقنا مع ما يقوله المؤرخ الايطالي المشهور كروتشه بأن « كل تاريخ هو تاريخ معاصر » وان التواريخ ما هي الا « وجهة نظر » لكاتبها ؛ نخلص الى ان اعادة كتابة التاريخ عملية تحدث باستمرار في كل زمان ومكان ولكن بشكل فردي وليس بشكل جماعي منظم .

وبما ان كل تاريخ يكتب في حقبة ما أو في بلد ما يعكس الى حد كبير روح ذلك العصر أو فكر ذلك البلد ، فان تتابع تواريخ متعددة لا ضرر فيه ؛ اذ يعتبر سجلا المراحل التي مرت بها الافكار والمشاعر لشعب ما .

التاريخ ليس فوق النزاع والجدل . ولا يسمح للتاريخ بأن يكون محايدا ؛ بل يجبر على الانخراط في

صفوف كل من الجيوش المتناحرة . يستعمله كل جانب من الجوانب لتعضيد قضيته ودحض حجج خصمه .

وعليه يجب ان نكون جد حذرين من أن نقع في اخطاء التفسير العنصري (العرقي) للتاريخ كما حدث مع النازية والفاشية . ونفس الكلام يصدق على مدارس تاريخيه اخرى كثيرة يجب ان نستفيد منها بحذر . فاعاده كتابه التاريخ بحيث تتلاءم وفترة تاريخية معينه لها مخاطرها وعيوبها واضرارها البعيده المدى . والامثله على ذلك لا حصر لها في التاريخ الاداري بالذات .

ان اعاده كتابه التاريخ بلا ريب يمكن ان تصبح اداة فعالة لخدمة حزب أو فكرة معينة . اذ انها المفتاح الرئيسي والهام لسيطره فكرة ما على قطر أو شعب معين خدمة لهدف محدد .

لكن مثل هذه السياسة الفجة التي تهدف في الحقيقة الى تشويه التاريخ . وليس حبا في تنقيحه . هي محاوله فاشله لانها تحمل بين ثناياها عوامل هدمها وتدميرها .

ولهذا يجب أن نكون متيقظين وحذرين حتى نتجنب تسخير أقلام المؤرخين وتجنيدها في خدمة السياسة الحزبية أو الافكار الضيقة العقيمة . بل يجب أن يكون تركيزنا الاساسي على ابراز الطابع القومي الشمولي والابتعاد عن النزعات القطرية .

ولما كان المؤرخ العربي مطالبا بالعمل . جاهدا على المحافظة على استقلاليته ونزاهته وموضوعيته في كتابة تاريخ الوطن العربي والامة العربية ، فهو في الوقت نفسه له حقوق يجب توفيرها له من قبل هذه الامة وهذا الوطن .

أهم هذه الحقوق وأولها المناخ الديمقراطي السليم الذي تتوفر فيه الحرية الشخصية والحرية الفكرية . لان شيئا من النزاهة والصدق والموضوعية كثيرا ما كلفت المؤرخين الصادقين ثمنا غاليا .

ان الباحث عن الحقيقة . والمؤرخ باحث عن الحقيقة لا شك في هذا ، لا يمكن أن يكون عبدا لنظام حكم أو حاكم أو حزب ، يتلقى تعليماته من موظفين بيروقراطيين، بل يجب أن يظل صوتا مدويا على منبر الحرية يشارك في بناء صرح أمته والانسانية جمعاء عن طريق البحث عن الحقيقة وتقديمها للجماهير خدمة لمصالحهم وتحقيقا لاهدافهم .

المؤرخ العربي في هذه الآونة بالذات مدعو وبالحاح للقيام بدوره على خير وجه ، وأن يرتفع فوق رواية الاحداث وترديدها مرضاة لهذا الحاكم أو ذاك ، بل هو مطالب بتحليلها وتعليلها وكشف الغث من السمين ، وتقديمها لبني قومه بل وللانسانية كلها .

وبهذا يكون المؤرخ العربي قد وضع الحجر الذي يخصه في الصرح القومي العربي الشامخ الذي يتوق الى تحقيقه كل صغير وكبير من أمتنا ، وبالتالي يسهم كذلك في بناء الصرح الانساني .

هذه الدعوة للمؤرخ العربي تزداد الحاحا في هذه الايام . ايام النكبات بل والسنين العجاف التي أنتجت حكاما مخصيين . اذ تزداد الحاجة الى الفهم والافهام احقاقا للحق وازهاقا للباطل .

وفي الختام أود تقديم المقترحات التالية :

أولا — الاهتمام بالانسان الباحث كانسان وليس كموظف مرتزق يجري وراء المادة . فهذا عامل مهم جدا في خلق مؤرخ قدير ونزيه . ونواحي الاهتمام كثيرة لا يتسع المجال هنا لتفصيلها .

ثانيا — تيسير مهمه النشر وحصول الباحثين على المنشورات والدراسات اللازمة . فالباحثون في البلاد العربيه بالذات يعانون كثيرا من صعوبات جمة للحصول على مصادرهم الاولية أو اية معلومات تلزمهم في دراسة مسألة معينه ومحددة . ومن العجب ان نجد المنشورات العلميه الصادره خارج وطننا أكثر غزارة وربما محتوى ايضا من تلك الدراسات التي ترصد وتنشر داخل المنطقة .

ثالثا — التنسيق بين الهيئات التاريخية في الوطن العربي حول هذه الفكرة في كتابة تاريخ الامة العربيه (لقد نشر في مجلة الدارة / السنة الثالثة ، العدد الاول فبراير ١٩٧٧) عن مشروع مماثل لاعادة كتابة التاريخ الاسلامي . وقد شكلت لجنة خاصة لهذا الغرض منبثقة عن المجلس التاسيسي لرابطة العالم الاسلامي .

كما ان الامانة العامة لاتحاد الجامعات العربية قد شكلت لجنة تحضيرية من كبار المؤرخين مكلفة بدراسة مشروع خاص باعادة كتابة تاريخ العرب والاسلام .

رابعا — انشاء صندوق لتمويل هذا الصندوق الذي نحن بصدد دراسته ، ويفضل أن يكون هذا الصندوق مستقلا عن أي نظام سياسي قائم حتى يتمتع بالنزاهة العلمية اللازمة له في تمويل البحوث التي تقدم للمشروع . وأن تطالب جميع الهيئات والافراد في الوطن العربي بدعم هذا الصندوق للمحافظة على استقلاليته .

خامسا — تكون هيئة علمية للاشراف على الصندوق وعلى المشروع . ويراعى في أعضائها المقدرة العلمية بغض النظر عن أية اعتبارات اخرى . وكذلك تأسيس مجلة علمية أو أكثر (حسب الظروف) تكون منبرا تيسر للباحثين نشر بحوثهم . وأن يكون اهتمام هذه المجلة ببحوث تتسم بالصفة الشمولية للوطن العربي وليس الاهتمام الاقليمي العقيم .

سادسا — في غياب اتحاد عام للاساتذة الجامعيين في الوطن العربي يجب العمل بكل الوسائل لتقوية اتحاد المؤرخين العرب لرعاية أعضائه اذا ما دعت الحاجة الى ذلك وكثيرا ما تدعو .

د. أحمد حسن جودة
قسم التاريخ بجامعة قاريونس (بنغازي)

بعض مشاكل كتابة تاريخ الأمة العربية

د. طريف الخالدي

١ ـ يبدو لي في البدء ان درس كتابة تاريخ الامة العربية يجب أن يواكبه درس التاريخ العربي . فقد درس الباحثون شتى نواحي الثقافة العربية الاسلامية من فقه وكلام وعلوم طبيعية ، لكن تاريخ التأريخ عند العرب لا يزال بالمقارنة . مجهولا . هناك بالطبع كتاب الدكتور الدوري . وهو كتاب جليل لكنه لا يتعرض الا لحقبة معينة من هذا التاريخ . أي الى نشأة علم التاريخ. أما كتاب المستشرق روزنتال ، فهو على أهميته من الناحية الوثائقية لا ينطوي على تحليلات دقيقة وانما على أحكام عامة وسطحية في الغالب . وهناك بالطبع دراسات عن مؤرخين معينين كالدراسات المستفيضة عن ابن خلدون . لكن هذه الدراسات تهمل مدارس التاريخ التي سبقت ابن خلدون ، ناهيك عن المدارس التي تلته . ولا جدال ان البحوث التاريخية في بلادنا العربية يجب أن يواكبها اهتمام عميق بالتأريخ ، قديمه وحديثه . وحبذا لو اتخذ مؤتمرنا الكريم توصية بهذا المعنى . أي بلفت النظر الى ضرورة دراسة علم التأريخ عند العرب ، وهذه الدراسة قد تبدأ مثلا بتوجيه بحوث تلاميذنا على المستوى العالي ، ولا تنشط الدراسات التاريخية في رأيي في بلد ما الا اذا كانت هذه الدراسات تتفاعل باستمرار مع الفكر التاريخي . أي مع التأريخ .

٢ ـ هناك بالطبع نقص شديد في التاريخ العربي من الناحية الاقتصادية والاجتماعية . وهذا أمر قد لفت الانتباه اليه الكثيرون من المؤرخين . وفي هذا المجال . فان الجامعات العربية قد تسهل الوصول الى مثل هذه الابحاث اذا عمدت بشكل عام الى توسيع رقعة التخصص عند الطالب الذي يحصل على الدرجة الجامعية الاولى في التاريخ ، فتسمح له أن يتخصص بمادتين لا مادة واحدة . كأن يتخصص مثلا بالتاريخ والاقتصاد أو بالتاريخ والعلوم الاجتماعية ، فيجمع بين المنهجين ويتسنى له حينئذ طرح الاسئلة الملائمة وايجاد التفاسير لها .

٣ ـ منذ أواسط القرن التاسع عشر ، بدأ العرب بدراسة التاريخ العربي بشكل أكاديمي منظم . ونحن لا نزال نستشهد ببعض هذه الدراسات والتي لا ريب ان بعضها ذو فائدة كبيرة . لكننا لم نلتفت بعد الى دراسة تاريخ الاستشراق بشكل مكثف لكي نميز الصالح من الطالح . فالاستشراق كثيرا ما يشوه تاريخنا العربي، ويتسرب هذا التشويه ، ظاهرا أو باطنا ، الى مؤلفاتنا نحن العرب . ويخلق مدرسة من التفاسير التاريخية التي يصعب علينا فيما بعد الافلات من طوقها . ودراسة الاستشراق بشكل عميق تستحق مؤتمرا خاصا بها ، يدعو اليه مؤتمر المؤرخين العرب ويجري اعداده لكي يشمل أكبر عدد من مؤرخي البلاد العربية ، لكي تتم فيه المقابلة بين الاستشراق الفرنسي حول الجزائر مثلا والاستشراق الايطالي حول ليبيا والاستشراق الصهيوني حول فلسطين ، والى ما هنالك . وقد نعمد بعدئذ الى اقرار مادة تاريخ الاستشراق في عداد المواد الجامعية لدى دوائر التاريخ في الجامعات العربية .

٤ ـ هناك مشكلة دراسة التاريخ الشعبي العربي. فنحن لا نزال نرى التاريخ من وجهة نظر النخبة ، ولا نراه من وجهة نظر الشعب او الحركات الشعبية . والتاريخ الشعبي العربي لا يزال بحاجة ماسة الى دراسة مستفيضة دقيقة . هناك طبعا دراسات عديدة عن ثورة الزنج مثلا وعن ثورة القرامطة ، لكننا نكاد لا نعرف شيئا عن الحركات الشعبية في المدن العربية في صدر الاسلام سوى القليل الذي درسه ، مع الاسف، المستشرقون الالمانيون والفرنسيون . ولا جدال ان مثل هذا الامر يتطلب انشاء معهد أو معاهد لا تخضع للروتين الاكاديمي أو الحكومي . لها ميزانياتها المستقلة ولجانها التي تشرف على أعمالها وهياكلها التي تتألف من أكبر عدد ممكن من الباحثين الاختصاصيين وأقل عدد ممكن من الموظفين الاداريين .

٥ ـ هناك نقص فادح في علم الآثار العربي الاسلامي . وهو علم لا غنى عنه في التاريخ العربي. فنحن لا نزال مع الاسف نعرف عن المدينة اليونانية أو الرومانية التي لا تزال آثارها قائمة في ارضنا العربية أكثر مما نعرف عن مدننا في عصور ازدهارها العربية . وهذا أمر

تاريخ ملتزم بالجماهير العربية

د. اسامة النور

١ ـ الجانب المنهجي

ان الاساس بالنسبة لمؤتمرنا هذا ينحصر في امكانية دراسة تاريخ الامة العربية دراسة موضوعية . ولانجاز مثل هذه المهمة لا بد لنا من الاعتماد على وقائع الماضي والحاضر التي وجدت فيها عملية التطور الموضوعية انعكاسا لها . ان تجميع الوقائع وتصنيفها ومعالجتها من ارتباط بعضها بالاخر يشكل الاساس الداخلي لتنفيذ المهمة التي نحن بصددها . ولا شك في اننا بحاجة لبذل مجهودات مضنية لتنفيذ عملية التجميع المركز للوقائع وتصنيفها ودراستها (الوثائق . المخطوطات ، المواد الاركيولوجية ، المواد الاثنوغرافية) . هذا مع ملاحظة ان من الضروري أن يؤخذ ، ليس مجرد وقائع تاريخية متفرقة . وانما مجمل الوقائع التاريخية المتعلقة بتاريخ أمتنا العربية دون أي استثناء . فالتجميع بقدر الامكان لمجمل الوقائع عن أحداث تاريخنا المختلفة وعن الظواهر والتفاعلات والعمليات التاريخية ، التجميع الدائم الدؤوب لذلك النوع من الوقائع وتصنيفها ودراستها في مدى ترابطها وتداخلها ، يشكل شرطا ضروريا وأساسيا لكتابة تاريخنا العربي ولتطور البحث العلمي في هذا المجال . ولكن لا يمكن أن نكتفي بوصف الاحداث وسردها دون بذل محاولة لتفهم تلك الاحداث وتفسيرها . لذلك لا بد لنا من الانتقال ، على أساس مجمل الوقائع ، لتفهم وتفسير بعض الظواهر والعمليات من حياة مجتمعنا العربي وللكشف عن القوانين التي تحكم تطوره ولاستنباط خصائص التطور التاريخي . مثل تلك الاستنتاجات علينا ان نصوغها في شكل تعميمات نظرية . ولكي يصبح بمقدورنا استرجاع الصورة الموضوعية لعملية تطور المجتمع العربي . لا بد وأن نحدد العناصر التي تشترك في عملية التطور التاريخي تلك والدور الذي يلعبه كل عنصر من تلك العناصر . كما لا بد لنا من الدراسة التفصيلية لتركيب الموضوع وأشكال تبدله في المراحل المختلفة من العملية التاريخية . وأخيرا لكي يصبح باستطاعتنا وضع تصور للتطور التاريخي بالتحديد كعملية وليس فقط مجرد سلسلة متتابعة كرونولوجيا من حالات الموضوع ، لا بد وأن نكشف عن قوانين الانتقال من حالة تاريخية لاخرى . أن التعميمات التاريخية . وادراك مجمل الوقائع المجمعة والمصنفة والمدروسة في مدى ارتباط وتداخل احداها بالاخرى ومن ثم التوصل للاستنتاجات الفردية . كل ذلك يشكل الجانب الآخر لابحاثنا المتعلقة بتاريخ أمتنا العربية . ان التاريخ يحتوي في داخله على النظرية والتي بدون تواجدها لا يمكن لنا التحدث عن امكانية كتابة التاريخ الموضوعي لامتنا العربية .

يجب أن نلفت اليه اهتمام طلابنا ونتخذ بشأنه توصية ملائمة في مؤتمرنا هذا .

٦ ـ وأخيرا ، وفيما يتعلق بمجلة « المؤرخ العربي » التي تصدرها الامانة العامة للاتحاد ، فاني أقترح أن تنتهج منهجا جديدا وأن تخصص صفحاتها لنقد الكتب التاريخية . واذا فعلت ذلك ، فانها قد تصبح أنجح وسيلة لرفع مستوى الكتابة التاريخية ولتفاعل الآراء بين المؤرخين العرب في شتى أنحاء الوطن العربي . فبدون مثل هذا التفاعل الخلاق المستمر عبر النقد المسؤول العلمي الدقيق لن يتسنى للمؤرخين العرب الوسيلة النافعة للنهوض بمستوى كتابة التاريخ على مستوى الامة العربية جمعاء .

٧ ـ انعزال كتابة التاريخ العربي عن تاريخ الشعوب الاخرى ، مع العلم ان الحضارة العربية الاسلامية هي التي أبدعت علم الحضارات المقارن . فنحن لا نكاد نجد في جامعاتنا خبيرا واحدا في تاريخ الهند والصين وايران مثلا . لذا يجب ان يسد النقص في تاريخ الشعوب التي ارتبطت وترتبط بنا تاريخيا .

طريف الخالدي

دائرة التاريخ بالجامعة الاميركية ـ بيروت

ان وحدة الجانبين الخاصين بالبحث التاريخي الموضوعي لهي وحدة لا تنفصم ، ففي ادراك تاريخ المجتمع تتمازج جدليا من الجانب الاول عملية تجميع الوقائع وتصنيفها ودراستها في ارتباطها وتداخلها ، ومن الجانب الثاني التعميم النظري للوقائع التي يتم تجميعها وتصنيفها ودراستها . ان اي خللٍ يصيب هذه الوحدة، بهذا القدر أو ذاك ، سيؤدي حتما لتشويه وتزييف وتحريف عملية معرفة تاريخ امتنا العربية ، الشيء الذي سيجد له انعكاسا سلبيا في نتائج أبحاثنا . وما أكثر مظاهر ذلك التشويه والتزييف والتحريف الذي نجده في ابحاث بعض زملائنا من المؤرخين العرب عندما يبتعدون بأبحاثهم التاريخية عن الوقائع الموضوعية أو يهملونها ليأخذوا في وضع مخططات سوسيولوجية تعسفية للتطور الاجتماعي دون اعتبار أو استناد لاسس علمية كافية ، أو في أبحاث الذين لجأوا الى التجريبية وانحصر هدفهم في الركض لتجميع وتسمية الوقائع دون بذل محاولة جادة لفهمها وتعميمها نظريا والكشف عن القوانين المحددة .

ان التاريخ الذي علينا أن نكتبه لا بد وان يكون صادقا وعلميا ، أن يتجنب المبالغات ويلتزم علما بالواقع الحقيقي لهذا العصر أو ذاك من تاريخ أمتنا العربية . وبجانب ذلك فان التاريخ الذي علينا أن نكتبه لا بد وان يكون ملتزما ومنحازا ، والتزام وانحياز ابحاثنا التاريخية يعكس انحيازنا والتزامنا للجماهير العربية ، للمنتجين الحقيقيين لثروات امتنا العربية ، للمبدع الاساسي لتاريخ امتنا العربية ـ للشعب العربي وليس للملوك والحكام والامراء وكبار الملاك . هذا الالتزام والانحياز لا بد وأن يجد له انعكاسا في التعميمات النظرية التي نتوصل اليها اعتمادا على المواد الوقائعية .

ان المعادين لتقدم شعوبنا والاستسلاميين الذين تتعارض مصالحهم والاتجاه السائد اليوم والمؤدي للمزيد من تطور مجتمعنا العربي لا مصلحة لديهم في ما نتحدث عنه من « المعرفة الموضوعية لتاريخ أمتنا » . لذلك فان أفكارهم التي تجد انعكاسا لها في نظم سوسيولوجية محددة تولد التشويه والتحريف في البحث التاريخي ، وارتباط الابحاث التاريخية في عالمنا العربي بمثل تلك النظم السوسيولوجية كثيرا ما عاق في الماضي ويعيق في الحاضر كتابة التاريخ الموضوعي لشعبنا العربي . وبالعكس ، فالتجربة اثبتت ان ارتباط البحث التاريخي في عالمنا العربي بالاتجاهات السوسيولوجية الطليعية بالنسبة لعصرها والتي تقف حاليا دفاعا عن مصالح أمتنا المستقبلية . هذا النوع من الارتباط كان دائما ارتباطا حتميا ومنتجا .

ثانيا ـ المقترحات حول كيفية التنفيذ الفعلي :

١ ـ في البحث التاريخي جرت عملية افراز التخصصات حسب أجزاء التاريخ المختلفة . وتجري الدراسة حسب عدة مبادىء : مبدأ العصور ، المبدأ المساحي الجغرافي ، حسب مجموعة مسائلَ ، حسب الجوانب والظواهر المتفرقة . أقترح استخدام مبدأ العصور (والذي سيكون انطلاقا من مفهوم التاريخ العالمي ايضا مبدأ مساحيا جغرافيا) أي :

* تاريخ الامة العربية في عصور ما قبل التاريخ .
* تاريخ الامة العربية في العصور القديمة .
* تاريخ الامة العربية في العصور الوسطى .
* تاريخ الامة العربية في العصور الحديثة .
* تاريخ الامة العربية المعاصر .

على أن يكتب تاريخ كل مرحلة اما في مجلد أو مجلدين حسب حجم المادة ، على أن تقسم كل مرحلة انطلاقا من المبدأ المساحي الجغرافي أي القطري .

٢ ـ يقوم بكتابة كل مرحلة مؤرخون عرب من أقطار عالمنا العربي (كل يكتب عن قطره) من المتخصصين، الا اذا لم يوجد الاخصائي في القطر المعين فان اللجنة المشرفة يمكنها أن تعين مؤرخا من قطر عربي آخر .

٣ ـ استمرارية صدور « المؤرخ العربي » ودعمها كحولية شمولية أساسية تعكس الابحاث العينية لكافة المؤرخين العرب ، لكافة مراحل تاريخ أقطار الوطن العربي .

٤ ـ الاحتفاظ باستمرارية وتطوير المجلات القطرية المتخصصة .

٥ ـ ان يصدر اتحاد المؤرخين العرب مجلة دورية ثانية يتدارس فيها الباحثون المسائل النظرية المتعلقة بمنهجية البحث التاريخي .

٦ ـ بما انه لا يوجد اتفاق حول مسألة كرونولوجية الانتقال من مرحلة الى اخرى ، أقترح تضمين هذا الموضوع في جدول أعمال الندوة العالمية في تونس لمناقشة موضوع البحث التاريخي وتحديد المنهجية التاريخية للباحث العربي والمزمع عقدها بالجامعة التونسية حسب جدول النشاطات التي يعتزم الاتحاد القيام بها في خطته المقبلة .

د. اسامة النور

جامعة عدن

ضرورة ملحة ...

د. أحمد بدر

دأبت جميع الشعوب منذ القديم على الاهتمام باستذكار ماضيها أو تسجيله . ولعل أقرب تفسير لهذا الدأب وذلك الاهتمام هو الفائدة التي تجنيها منه في حل معضلات حاضرها وتيسير سبيل السير نحو المستقبل الذي تريده والهدف الذي تبغيه .

وفي أعمال المؤرخين في كل العصور ولدى كل الامم ما يؤكد هذا القول ويدعم هذا الاتجاه . فهم لا يذكرون ولا يسجلون ؛ وليس بامكانهم أن يسجلوا أو يذكروا فيما لو أرادوا ذلك . كل أحداث الماضي وانما ذلك الجزء المفيد فقط في حل مشكلات الحاضر ورسم طريق السير للمستقبل . ألم يمحور هيرودوت عمله حول تبيان أوضاع الفرس واليونان عندما كان مجتمعه يعيش مرحلة المواجهة المصيرية مع الفرس ؟ ألم يركز توكيديس من بعده عمله التاريخي على استنباط قانون الغلبة وفي ذلك ما فيه من فائدة لموطنه الذي كان يخوض حربا تجاه خصم منافس للهيمنة على بلاد اليونان ؟

هذا غيض من فيض . ويمكن تعداد الامثلة بالنسبة لكل العصور ولجميع الامم : المنفعة تطغى على الفكر التاريخي . والتاريخ هادف دوما لحل معضلات الحاضر عند الامم وخدمة أهداف المستقبل ، وبالتالي لا بد لنا اذا اردنا البحث في ضرورة اعادة كتابة تاريخ الامة العربية من التوقف لاستجلاء واقع الامة العربية الحالي أو تطلعاتها المستقبلية وقياس المكتوب منه ، فان كان فيه ما يفي بالمطلوب ويحقق الغرض نبقى سائرين على الدرب . لتعمل جامعاتنا ومؤسسات البحث في وطننا العربي والعالم في اطار عملها المرسوم من التعمق في وقائع معروفة واستجلاء لغوامض مجهولة . وان كان خط السير يسير في اتجاهات معارضة لخدمة قضايا امتنا الحاضرة ومتناقضة مع طموحاتها المستقبلية . عند ذلك لا بد من تصحيح المسار كي يتجه نحو الهدف . ولا مناص من معالجة المضمون كي يخدم في معالجة موضوعات الحاضر وتكييف السير نحو المستقبل . أما الواقع العربي الآن ؛ فهو مرور الامة العربية بمرحلة تأكد الذات القومية على صعيد الوعي والشعور ؛ ومحاولة التعبير سياسيا عن هذه الوحدة القومية بانشاء الدولة العربية الواحدة. لكن هذا لا يعني موت القديم ، فهو كما يحدث في التاريخ دائما : باق على شكل رواسب من اقليمية وشعوبية وطائفية تدفع بالامة العربية الى التجزئة وتشدها الى الخلف ، وتكون عليها خطرا لا يمكن مقارنته بالخطر الذي تكونه على الامم الاخرى التي توجد فيها ، لان الامة العربية تجابه في الوقت الحاضر تحديات كبرى كالتحدي الحضاري المتجه نحو طمس معالم الشخصية الحضارية العربية وازالة خصوصيتها ، ثم تحدي الوجود العربي باغتصاب قلبه واقتطاع الاطراف من أغلب الجهات والتهديد بابتلاع المزيد .

أما الطموحات المستقبل فتتجه نحو القضاء على

هذه السلبيات من رواسب ، وتحقيق الوحدة العربية في جميع المستويات وتحرير ما اغتصب واسترداد ما سلب . وبمقدار ما يتحقق من ذلك تتوفر الشروط الموضوعية الملائمة لممارسة الانسان العربي حريته السياسية والاجتماعية ، بخلاصه من الاستثمار والاستغلال بكل صوره ، الامر الذي يفسح أمامه المجال رحبا لتفجير طاقاته وحمل الرسالة من جديد للاسهام في بناء الحضارة الانسانية واحتلال مكانته اللائقة في ركب الحضارة الانسانية المتجه الى الامام .

تجاه هذا الواقع وأمام تلك التطلعات نجد ما هو مكتوب من تاريخ الامة العربية يتمثل بالمؤلفات التراثية التي كتب جلها في العصور الوسطى ، وهي كنز ثمين يمثل مدى التقدم الذي أحرزه العرب بالنسبة لغيرهم وعظمة اسهامهم للانسانية في هذا المضمار ، لكن التوقف عنده يعني اغفال التقدم الذي أحرزته الانسانية حتى عصرنا الحاضر ، كما ان كتابه قد عاشوا مرحلة سلفت فيها من الاوضاع ولها من المتطلبات ما لا يتوافق أو على الاقل لا يتطابق مع أوضاع ومتطلبات أمتنا في الواقع الراهن . أما الانتاج الحديث بكل متفرعاته ؛ مما كتبه عرب واجانب ، سواء على شكل موسوعات أو مواضيع عامة أو أبحاث معمقة لوقائع جزئية ، ففيه القليل مما يحقق ويوصل الى الغاية ، اذ ان دراسات المستشرقين التي تعتبر النموذج المحتذى منهجا وطريقة عرض وانكبابا على موضوعات بعينها دون غيرها ، فيها ما يخدم أغراض الاجانب أكثر مما يخدم العرب ، لان هدفه الحصول على معرفة للامةالعربية شبيهة بمعرفة الطبيعة للسيطرة عليها أو لتحقيق أكبر قدر من الاستفادة منها . وانعكس هذا بانصرافالكثير منها نحو الدراسات التي تبرز التناقضات في المجتمع العربي بغية استغلالها أو استثمارها مثل الطوائف الدينية وما يدل على تمايز اقليمي أو قطري . أضف الىذلك ان المجموع الكلي للمكتوب عن تاريخ الامة العربية قاصر على الاحاطة بمسيرة الامة العربية . عاجز عن توضيح صيرورتها الى الحاضر .

ما دام المكتوب عن تاريخ الامة العربية غير كاف . اضافة لكونه مستخدما في الغالب كأداة ضد مصالحها بدل توظيفه في خدمة معالجة مشكلاتها الحاضرة وتطلعاتها المستقبلية . فلا بد لنا اذن من تلمس وسيلة ما لكتابة تاريخ عام للامة العربية يتعاون فيه الشكل والمضمون على تحقيق الغاية المرجوة . وفي اعتقادنا ان مجرد كون هذا التاريخ عاما يحدد للامة مسارا متصلا ومستمرا منذ العصور الموغلة في القدم حتى عصرنا الحاضر ؛ فيه ما يثبت في الاذهان خصوصية الامة العربية وشخصيتها الحضارية المتميزة ووحدة كيانها الدائمة . كما ان تقسيم هذه المادة الغزيرة من تاريخ امتنا على أساس شرائح افقية تمثل تيارات شاملة للعرب بمجموعهم يمكن أن يقضي على سلبيات التقسيمات التقليدية ، من تقسيم على أساس قطري يغذي النزعات الاقليمية التي تقسم على أساس السلالات يقضي في الاذهان على استمرار مسيرة الامة ويعرضها للانقطاع بانقطاع هذه السلالات .

في مجال المضمون يجب توخي الخلاص من مفهوم النسابين لتاريخ الامة العربية، فلا تدرس الامة كمجموعة قبائل متنقلة يتسع مسرح أحداث تاريخها بانتشارها ؛ بل يجب دراسة تاريخ الامة العربية مرتبطا بأرضها بحيث تبقى أرض الوطن العربي هي المسرح الدائم لكل الوقائع والمنجزات ، ويكتسب ذلك أهمية كبيرة في يومنا هذا ؛ خاصة لتعرض أراضينا للاغتصاب فيالقلب والاطراف والتهديد الماثل بزيادة المغصوب .

كذلك لا بد من التركيز على ابراز التيارات الموحدة والعاكسة لوحدة المصير فيجميع مراحل التاريخالعربي. هذا الى جانب تزود من يتصدى لكتابة تاريخ الامة العربية برؤية عصرية متبصرة للوقائع التاريخية ، فلا يسمى امتشاق الحسام دفاعا عن معتقد في الدين والفكر والعدالة الاجتماعية فتنة ، بل ثورة تعكسالنزوع العميق للامة العربية للحرية . كما ينظر الى الانقسامات الدينية والمذهبية في جذورها البسيطة من اقتصادية واجتماعية وسياسية ، مميزا بين هذه الجذور ومبالغات وتهويلات المؤرخين المتتالين وتراكمات الزمن ، وفي هذا اسهام في ازالة الحساسيات الطائفية والحزازات الاقليمية التي تصل عند البعض الى حد الشعور بالشخصية المميزة للطائفة .

وأخيرا من الضروري أن تشمل الرؤية بتبصرها أصالة الحضارة العربية وعدم الخلط بين الانفتاح على الآخرين للاخذ منهم ونسبة كل جديد مبتكر لدى العرب الى ما يشبهه في الحضارات السابقة .

هذه نقاط سريعة تعبر عن خطوط عريضة جدا يمكن التوقف عند كل منها لتفصيل جوانبها وشرح محتواها وضرب الامثلة عليها .

وأرى بالتالي أن تتركز أبحاث مؤتمر تاريخ الامة العربية على المواضيع التالية :

(١) الاهداف التي يتوخاها العرب من كتابة تاريخهم .
(٢) مدى كفاية المكتوب عن تاريخ العرب للوفاء بالغرض .
(٣) الاسس المعتمدة في كتابة تاريخ العرب منهجا وشكلا ومضمونا في حالة تبين حاجته لاعادة كتابته .
(٤) وسائل التنفيذ .

أحمد بدر

أستاذ التاريخ الاسلامي بجامعة دمشق

مشكلات واقتراحات

فكرة اولية حول كتابة تاريخنا

لكي نصل الى هذا الهدف او نقترب منه علينا ان نتعرف على الظروف التي كتب في ظلها تاريخ أمتنا العربية الاسلامية . وأهم العوامل التي ابتعدت بتاريخنا العربي الاسلامي عن الاسلوب العلمي والروح الموضوعية . ثم بعد ذلك نحاول أن نتلمس الطريق وصولا الى الغاية التي ننشدها :

أولا ـ بدأت كتابة تاريخ الامة العربية المسلمة وتطورت في ظل الظروف والعوامل الآتية :

* سيطرة العناصر غير العربية على الحكم .
* اقصاء العناصر العربية عن الحكم .
* اسقاط العرب من ديوان الجند .
* النزعة الشعوبية التي اتصف بها كثير ممن تصدى لرواية التاريخ وكتابته .
* النزعة المذهبية بين المذاهب والفرق والطوائف.
* العناية بتكثير المادة التاريخية وتكرار الروايات دون الاهتمام بنقدها او تحليلها .

ولايضاح هذه الافكار ننتقل من الاجمال الى شيء من التفصيل فنقول :

قامت الدولة الاسلامية في عهد الرسول عليه الصلاة والسلام على أسس قوية من الروابط الدينية ، فجمعت العرب بعد الفرقة ووحدتهم بعد الاختلاف . وجاءت الخلافة الاسلامية مؤكدة هذه الوحدة ومتممة لبنائها مما هيأ الفرص امام العرب المسلمين للاندفاع خارج جزيرتهم فاتحين وناشرين مبادىء دعوتهم الاسلامية ، فأسسوا ـ مع اخوانهم المسلمين من غير العرب ـ دولة اسلامية امتدت اطرافها من وسط آسيا الى غرب أوروبا ، وقامت هذه الدولة على أراضي شعوب وامم لها ديانات ونحل وحضارات مختلفة ، الا ان الاسلام استطاع أن يؤلف بين شعوب هذه البلاد في وحدة لم يعرف لها نظير في التاريخ ، مما أثار الحقد والكراهية في نفوس أعداء الاسلام ممن فقدوا مكانتهم الدينية ومراكزهم السياسية والاجتماعية من أصحاب الديانات والملل السابقة . ولما كانوا ـ في ذلك العصر ـ لا يستطيعون القيام بأي عمل عسكري يحاربون به الاسلام ، لضعفهم ولقوة الامة الاسلامية ، فقد تظاهروا بالدخول في الاسلام لا ايمانا به كدين ، ولا رغبة في اعتناقه كمبدأ ، ولكنهم استهدفوا الكيد له والدس عليه ليقللوا من شانه في نفوس أبنائه ، وليفرقوا الامة الاسلامية . وبالتالي ليقضوا على دولة الاسلام التي قضت على دولهم وافقدتهم النفوذ والسلطة .

ومن هنا ظهرت الفرق التي حاول اصحابها مسخ الاسلام وتشويه تاريخ الامة العربية . ومن ناحية أخرى فقد اشترك في كتابة تاريخ الامة العربية الاسلامية في كثير من مراحلها اناس ليسوا من العرب وليسوا من المسلمين ، بل ويحملون كراهية عميقة لهذه الامة ، وقد تعمد هؤلاء أن يدسوا على تاريخنا الكثير من الافكار المغرضة والاحداث والوقائع البعيدة عن الحقيقة التاريخية . ففي مرحلة مبكرة لعب بعض اليهود الذين أظهروا اعتناقهم للاسلام دورا مخربا في كتابة تاريخ العصر الذهبي للاسلام وأدخلوا فيه الكثير من التزييف والتضليل .

وصاحب تدوين التاريخ في العصر العباسي استعانة الخلفاء في الحكم وادارة شؤون الدولة بعناصر من الفرس والاتراك والديلم ، وقد حاول المؤرخون في كتاباتهم الرفع من شأن هؤلاء والاشادة بأمجادهم ، وفي المقابل انتقاص العرب والحط من شأنهم . ولقد كنا نظن، عندما سجل هؤلاء تاريخ العرب قبل الاسلام وحطوا من قدرهم ووصفوهم بأدنى الصفات ، انهم يقصدون اظهار فضل الاسلام على العرب ، لكن ظاهرة ازدراء العرب واحتقارهم استمرت واضحة في كتابة كثير من المؤرخين التي تجسدت في الشعوبية ، وأضافت المزيد من التشويه والتحريف الى تاريخ أمتنا .

وفي فترة لاحقة كتب تاريخ امتنا في الشرق والغرب بأقلام معظم أصحابها ليسوا من العرب وليسوا من المسلمين ، تلك هي فترة الحروب الصليبية في الشرق الاسلامي وفترة المد النصراني على حساب الامة

الاسلاميــــة في الاندلس والمغرب ، ثم ظهــور حركة الاستشراق التي حاول المستشرقون من خلالها تشويــه تاريخ الامة العربية بالتزييف والتلفيق ومحاولة الطعـن في الاسلام والحط من حضارة العرب وثقافتهم .

ويضاف الى العوامل السالفة افتقار تاريخنا الـى منهج البحث التاريخي ـ بصفة عامـة ـ ونقص الوثائق التي تمثل أهم الروافد لكتابة التاريخ ، وغيــاب المؤرخ المحلل الناقد المتجرد ، فمعظم مصادرنا التاريخية تعنى بتكثير المــادة التاريخية وحشد المعلومات وبالاسلوب السردي دون العناية بغربلة هــذه المعلومات ونخلها ، والوقوف أمام جيدها ورديئها وقفة الفــاحص المحلل . كما أن كثيرا من هؤلاء المؤرخين صبغــوا كتاباتهم باللون المذهبي أو السياسي الذي كانوا يعتنقونه او يدورون في فلكه مما أبعد كتاباتهم عن الروح الموضوعية .

هذه العوامل ، هي ـ في نظري ـ عيب يتعين معه اعادة كتابة تاريخنا بأسلوب علمي موضوعي ، وهي وان تكن مهمة شاقة الا انها في الوقت نفسه هــدف نبيل يجب بذل المساعي لتحقيقه أو قطــع خطوات في طريق الوصول اليه .

ثانيا ـ هنــاك بعض الاسس والاقتراحات لتحقيق الهدف المنشود . ومن بينها اقتراح تأليف لجان علميــه مكونة من عدد كبير من العلماء والمؤرخين ذوي الكفايات العالية في فهم وكتابة التاريخ تأخذ عــلى عاتقها اعادة كتابة تاريخ الامةالعربية الاسلامية وتعنى ـ علىالاخص ـ بمــا يأتي :

١ ـ غربلة الروايات والمعلومات التاريخية ونخلهــا ووزنها بمعايير مناهج البحث العلمي التاريخي .

٢ ـ تقويم مصادرنا التاريخية بدراستها دراســة نقدية تضع كل مصدر في مكانه العلمي الصحيح وتوضح مدى الثقة فيه والاعتماد عليه .

٣ ـ نشر المخطوطات التي لهــا صلة بتاريخنــا والموزعة في عديد من المكتبات والمتاحف في مختلف انحاء العــالم .

٤ ـ نشر الوثائق التي ترتبط بتاريخنا تبعا للعصور المختلفــة .

٥ ـ الاهتمام باصدار سلسلة من الدراسات عـن النقوش والكتابات الاثرية والنقود الاسلامية العربية .

٦ ـ اعداد سلسلة مــن البحوث ونشرها عـن المستشرقين ومؤلفاتهم تتضمن دراسة تحليلية نقديــة تقوّم فيها هذه المؤلفات مـن حيث الموضوعية والامانــة العلميــة .

الدكتور عبد الله بن يوسف الشبل
الاستاذ المساعد بقسم التاريخ بكلية العلوم الاجتماعية
الامين العام لجامعة الامام محمد بن سعود الاسلامية
الريــــاض

* * *

فلسفة قومية وحدوية ...

ترمي السطور التالية الى بسط عدد مـن النقاط المتصلة بموضوع مؤتمر تاريخ الامة العربية .

في كتاباتنا التاريخية العلمية (شأننا في ذلك شأن كتاباتنا الاجتماعية العلمية الاخرى) ينبغي هجر الاسلوب الادبي وتوخي الاسلوب العلمي . وفي تناولنا لاعادة كتابة تاريخ الامة العربية يتعين علينا ان نحدد تحديدا أقصى المصطلحات الاجتماعيــة (بما في ذلك التاريخية) التـي نستخدمها في دراستنا حتى نتفادى الوقوع في اللبس ، لان عدم تحــديد مدلولات المصطلحات يؤدي الى اعطاء معان مختلفة لنفس المصطلح . وتسهيلا لاعادة كتابة هذا التاريخ من المفيد ـ وقد يكون مــن الضروري ـ وضع قامــوس عربي للمصطلحات التاريخيــة وتعميمه بيـن الجامعات ومراكز البحوث العربية وغيرها أقصى تعميم .

واعتقد بأن على المؤرخين العرب أن تكون فلسفتهم في اعادة كتابة تاريخ الامة العربية فلسفة قوميــة عربية وحدويــة .

ومن المهم ايلاء اهتمام خاص للفكر التاريخي العربي الاسلامي . ولعلني لست مخطئا بالقول ان هذا الجانب الدراسي لم ينل حقه الذي يستحقه من اهتمامالدارسين العرب .

ان طبيعة اعادة كتابة تاريخ الامــة العربية تستلزم أن يشارك في هــذه الكتابة الباحثون المتخصصون في مختلف المواضيع الاجتماعية ، مثـل علم الاجتماع وعلم النفس وعلم السياسة .

وينبغي التنبيه الى نقطة هامة أخرى متصلة بشكل من الاشكال بالموضوع الــذي تتدارسه . ان عددا مـن المناهج والطرق في دراسة التاريخ والمتبعــة في الغرب حاليا ـ ولعل هذه المناهج والطرق كلها ـ موجودة فـي بطون الكتب العربية التي وضعت في القرون الوسطى . وان مــن الخطأ الافتراض أو الاعتقاد بأن الباحثين الغربيين في التاريخ متفقون في الراي فيما يخص أفضل المناهج لدراسة التاريخ . فالباحثون الغربيون يتبعـون مناهج وطرقا مختلفة أو متناقضة في دراسة التــاريخ . ولذلك على الباحثين العرب أن يختاروا لانفسهم المناهج والطرق الدراسية التي يعتقدون بأنها تلبي حاجاتهم .

وينبغي في اعادة كتــابة تاريخنا أن نفكر تفكيرا هادئا ومتعمقا وموضوعيا ، والا نقيم خطواتنا في اعادة كتابة تاريخنا على الافتراضات (الا في الحالاتالضرورية حقــا) .

ويجب أن تكون النظرة في كتــابة تاريخنا نظرة شاملة ، ولذلك من الحتمي صرف النظر الــى العوامل الثقافية والسياسية والاجتماعية والاقتصادية والنفسية

المحركة لتاريخنا على مستوى الجماهير وليس الاقتصار على مستوى الحاكم .

وحيث ان قسما لا يستهان به من الكتابات التاريخية العربية كتب بعين غير ناقدة . ولضرورة الموقف النقدي في العلم . فان من الضروري تنمية الاتجاهات المتفحصة الناقدة لدى الباحثين .

وعند استعمالنا لعبارة « الامة العربية » فليس المقصود ان أبناء هذه الامة تربطهم بالضرورة أواصر الدم. انه غني عن البيان ان مفهوم « الامة » يستعمل هنا بالمعنى الثقافي وليس العرقي .

فالعرب في العصر الحاضر هم سليلو شعوب مختلفة ولكنهم يشكلون أمة واحدة بحكم عناصر ثقافية معينة تضمهم جميعا .

واذا أردنا تحقيق الوحدة العربية ، فمن جملة الامور التي يجب القيام بها كمؤرخين وكمتخصصين فى الدراسات الاجتماعية أن نشير الى أولئك المؤلفين والمفكرين في تاريخنا العربي الطويل الذين ناصروا وتناولوا في كتاباتهم مؤيدين فكرة الوحدة العربية والعروبة والذين حللوا في كتاباتهم مقومات الوحدة العربية وامكانياتها والمشاكل التي عرقلت أو ساعدت على تحقيق الوحدة العربية .

ثم ينبغي أن نبحث في تاريخنا عن تلك الفترات التي تحققت فيها الوحدة العربية أو وحدة قسم من الاراضي العربية ، وأن نحاول أن نستخلص الاستنتاجات فيما يتعلق بأسباب دوام الدول العربية الموحدة وأسباب زوالها ، وهل تلك الاسباب التي أدت الى دوام تلك الدول تناسب لان نحدثها في عصرنا الحالي أم لا ، وهل تلك الاسباب التي أدت الى ازالة تلك الدول من الممكن تفاديها أم لا .

وحيث ان الامة العربية تتكون من جماهير يختلف قسم من عاداتها فينبغي أن ينصب تفكير المؤرخين والعلماء الاجتماعيين العرب على ما يلي : أن يأخذ الهيكل أو المبنى السياسي للدولة العربية الموحدة في الاعتبار هذا الاختلاف في العادات ، أي أن يكون ذلك الهيكل أو الاطار السياسي لهذه الدولة مرنا بحيث يأخذ في الحسبان خصائص كل من هذه الجماهير اذا وجدت مثل هذه الخصائص ؛ فان من شأن مرونة بنية أو هيكل سياسي كبير أن يطيل حياة هذا الهيكل .

ولدى دراسة اعادة كتابة تاريخنا ينبغي الاخذ في الحسبان العوامل التالية الوثيقة الصلة بالموضوع :

— التركيز على الدور الذي لعبته الجماهير العربية في حركة التاريخ العربي .
— سعة الرقعة الجغرافية للوطن العربي .
— مركزية الاسلام في الحياة العربية (بعد ظهوره) .
— تأثير العرب وتأثرهم ببيئتهم الطبيعية وبالشعوب التي حولهم .
— اثر المتغيرات الاجتماعية والاقتصادية والدينية والثقافية والنفسية على حركة التاريخ العربي .
— التكوين الطبقي للمجتمعات العربية .

د. تيسير الناشف

الامم المتحدة ، نيويورك

* * *

حاجتنا الى وعي تاريخي ...

يمر الوطن العربي في مرحلة خطيرة من تاريخه الحديث ، تشابه في بعض وجوهها مجابهته للحملة الصليبية الآتية من أوروبا في القرن الحادي عشر . فان نجاح الصهيونية في اقامة دولة اسرائيل في قلب العالم العربي ، دليل على عدم وصول العرب في القرن العشرين الى مستوى كاف من القوة الروحية والمادية ، تمكنهم من تفادي الكارثة . وهو كذلك دليل على فقر في فهم حقيقة المجتمع العربي لواقعه ولتاريخه ، وبالتالي لوجود المقومات اللازمة لبلورة هذا المجتمع لكي يتساند في جهد مجد لمنع حدوث الكارثة . فلم يقتصر الامر على انشاء الدولة الصهيونية الدخيلة ، بل ان هذه الدولة تتحدى جميع قوى العرب في دولها ومؤسساتها وتنجح بالتالي في التفريق بينها وفي تمزيق مجتمعاتها على غرار ما يجري في لبنان ، أو في فكرة اتحادها كما جرى في انعزال السادات عن الصف العربي .. فانعزالية الانعزاليين في لبنان ليست فقط نتيجة لتدخل أجنبي استعماري ، بل هي أيضا دليل على وجود الفكر الطائفي الانعزالي في لبنان وفي انحاء شتى من العالم العربي . وفي الحركة الانعزالية من جهة أخرى — التي تجلت في انسياق الحكومة المصرية في تيار القوى الخارجية دليل آخر ؛ يضاف الى الدلائل الآتية من لبنان ، على ان العالم العربي لا يزال في أمس الحاجة الى مواجهة معضلته الاجتماعية والقومية من الداخل ، قبل أن يتمكن من الوقوف في وجه التحركات الامبريالية الخارجية .

وهنا تتجلى لدينا الاهمية الكبرى لثورة فكرية تربوية تسعى لايجاد جيل عربي يستمد قوته من ثقته بنفسه . ومن الواضح ان أصول هذه الثقة بالنفس تعتمد بالدرجة الاولى على معرفة الانسان العربي لجذوره التاريخية . ولهذا فاننا في حاجة الى وعي تاريخي مبني على أسس علمية صحيحة . يبدأ هذا الوعي عند المختصين والباحثين ، ثم يمتد تدريجيا الى المثقفين ، ثم يتطور الى احساس شعبي عام . وقد يستغرق ذلك أجيالا ، ولكن علينا البدء في هذا الطريق

حالا وبشعور بأهمية العمل الملقى على عاتق المؤرخين .

ان انعقاد مؤتمر يدعى « مؤتمر تاريخ الامة العربية » يدل أولا على توفر الشعور بالحاجة الى ايجاد وعي تاريخي في الامة العربية ، وان هذا الشعور موجود عند المختصين وعند بعض قادة العرب . ثم انه يؤكد لنا الحاجة الماسة لمثل هذا المؤتمر . اذ اننا في الامة العربية . وبما يخص التاريخ ، لا نزال نعاني من النواقص الآتي ذكرها :

أولا ـ الاعتقاد السائد بأن التاريخ ، ودراسة التاريخ ، هو مادة مدرسية تنتهي بانتهاء الدراسة . ويعاني من هذا الاعتقاد الخاطىء طلابنا والكثير من أساتذتنا الذين ينتهي مجهودهم التاريخي بالتعليم المدرسي أو بكتابة الكتب للتدريس .

ثانيا ـ الفقر في البحث التاريخي الجدي الذي يستقصي الجذور ويحلل الوثائق ويكتشف المخبوءات . ثم يتوجه الى التحليل العلمي الدقيق . ثم الى ربط الحقائق التاريخية بالواقع الانساني ، بفلسفة المجتمع وبالتوجيه الحضاري والسياسي .

ثالثا ـ الاهتمام القليل بالتنقيب عن الآثار . فلا يزال علم الاركيولوجيا في عامة البلدان العربية تقريبا وقفا على الاجانب . ويعود هذا النقص الى عدم اهتمام الجامعات والمؤسسات العلمية (وهي مؤسسات حكومية) بالآثار والتنقيب عنها ، الامر الذي يتطلب زمانا طويلا وجهدا ومالا ، مع العلم بأن نتائج البحث الاركيولوجي ـ بعكس نتائج التنقيب عن البترول مثلا ـ تأتي فقط بنتائج حضارية وفكرية من الصعب تقييمها .

رابعا ـ يتبع ذلك قلة الاهتمام بتاريخ الامة العربية قبل الاسلام . فالتاريخ القديم الذي كان في حساب الشرق والغرب في قرون مضت يتبع خطا توارثيا ضيقا لم يزل مهملا عند المؤرخين العرب .

ان مؤتمر المؤرخين العرب يجب أن يؤكد أولا على أهمية دراسة التاريخ بصورة علمية شاملة لجميع حقب التاريخ (القديم والمتوسط والحديث) ومن جميع جوانبه (علميا وفنيا واجتماعيا واقتصاديا الخ ..) والى أهمية تفريغ المختصين للبحث والاستقصاء عن المصادر الاولية والتنقيب عن الآثار ، الى أن تصبح مادة التاريخ فنا وعلما وادبا ، وليس فقط مادة تدريس في المدارس والجامعات .

د. حسن حداد
رئيس قسم التاريخ بكلية سانت كسافيه بشيكاغو

* * *

هذا المشروع

مشروع هام وخطير ، مرتبط ارتباطا وثيقا بوضع الامة العربيه الراهن ، كما كانت كتابة التاريخ في أية امة ، وفي اي زمن ، مرتبطة بوضع تلك الامة وبشكل الحكم فيها . الا اذا كان المؤرخ متخذا لنفسه منهجا معينا .

في أيار ١٩٧٤ تاسس في بغداد اتحاد المؤرخين العرب . وكان من أهم أهداف تأسيسه اعادة كتابة تاريخ الامة العربية بشكل موضوعي ، وكان الاتحاد يستعرض في كل اجتماعاته المتتالية سنويا هذه الفكرة ، وكانت المناقشات تطول وترفع الى الدول المشتركة في الاتحاد . دون جدوى ، والاتحاد مؤسسة ناشئة ضعيفة عاجزة عن القيام بهذا المشروع الضخم وحدها ، فهو يتطلب نفقات باهظة ، وحشد جهود وطاقات هائلة من العلماء والمؤرخين والباحثين المخلصين الموثوق بهم .. وفي اجتماعات المكتب الدائم في الدوحة والكويت استعرض الاعضاء سعي بعض الحكومات النفطية الى أعادة كتابة التاريخ العربي وحدها وتكليفها أيضا بعض العلماء العرب والاجانب بذلك ، وكان استنكار المكتب لهذا العمل ، فالتاريخ العربي لا يمكن أن يكتب بأقلام أجنبية ، وانما أراد اتحاد المؤرخين اعادة كتابته لتنقيته من الشوائب والدسائس التي أدخلها فيه المغرضون من الباحثين الاجانب الذين يريدون تنفيذ مآرب دولهم بادخال الشك في نفوس الناشئين من أبناء هذه الامة .

بعض الدول العربية تنظر اليوم الى اعادة كتابة تاريخ الامة العربية على انه سبيل لنشر روح معينة ، يمينية أو يسارية ، ديمقراطية أو استبدادية ، اشتراكية أو ليبرالية او راسمالية ... وما الى ذلك من اتجاهات . فهنالك ـ اذن ـ أصابع اتهام تشير اليوم الى المشروع . واذا أريد له أن يكتب بروح علمية موضوعية فانني أرى ان خير سبيل لذلك ربطه بتوحيد الفكر العربي والثقافة العربية عامة ، فان تمت تلك الوحدة الفكرية انشئت مؤسسة توضع لها قواعد معينة وبرامج محددة تقيد الباحثين وتشرف عليهم ، وبذلك تتحقق الروح الموضوعية العلمية . وامل اتحاد المؤرخين العرب كبير بأن ينجح ميثاق العمل القومي المنشأ بين بغداد ودمشق . فيكون في اخلاصه للامة العربية رائدا مشجعا لبقية الشعوب العربية لتضم وتؤلف الاتحاد العربي أو الوحدة العربية التي تمناها الآباء والاجداد منذ قرون ، وعند ذلك تتأكد الوحدة الثقافية والفكرية عند العرب عامة ويستطيع اتحاد المؤرخين العرب تقديم خدمته في هذا الميدان بكل اخلاص وبروح موضوعية علمية صادقة .

محمد الدروبي
الجمهورية العربية السورية

تاريخ العرب في كتب الغرب

وقد ان الفت نظر المؤتمر الى ناحيـــة هامة تتعلق بكتابة تاريخ الامة العربيه . وهي كتابـــة ذلك التاريخ باللغات الاجنبية وعرضه بطريقه علمية موضوعية مشوهه على طلبة المدارس في العالم العربي . فكثير من الاساتذة العرب المغتربين قـد عانوا كثيرا مـــن عدم تفهم ذلك التاريخ بين الطلبة . بل من التحريف والتشويه فيـــه والجهل به . وغني عن البيان ما للكتب المدرسية مـــن تاثير في تكوين عقلية النشء وفي تكييف موقفه الذهني والعاطفي من العالم الذي يعيش فيه ومن الشعوب والامم التي تخالف شعبه وأمته في كثير مـن شؤون حياتها . وبالتالي في تحديد موقف ذلك النشء مـــن الشعوب والامم الاخرى حينما يكبر ويصير يريـــد دفة الامور الثقافية والسياسيه في بلده .

وليس هذا المجـــال لتفحص أسباب التحريف أو التشويه . فهنالك عوامل كثيرة جرت اليه ، ولعل أهمها هو التحدي المباشر الـــذي قامت به الدول العربيـــة والاسلاميه نحو الغرب منذ التوسع العربـي والاسلامي في القرن الاول من الهجرة حتى زوال السلطة العثمانية عن الممتلكات الاوروبية . فالعداوة الطويلة بين العالـــم العربي والعالم الغربي حدت الـــى اظهار العدو بطريقة فظة تكاد تخلو من المقومات الانسانية . ولعـل من تلك العوامل أيضا الموجة الامبريالية (بما في ذلك الموجـــة الصهيونية) التي حاولت ان تبرر صنيعها بالتعالي على العرب ووصفهم بأوصاف تنزلهم عـن الاعتبارات التـي تربط الانسان بالانسان . غير ان العامل الاهم هو الجهل الراسخ قدمه بين الكتاب والمؤلفين الذين ينبرون لكتابة الكتب المدرسية .

وقد انتبه الى هذه الظاهرة بعض الاساتذة العرب في جمعية دراسات الشرق الاوسط في أميركا ، فشكلنا لجنة دائمة في تلك الجمعية مهمتها دراسة الصورة التي تعكسها الكتب المدرسية المتوسطة والعالية عـن الشرق الاوسط . وقد ظهر لنا منذ البدء في تصفح تلك الكتب ان الحقيقة تفوق مخاوفنا سوءا وتماديا فـي الجهل . فمن الكتب الستة والاربعين في تاريخ العالم أو تـاريخ الشرق الاوسط التي تصفحناها أولا ، وجدنا ان تسعة وعشرين منها غير مرضية تماما أو انها مغرضة أو ملأى بالاخطاء ، والباقي ، أو تسعة عشر ، كانت تتراوح بين ممتازة الى مرضية . ولا أود في هذه العجالة أن أشير الى جميع الاخطاء أو التشويهات التي عثرنا عليها ، انما أذكر بعضا منها على سبيل التفكهة :

١ ــ النبي محمد ادعى انه نبي .
٢ ــ الاسلام نشر الدين بالسيف .
٣ ــ ان الحكام العرب يعرفون انـــه أثرت طريقـة الحياة الاسرائيلية فـــي شعوبهم المستعبدة فانهـــم لا يستطيعون ضبطها بعد ذلك .
٤ ــ القومية العربية تظهر وكأنها قوة هدامة فـي حين ان الصهيونية أو القومية الاسرائيلية تظهـر عـلى عكس ذلك .
٥ ــ حكم الاستعمار الفرنسي كـــان « سارما . وفعالا . وجيدا . ففرنسا كانت من أوائل من تولى عبء الرجل الابيض » .
٦ ــ عندما تـوفي محمد (صلعم) انتقلت قيـادة دينه المكافح اولا الى اقربائه وبعد ذلك الى قادة معينين يدعون بالخلفاء .
٧ ــ في مكة نيزك أسود أي الكعبة وكانت سقطت من السماء في الماضي البعيد .
٨ ــ في شهر رمضان يتوجه عشرات الالوف من المسلمين الى مكة للحج .
٩ ــ ان منطقـــه الشرق الاوسط . عـــدا بعض الواحات ودوله اسرائيل . هي صحراء يسكنها البدو .
١٠ ــ ان رباعيات عمر الخيام هي مـــن المؤلفات العربيه التي يعرفها الغربيون !

وقد اصدرت اللجنة المنوه عنها انفا تقريرا مطـولا عن الكتب المدرسية مع قائمة بالكتب التي تحبذها اللجنة والاخرى التي تشجبها . ومثـــالا لدروس عن بعض مشاكل الشرق الاوسط وكيفية تعليمها .

غير ان المشكلة لا تنتهي بمجـرد اصدار تقرير . ولا بد من اتخاذ خطوات فعالة من قبل المؤرخين العرب والدول العربية . ومن رأيي أن تتوحد جهـود الملحقين الثقافيين العرب في الـدول الغربية لاصـدار الكتب المدرسية بواسطة دور نشر معتبرة تصور التاريخ العربي والحضارة العربية بطريقة جذابة وموضوعية . فاميركـا مثلا أسست بعد الحرب العالمية الثانية مؤسسة فرنكلين لنشر الكتب الاميركية في العالم العربي ، وبريطانيا لها « المعهد البريطاني » الذي يقوم بنشر الثقافة البريطانية . والمانيا لها « معهد غوته » لنشر الثقافة الالمانية . لقـد حان الوقت لانشـــاء « معهد عربي » يقوم بنشر الكتب المدرسية ، ولا سيما التاريخية منها ، أو لتمويل نشر الكتب من قبل المؤرخين العرب أو المؤرخين الاميركيين الذين يعتمد عليهم وعلى موضوعيتهم .

د. فرحـات زيادة
جامعة واشنطن

* * *

اقتراحات . . .

هناك صلة أساسية وحيوية بين الموضوعين المقترح بحثهما في « مؤتمر تاريخ الامة العربية » :

١ ــ دراسة الوضع العربي الراهن .

٢ ـ كتابة تاريخ الامة العربية (باسلوب علمي وروح موضوعية) .

فان الوضع العربي الراهن يتيح فرصة لم تتوفر لنا في الماضي لاعادة كتابة تاريخ الامة العربية ومن ثم الخلاص من التجزئة القطرية المفروضة على المنطقة . فالحتمية التاريخية تدعونا الى التمعن في ذلك التاريخ بروح علمية .

ان دراسة الموضوعين المذكورين لها أهمية تفوق الميدان الفلسفي والنظري البحت ، فالفكرة وليدة دوافع وظروف آنية تفرض حتمية البحث والتمعن وايجاد الحلول .

اما الظروف الآنية التاريخية التي أدت الى طرح الموضوعين فانها ليست بمقتصرة على السبعينات من القرن العشرين ، بل لها روابط وثيقة وجذرية بما مرت به الامة العربية منذ نهاية الحرب العالمية الثانية ... اي الحركات الثورية التي أدت الى نجاح الوطنية القطرية بدفع الاستعمار السياسي والثقافي والديني والذي سيطر على حياة الامة منذ القرن السابق . والدلالة الفكرية لذلك النجاح نجدها في مناهج وكتابة التاريخ حتى الخمسينات من القرن العشرين . ففي معظم الاحيان نجد تشويها للاطار العلمي النظري العربي بفكر ليبرالي يدعم الوضع الراهن تاريخيا وفلسفيا ومعنويا . فمثلا نجد ان الحوار التاريخي مركز على درس عوامل التفرقة بين الاقطار العربية ... فالهدف السياسي لهذه البحوث واضح جدا . وهو لتبرير التجزؤات القطرية التي فرضها الاستعمار على الامة العربية عن طريق برهنة طبيعية وجذرية تلك الفوارق والشذوذ (مثلا التفرقة حسب اللكنات . أو فردية مصر مرتبطة بفرعونية تاريخها القديم ، أو فردية شمال افريقيا مرتبطة بالعنصرية البربرية الخ) .

والفرق بين المنهج الليبرالي الاستعماري المذكور وحقائق تاريخنا واضح لكل من درس تاريخ أمتنا عن طريق منهاج تاريخي شمولي يبين الروابط الحيوية والاسس الشاملة التي تربط تلك الاقاليم بعضها مع بعض عبر التاريخ (فعلى سبيل المثال لم يطلب من ابن خلدون او ابن بطوطه لا جواز سفر ولا اذن عمل .. ولا ابداء وجهة نظر أو نزعة خاصة في أي قسم من البلاد العربية التي نزلوا بها أو زاروها) .

ويجدر بنا أن نذكر بينات وبوادر جديدة تدل على ان المنهاج التاريخي الشمولي ليس من مواليد ١٩٧٨ فحسب ، واخص على سبيل المثال ما تنشره مجلة « الثقافة العربية » التي تصدر في الجماهيرية ومجلة « آفاق عربية » التي تصدر في الجمهورية العراقية .

فمن رؤيتنا وتصورنا لما سيكون عليه مؤتمرنا فاني أقترح :

أولا ـ تكريس ندوة (أو عدة ندوات) لدرس التيارات الداخلية والعوامل الخارجية التي تؤيد برنامج بحوث شموليا لتاريخ الامة العربية .

ثانيا ـ أقترح تكوين لجنة (أو لجان) لطرح الافكار والآراء لنفس البرنامج العلمي المذكور أعلاه . ومن ثم أقترح تكوين لجان تاخذ تلك الافكار والآراء قيد البحث والتمعن الدقيق لكي تتمكن من اعداد برامج منهجية لدراسة تاريخ الامة العربية .

ثالثا ـ اقترح تكوين لجنه تحضيرية لتأسيس هيئة من المؤرخين العرب (مدعومة من قبل صندوق تتبرع له مصادر تمويل عربية من مؤسسات التنمية العربية أو الجامعات العربية أو مراكز بحوث عربية) من أهم واجباتها :

أ ـ تصنيف برامج بحوث مطولة وايجاد طرق عملية لتطبيقها .

ب ـ دراسة برامج بحوث مقدمه من قبل مؤرخين عرب وتابعة للاطار العلمي المصنف من قبل الهيئة المذكورة تمهيدا لدعمها ماديا ومعنويا .

ج ـ انني أقترح تكوين مجلة علمية يطلق عليها اسم « تاريخ الامة العربية » هدفها الاول نشر مقالات علمية داخلة في الاطار المذكور اعلاه .

د. رفعت علي أبو الحاج
استاذ التاريخ بجامعة كاليفورنيا

* * *

شروط ضرورية ...

ان كتابه تاريخ الامة العربية بأسلوب علمي وبروح موضوعية يتطلب حقا بذل الجهود المنظمة والمكثفة على غرار عقد مؤتمر لبحث هذا الموضوع بل مؤتمرات على فترات يتفق عليها .

ولتحقيق هذا المشروع لا بد من توافر شروط اساسية مثل :

(أ) توافر جهة واحدة متفق عليها تتولى عملية التخطيط للمشروع والاشراف على تنفيذه واخراجه الى حيز الوجود ، والجهة الجديرة بهذه المهمة هي اتحاد المؤرخين العرب سواء كان منفردا او مشتركا مع منظمات أخرى كالمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم وغيرها.

(ب) ضمان تمويل المشروع .

(ج) مساهمة المؤسسات المختلفة المهتمة بهذا المجال مثل الجامعات والجمعيات التاريخية ووزارات الثقافة ومراكز الدراسات والبحوث التاريخية التقافية ، تلك المساهمة الايجابية التي تشمل جوانب متعددة تحددها الجهة المشرفة .

(د) تشكيل لجنة أكاديمية فنية من المؤرخين شبه متفرغة تتولى الكتابة أو الصياغة أو التنسيق بين لجان أو مؤرخين متخصصين .

(هـ) توافر الاقتناع لدى المسؤولين العرب حول تنفيذ المشروع أو اقناعهم في مساهمتهم الايجابية .

(و) توافر الاحساس والاقتناع التام لدى المؤرخين العرب المخلصين الغيورين على جلاء تاريخ الامة العربية .

(ز) الاستفادة من كل الجهات التي تتولى مشاريع كلية أو جزئية مشابهة ، أي دراسة تاريخ البلاد العربية أو الحضارة العربية أو ما شابه ذلك . كتلك الجهة التي تتولى دراسة التاريخ العربي في الكويت ، أو أكاديمية العلوم السوفياتية التي تتولى دراسة تاريخ الاقطار العربية ، أو اللجنة التاريخية المكلفة باعادة كتابة تاريخ الثورة المصرية برئاسة أ. د. أحمد عزت عبد الكريم ، حتى وان كنا مختلفين مع بعض هذه الجهات ، الا ان التنسيق معها أو الاطلاع على مشاريعها وما قدمته وأنتجته تعتبر من التسهيلات العلمية ، وهو ما أقصده بالاستفادة .

ان توافر هذه الشروط أو بعضها لا بد وأن يكون من ضمن أعمال اي مؤتمر يبحث هذا الموضوع .

ان كتابة تاريخ الامة العربية يتطلب تقديم اقتراحات ايجابية علمية وعملية ، وأنا أتقدم بما يلي :

تقسيم كتابة تاريخ الامة العربية على شكلين أو نوعين كالتالي :

الشكل الاول :

كتابة تاريخ الامة العربية كأمة واحدة ذات تاريخ « أمة عربية واحدة على مستوى الوطن العربي » ، وهذا هو العمل الرئيسي والاساسي .

وبهذا الشكل يتحقق الهدف القومي للامة العربية في نظرتها الى تأريخها كوحدة متماسكة ، وهو ما أهدف اليه .

الشكل الثاني :

كتابة تاريخ للاقطار العربية ، كل قطر على حدة ، حسب هيكل بحث تقترحه لجنة علمية . أو أن يترك لكل قطر عربي أن يعد تاريخه من قبل لجنة أو مؤرخ معروف من داخل القطر يقدم للجهة المشرفة .

وهذا الشكل قد يرضي المسؤولين في الاقطار العربية المختلفة ؛ من حيث ان كتابة تاريخ الامة العربية لن يكون موجها لاغراض خفية غير واضحة لهم .

بهذا يكون تاريخ الامة العربية ممكن التنفيذ نتيجة لاقتناع المؤرخين العرب في كل قطر عربي في المساهمة في كتابته . اضافة الى اقتناع المسؤولين العرب في دعمه وتنفيذه ماديا ومعنويا .

د. شايف عبده سعيد
رئيس قسم التاريخ بجامعة عدن

* * *

حول جدلية التفكك والوحدة

يمكن تلخيص النقاط فيما يلي :

١ ــ موضوعية وشمولية التناول السياسي من الناحية الاقتصادية والاجتماعية والفكرية والثقافية والحضارة المعمارية .

٢ ــ رؤية التفكك والوحدة على طول البعد الزمني لما قبل الاسلام حتى الوقت الحاضر ، وبعرض رقعة الوطن العربي مع العناية بالمنتمين للحضارة الاسلامية .

٣ ــ تقسيم الفترات الزمنية لتاريخ الامة العربية من منظور التفكك والوحدة ، أي تفكك ما قبل الاسلام ، فالوحدة الاسلامية ، والتفكك في أواخر العصر العباسي، ثم الوحدة في مواجهة العدوان « الصليبي » الاوروبي.. مرحلة تفكك طويلة و « وحدة » استبدادية ثم تفكك بفعل الاستعمار يستنهض بالتبعية النضال والجهاد المعادي له ، وتبلغ الذروة بالتحدي الصهيوني لنعيش مرحلة الكفاح من أجل تحرر ووحدة الامة العربية .

٤ ــ أن يكون التناول والمعالجة للموضوع على أساس عرض مجموعات المصالح المتناقضة ونضالات المقهورين وفكرياتهم ضد المستغلين والمستبدين وفكرياتهم، مع موقع كل منهم في الانتاج والتملك .

٥ ــ أن يتم ذلك داخل اطار جدلي يراعي ان فترة التفكك والوحدة ليست فترة مطلقة وانما هي فترة يغلب عليها التفكك أو الوحدة ، بمعنى انه يوجد في داخل فترة التفكك عناصر الوحدة المستنهضة لها ، وفي داخل فترة الوحدة عناصر التفكك المحطمة والمدمرة لها .

٦ ــ أن يكون العرض غير معزول عن الحضارات الاخرى السابقة والمواكبة للحضارة العربية لانها متأثرة بها ومؤثرة فيها مما جعلها ويجعلها مصدر اثراء واغناء للحضارة الانسانية .

اقتراح بتوصيات

(١) مؤسسات :

أ) شراء المذكرات السياسية واستكتابها .

ب) مركز وثائق يتبادلها مع المراكز الاخرى .

جـ) مركز تجهيز للكتب التاريخية أو صور من النادر منها لامداد مراكز الابحاث والمراكز الثقافية والسفارات والجامعات .

(٢) اعمال للامد البعيد :

أ) دائرة معارف للتاريخ العربي (مطولة) .

ب) مؤلف عن تاريخ الامة العربية (مطول) .

جـ) فهرس بكتب التاريخ العربى (محليا وعالميا) حتى ١٩٨٠ .

د) طبع الكتب والرسائل الجامعية الهامة وترجمة الرسائل الجامعية الاجنبية التي تتناول موضوعات تاريخ الامة العربية .

(٣) أعمال للامد القريب :

أ) دائرة معارف للتاريخ العربي (مختصرة) وترجمتها .

ب) مؤلف عن تاريخ الامة العربية (مختصر) وترجمته .

جـ) فهرس سنوي بكتب التاريخ العربي .

د) حولية سنوية .

هـ) مجلة فصلية .

د. مصطفى هيكل
جمهورية مصر العربية